

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

معلوم أن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْدٌ ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى ، وإنما بشيء مستقبل . و ﴿ أُولَاهُمَا ﴾ أى : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ۝ ﴾ [الإسراء]

وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام : لأن كلمة (عِبَادًا) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذى قتله طالوت ، ويختنصر فهما كافران .

وقد تحدث العلماء فى قوله تعالى : ﴿ عِبَادًا لَّنَا ۝ ﴾ [الإسراء]

فمنهم من رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَادًا) يُقَالُ للمؤمن والكافر ، وأتوا بالأدلة التى تؤيد رأيهم حسب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى فى قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴿

[المائدة]

والشاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ .. ﴾ (١١٨) ﴿ [المائدة]

فاطلق كلمة « عبادى » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن
يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سَلَّطَا على بنى إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكى موقفاً من مواقف يوم القيامة ،
يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ
عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الفرقان]

فاطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا .. ﴾ (٥) ﴿ [الإسراء]

ليس من الضروري أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ،
وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم
منهم ، وَيُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الْكُفْرَةِ وَالظَّالِمِينَ ، فإذا أراد سبحانه
أن ينتقم من الظالم سَلَّطَ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ ظُلْمًا ، وَأَشَدَّ مِنْهُ
بَطْشًا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩) ﴿ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الراى لديهم من الادلة ما يثبت أن كلمة

عباد تُطْلَقُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى الْكَافِرِينَ ، فَسَوْفَ نَأْتِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى
أَنَّهُ لَا تُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ^(١) .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ يَسْتَحْسِنُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَامًا ۖ﴾ (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ۖ﴾ (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ﴾ (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۖ﴾ (٦٧) ﴿[الفرقان]

إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرْتَ الْآيَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، فَاطْلُقْ
عَلَيْهِمْ « عِبَادُ الرَّحْمَنِ » .

دَلِيلٌ آخَرٌ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي نِقَاشِهِ لِإِبْلِيسَ : ﴿إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ..﴾ (٤٢) ﴿[الحجر]

وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُؤْمِنُونَ .. وَقَدْ قَالَ إِبْلِيسُ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ۖ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ (٨٣) ﴿[ص]

إِذَنْ : هُنَا إِشْكَالٌ ، حَيْثُ أَتَى كُلُّ بَادِلَتِهِ وَمَا يُؤَيِّدُ قَوْلَهُ ، وَالْخُرُوجُ
مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ نَقُولُ : كَلِمَةُ « عِبَاد » ، وَ « عَبِيد » ، كِلَاهُمَا جَمْعٌ
وَمُفْرَدُهُمَا وَاحِدٌ (عِيد) . فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

لَوْ نَظَرْتَ إِلَى الْكَوْنِ كُلِّهِ مُؤْمِنَةً وَكَافِرَةً لَوَجَدْتَهُمْ جَمِيعًا لَهُمْ
اخْتِيَارَاتٌ فِي أَشْيَاءَ ، وَمَقْهُورِينَ فِي أَشْيَاءَ أُخْرَى ، فَهُمْ جَمِيعًا عَبِيدٌ

(١) قَالَ الْأَزْمَرِيُّ : اجْتَمَعَ الْعَامَّةُ عَلَى تَفْرِيقِ مَا بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ وَالْمَمَالِكِ . فَقَالُوا : هَذَا عِيدٌ مِنْ
عِبَادِ اللَّهِ ، وَهَؤُلَاءِ عَبِيدُ مَمَالِكٍ . وَقَالَ اللَّيْثُ : يَقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ هُمْ حَبِيدَةُ الطَّاغُوتِ ، وَيُقَالُ
لِلْمُسْلِمِينَ : عِبَادُ اللَّهِ يَمْبُدُونَ اللَّهَ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مِلَّةٌ : عِيدٌ]

بهذا المعنى يستوى فى القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخلق عبيد فيما لا اختيار لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسمهم إلى قسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تعالى لك فى أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفعل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاختيار هذه يتميز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلَمُوا جميع أمرهم لله فى منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى فى المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خيّرهم : تؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حلّ ما أشكل فى هذه المسألة لا بدّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُعيّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمردوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختيارات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محل للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجال فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فهم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. ﴾ (١١٨)

[المائدة]

وقوله : ﴿ أَنْتُمْ أَهْلَتْمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ (١٧)

[الفرقان]

فسمّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يعدّ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستنوّوا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : فنقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا .. ﴾ (٥)

[الإسراء]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جاسّوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم من قتلوه ، وسبّوا من سبّوه .

وقوله : ﴿أَوَّلَىٰ بِأَمْرِ شَدِيدٍ .. ٥٠﴾ [الإسراء]

أى : قوة ومنعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

وقوله سبحانه : ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ .. ٥١﴾ [الإسراء]

جاسُوا من جاس أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمِّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دقَّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دقَّة البحث ، فقد يتخلل المشط تَخْلُلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن أثر التعبير بقوله : ﴿بَعَثْنَا .. ٥٢﴾ [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

[الإسراء]

وقوله : ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝﴾

أى : وَعْدٌ صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كاذب وَعْدٌ يمكن أن يَفُى به صاحبه أو لا يَفُى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْدًا : سألَكَ غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج فى تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممن يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مثل هذه العوارض ، فوعده مُتَحَقِّقُ النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا يُقال إلا فى الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الاحداث : ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ ۝﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلق على الشر ، والوعد يُطلق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً فى ظاهره ، وهو خير فى باطنه ، وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أن يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر فى ظاهره ، لكنه فى الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إن حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذى يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ﴾

الخطاب في هذه الآية مُوجَّه لبني إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحول وانقلاب للأوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سَلَطَهُم لتأديب بني إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تَخَلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به ، وَتَنَصَّلُوا من كَوْنِهِم عِبَاداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلَّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون في المدينة ، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدَّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتكُيْبُ للطريق المستقيم ، فأنحَلَّتْ الأمور الإيمانية في نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فأنحَلَّتْ عنهم صِفَةُ عِبَادِ الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استصقوا أن يكونوا عِبَاداً لله بحق تراجعت كِفَتُهُم وتَخَلَّوْا عن منهج ربهم ، وتصاكَموا إلى قوانين وضعية ، فسَلَّط عليهم عدوهم ليؤدَّبَهُم ، فأصبحت الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ۖ﴾ (٦)

و ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي ، على خلاف الفاء مثلاً التي تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿ (٢٢) [عيس]

فلم يقل الحق سبحانه : فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ ﴾ . ذلك لأن بين الكُرَّة الأولى التي كانت للمسلمين في عهد رسول الله ، وبين هذه الكُرَّة التي كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذي أعطى لهم الحق في قيام دولتهم في فلسطين ، وكانت الكُرَّة لهم علينا في عام ١٩٦٧ ، فناسب العطف بـ « ثم » التي تفيد التراخي .

والحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ لَكُمْ الْكُرَّةَ .. ﴾ (٦) [الإسراء]

أى : جعلنا لبنى إسرائيل الغلبة والقوة والنصر على المسلمين وسلطانهم عليهم ؛ لأنهم تخلوا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتهم عباداً لله .

و (الكُرَّة) أى : الغلبة من الكر والفر الذى يقوم به الجندي في القتال ، حيث يُقدم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ (٦) [الإسراء]

وفعلأ أمدهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال في العالم كله ، وأمدهم بالبنيين الذين يُعلمونهم ويُثقفونهم على أعلى المستويات ، وفي كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كُرَّة على المسلمين ، فهم في ذاتهم ضعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قاتبة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومى المزعوم في فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴾ [الأنعام]

فالتفريق مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التى ساندت اليهود وصادمت المسلمين .

وما زالت الكُرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أن نعود كما كنا ، عباداً لله مُستقيمين على منهجه ، مُحْكَمِينَ لكتابه ، وهذا وَعْدٌ سَيُحَقِّقُ إن شاء الله ، كما ذكرت الآية التالية :

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۗ ﴾ [٧]

وما زال الخطاب مُوجَّهاً إلى بنى إسرائيل ، هاكم سُنَّةٌ من سنن الله الكونية التى يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهى أن مَنْ أَحْسَنَ فله إِحْسَانُهُ ، وَمَنْ أَسَاءَ فعليه إِسَاءَتُهُ .

فها هم اليهود لهم الغلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

(١) تَبَّرَهُ : دَمَرَهُ وَأَهْلَكَهُ . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ الْمُتَبِّرِينَ مَا هُمْ بِهِ بِغَائِلِينَ ﴾ [١٣٩] [الأعراف] متَّبَرَّ : اسم مفعول أى مُدْمَرٌ مُهْلَكٌ . [القاموس القويم ٩٧/١] .

المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنَّة كونيّة ، مَنْ استحق الغلبة فهي له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنَتُمْ .. ﴾ (٧) [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم في شك أن يُحسنوا ، وكان أحدهم يقول للآخر : دَعَكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكُرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم الغلبة ، ولن تدوم لهم الكُرَّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧) [الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفساد الثانية لهم . وقد سبق أن قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مِثْرَيْنِ .. ﴾ (٤) [الإسراء]

وبيننا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في المدينة .

وفى الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوَةٌ نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغلبة والقوة ، وستعود لنا الكُرَّة على اليهود .

وقوله تعالى : ﴿ لَيَسْزُؤُنَا وَجُوهُكُمْ .. ﴾ (٧) [الإسراء]

أى : نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم ؛ لأن

الوجه هو السَّمة المعبرة عن نوازح النفس الإنسانية ، وعليه تبدو
الانفعالات والمشاعر ، وهو اشرف ما فى المرء ، وإساءته ابلغ أنواع
الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ ۖ ﴾ [الإسراء] أى : أن المسلمين سيدخلون المسجد الاقصى ،
وسينقذونه من أيدي اليهود .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [الإسراء]

المتأمل فى هذه العبارة يجد أن دخول المسلمين للمسجد الاقصى
اول مرة كان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم
يكن الاقصى وقتها فى أيدي اليهود ، بل كان فى أيدي الرومان
المسيحيين .

فدخوله الاول لم يكن إساءة لليهود ، وإنما كان إساءة
للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الاقصى ، وهو فى حوزة
اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم
المسجد الاقصى ، ونُطهره من رجسهم .

ونلاحظ كذلك فى قوله تعالى : ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [الإسراء] أن القرآن لم يقل ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الاقصى تصديق لنُبوءة القرآن ،
وكان الحق سبحانه يريد أن يلفتنا : إن أردتُم أن تدخلوا المسجد
الاقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحووا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ... ﴾ (٧)

[الإسراء]

كلمة الآخرة تدل على أنها المرة التي لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غلبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَتَّبِعُنَّ مَا عَمِلُوا شِئْرًا ﴾ (٧)

[الإسراء]

يتتبعوا : أى : يهلكوا ويدمروا ، ويخربوا ما أقامه اليهود وما بنوه وشيدوه من مظاهر الحضارة التي تشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقل : ما علوتم ، إنما قال ﴿ مَا عَمِلُوا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة من وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه عنهم :

﴿ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أُنْجُوسًا يُبْصِرُونَ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ نَاسٍ ... ﴾ (١١٢)

[آل عمران]

فهم أذلاء أيتما وجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون فى ظلّه ، كما كانوا فى عهد رسول الله ﷺ فى المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهوية لا تذوب فى غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون فى البلاد التي يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم فى كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميل للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَعْنَا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَعْمَارًا ﴾ (١٦٨)

[الأعراف]

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أن أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حد زعمهم ، فنراهم يعملون للبناء والتعمير والتشييد .

وتحن الآن ننتظر وَعْدَ اللَّهِ سبحانه ، ونعيش على أمل أن تتصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لنعود لنا صفة العباد ، ونكون أهلًا لِنُصْرَةِ اللَّهِ تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ۖ ﴾ (٧)

[الإسراء]

فهو وَعْدٌ آتٍ لا شك فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصها في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ^(١) ﴾ (١٠٤)

[الإسراء]

والمعامل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقق وَعْدِ اللَّهِ ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مُرَادَةٌ لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قلنا لبني إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكن فلابد أن يُحدد لك

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى تسير فيهم الشريف والنشره ، والمطيع والمعاصي ، والقوي والضعيف . [لسان العرب - مادة : لفف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أن يظلوا مبشرين في جميع الأنحاء ، مُفَرِّقِينَ فِي كُلِّ الْبِلَادِ ، كما قال عنهم : ﴿ وَرَقَطْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ ۞ (١٦٨) ﴾ [الاعراف]

فتجدهم منمزلين عن الناس منبوزين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ ۞ (١٦٧) ﴾ [الاعراف]

وهكذا تسيطر اليهود خميرة عكنة ونكد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاجَر الإسلام ، فساعة أن يُهَاجَر تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبه في الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس ، فلو لم تُثَرَّ الحيوية الإيمانية لَبُهِتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذي يشقى الناس به يُلْغِي الناس إلى الإيمان ، فلا يروون راحة

(١) سامه الامر : كلفه إياه . وقال الزجاج : أولاه إياه . وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر

والقلم . [لسان العرب - مادة : سوم] .

قال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير في تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمان بالله ، ولو لم يكن الكفر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل فى الكون يعرض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحوا إليهم بفكرة الوطن القومى ، وزيتوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن فى قيام دولة إسرائيل وتجمع اليهود بها نكاية فى الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن تضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿عِبَادًا لَّنَا...﴾ (٥٠) [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفَرَّقُونَ مُبْعَثُونَ فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتية إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شُرْذمة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمع والوطن القومى التى نادى بها بلفور وأيدتها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسَهِّلُ علينا تتبعهم وتُمكننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿لَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَتِيفًا﴾ (٦٤) [الإسراء]

أى : أتينا بكم جميعاً ، نضمُّ بمضكم إلى بعض ، فهذه إذن بُشْرَى لنا معشر المسلمين بأن الكُرَّة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون فى النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : ﴿ قُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَمْرًا^(١) تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٢) ﴿

[الأنعام]

والمراد بقوله هنا : ﴿ وَعَدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧) ﴿ [الإسراء]

هو الوعد الذى قال الله عنه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوِّرُوا^(٢) وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٧) ﴿ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ^(٣) عُدتُمْ^(٤) وَأَوْجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا^(٥) ﴾

و (عَسَى) حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّجَاءِ ، وَكَانَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ سَيُظَلَّلُونَ فِي مَذَلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ ، وَلَنْ تَرْتَفِعَ لَهُمْ رَأْسٌ إِلَّا فِي ظِلِّ حَبِلٍ مِنْ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِنْهُ ، وَحَبِلٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُعَاهِدُونَهُمْ عَلَى النُّصْرَةِ وَالْتَايِيدِ وَالْحِمَايَةِ .

وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. ﴾ (٨) ﴿ [الإسراء]

(١) البأس : الشدة والقوة . ويقول تعالى : ﴿ وَجِئَ الْبَاسُ^(١) ﴾ [البقرة] أى : وقت الحرب الشديدة . [القاموس القويم ٢/١] .
(٢) حصيراً : مُحْبَسًا وَمُحْصَرًا ، وأصل الحصر والإحصار : المئذ . [لسان العرب - مادة : حصر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦) : « حصيراً أى : مستتراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذي ما يزال
يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتي
من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿رَبُّكُمْ.. (٨)﴾ [الإسراء]

لأن الرب هو المتولى للتربية والمتكفل بضمان مقومات الحياة ،
لا يضمن بها حتى وإن كان العبد كافراً ، فالكل أمام عطاء الربوبية
سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

الجميع يتمتع بنعم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو
سبحانه لا يزال ربهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ .. (٨)﴾ [الإسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان في موقف يستحق فيه الرحمة ،
واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون في
حِصْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التي تُعطى لهم فرصة التعايش مع
الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم في مدينة رسول الله ، يوم أن
أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلت هذه المعايشة لدرجة أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن
يقترض لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفي هذا
حكمة يجب أن نعيها ، وهي أن المسلم قد يستحي أن يطالب رسول
الله إذا نسي مثلاً ، أما اليهودى فسوف يُلحّ في طلب حقه وإذا نسي
رسول الله سيذكره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويُغالطونه
مراراً ، وقد حدث أن وفى رسول الله لأحدهم دينه ، لكنه أنكره وأتى

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٣٧١

يطلب به من جديد ، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول :
أبغيتي شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزّم الموقف في
حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمه ، فهبّ خزيمه قائلاً : أنا
يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودي دينه ، فسكت
اليهودي ولم يرد ولم يجادل ، فدل ذلك على كذبه ، ويكاد المريب أن
يقول : خذوني .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمه بعد أن انصرف الدائن
قال : يا خزيمه ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا
أقضى لليهودي دينه ؟ فضحك خزيمه وقال : يا رسول الله أصدّقك
في خبر السماء ، وأكذّبك في عدّة دراهم ؟

فسرّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شَهِدَ لَهُ خَزِيمَةٌ
فَحَسْبُهُ » ^(١) .

ثم يهدّد الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ
عُدْنَا .. ﴾ (٨) . [الإسراء]

إِنْ عُدْتُمْ لِلْفَسَادِ ، عُدْنَا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من
جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على
الذنوب في الدنيا يُبرّتهم من عذاب الآخرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانی في المعجم الكبير (١٠١/٤)
من حديث خزيمه بن ثابت : قال الهيثمي في المجمع (٢٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

فالعقوبة على الذنب التي تُبْرَىء المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حُضْنِ الإسلام ، وإلا لَأَسْتَوَى مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ مَعَ مَنْ لَمْ يُقَمْ عَلَيْهِ الْحَدَّ .

فلو سرق إنسان وَقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقَطَّع يده ، فلو اسْتَوَوْا في عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر في العقوبة ، وكيف يستوى الذي قُطِعَتْ يده ، وعاش بِذَلَّتْهَا طوال عمره مع مَنْ أَفَلَّتْ من العقوبة ؟

هذا إن كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذي بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجود له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعْفَى صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨ ﴾ [الأنعام]

﴿ جَعَلْنَا ﴾ فعل يفيد التحويل ، كان تقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صَيَّرْتَهُ وَحَوَّلْتَهُ . فماذا كانت جهنم أولاً فَيُحوَّلُها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ في هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هي بمعنى خَلَقْنَا ، أى : خَلَقْنَاهَا هَكَذَا ، كما نقول : سبحانه الذي جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّلَهُ الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : ﴿ حَصِيرًا .. ٨ ﴾ [الأنعام]

الخصير فراش معروف يُصْنَعُ مِنَ الْقَشِّ أو من نبات يُسَمَّى

السُّمُرُ ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّيَ حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصَرُ ، وهو التضييق في المكان للمكين ، وفي صناعة الحَصِيرِ يَضْعُبُونَ الأعواد بعضها إلى بعض إلى أن تتماسك ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحَصِيرَ ؟ نفرش الحَصِيرَ : لأنه يحبس عنا القَذَرُ والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا ، إذن : الحَصْرُ معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) في القرآن الكريم يجدها بهذه المعاني ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ^(١) الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذَرُوهُمْ وَأَحْصَرُوهُمْ .. (٥) ﴾ [التوبة] أي : ضيقوا عليهم .

وقال تعالى في فريضة الحج : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَمَرَّ مِنَ الْهَدْيِ .. (١٦٦) ﴾ [البقرة] أي : حبستم ومنعتم من أداء الفريضة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) ﴾ [الإسراء]

أي : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهي لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا^(٢) .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

(١) انسلخ الشهر : انقضى وانتهى . [القاموس القويم ٢٢٢/١] .

(٢) قال ابن الأعرابي : سرادقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبي : علق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالخظيرة ، وخرج ابن المبارك عن حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « لسرادق النار أربع جدر ، كُتِفَ كل جدار مسيرة أربعين سنة » قال القرطبي في تفسيره (٤/١١٢٤) : « وهذا يدل على أن السرادق ما يعطو الكفار من دخان أو نار ، وجدره ما وُصف » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإن حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴾ (٢٠) [السجدة]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (٨) [الإسراء]

[إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا في الدنيا يحتشون في أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون في حضانة أهل الباطل ، أما في الآخرة فلن يجدوا ناصرًا أو مدافعًا .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ (٢٦) [المافات]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجعله آية أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرق له الناموس فيما لا يعلمه القوم كان أدعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هي التي أعطته هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح - عليه السلام - عبداً شكوراً ، فهناك فرق بين عبودية الخلق للخالق ، وعبودية الخلق للخلق ؛ لأن العبودية للخلق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خير سيده .

ثم تحدث الحق سبحانه عن بني إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد في الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكل له عمله دون ظلم أو جور .

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المتهج الإلهي المتزل من

السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مُخلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾

فمَنْ كان يريد الأسوة الطيبة في عبودية الرسول لربه ، هذه العبودية التي جعلته يسرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصعد به إلى السماء ، وَمَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح في عبوديته لربه فأكرم ذريته من أجله ، فعليه أن يسير على دربهم ، وأن يقتدى بهم في عبوديتهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهود الذين أفسدوا في الأرض مرتين .

والذي يرسم لنا الطريق ويوضح لنا الحق من الباطل هو القرآن الكريم : ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ .. ۝﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ .. ۝﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا

القرآن ؟

نقول : لم يكن القرآن كله قد نزل ، ولكن كل آية في القرآن تُسمى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن ، ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملت كل المسائل التي تضمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُسْتَشْرِفٌ أَنْ يَسْتَزِيدَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ يَأْتِيَ
بِجَدِيدٍ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِنْهَجَ اللَّهِ مُنْزَهُ عَنِ النِّقْصِ ، وَفِي غِنًى عَنِ زِيَادَتِكَ ،
وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبْحَثَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَسَوْفَ تَجِدَ فِيهِ مَا تُصِيبُ إِلَيْهِ
مِنَ الْخَيْرِ .

قوله : ﴿ يَهْدِي .. ٩ ﴾ [الإسراء]

الهداية هي الطريق الموصِّل للغاية من اقرب وَجْهٍ ، وبأقل تكلفة .
وهو الطريق المستقيم الذي لا التواء فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه
يهدي الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال
سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْرَاهُمْ ۖ ﴾ [١٧] [محمد]

ومعنى : ﴿ أَقُومُ .. ٩ ﴾ [الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمى أَفْعَلَ التفضيل ،
إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قِيم) كان نقول :
عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْبَیِّ هِیَ أَقُومُ .. ٩ ﴾

[الإسراء]

يدل على وجود (القیم) فى تُظَمِ الناس وقوانينهم الوضعية ،
فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أَنْ يكون لهم قوانين وشرائع حينما
تعصُّهم المظالم ويشقُّون بها ، فَيُقَنِّنُونَ تقنينات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه
وإن كان قِيماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أن

تُحْضَرُ بِشَيْءٍ مُعْجَاجٍ غَيْرِ قِيَمٍ ، وَإِلَّا فَمَاذَا يُلْفَتُكَ لِلْقِيَمِ ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ،
فهناك فَرْقٌ بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب
القوانين الوضعية يُعَدِّلُونَ تُظْمِئُهُمْ لِعِلَاجِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي يَشْقُونَ بِهَا .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدَثَتْ غَفْلَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَصَابَتْهُمْ بَعْضُ الدَّاءَاتِ نَتِيجَةُ انْصِرَافِهِمْ عَنِ مَنِهْجِ رَبِّهِمْ نَقُولُ لَهُمْ :
عُودُوا إِلَى الْمَنِهْجِ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ ۝ (٤٦) ﴾
[الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا في
مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدَ المستشرقين عن قول
الحق تبارك وتعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٢٢) ﴾
[التوبة]

وهي آية أخرى يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٢٢) ﴾
[التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۝ (٢٢) ﴾
[التوبة]

في حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملت الآية لوجدت فيها الردَّ على سؤالك ، فالحق
سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٢٢) ﴾
[التوبة]

ويقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٢٢) ﴾
[التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتِّبَاع ، ولم يقل القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجَّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلُّى عن قوانينهم والخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضالَّتَهم .

فنظام الطلاق في الإسلام الذي كثيراً ما هاجموا وانتقدوه ، وراوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل في قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأن يُقننوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُجاً في الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد في الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون في حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا في الإسلام ، لمعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كَفَر » وهو زعيم اقتصادي عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدي وظيفته كاملة في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لجَج هؤلاء في خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعني أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعمدون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما في التعامل الربوي من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مرَّ الزمن أن تُسدِّد حتى ألساط

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فالمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التي ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَصَّتْهُمْ قَتَّلُوا لها .

ظهور دين الله هنا يعنى ظهور نظم وقوانين ستضطرم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهدى ، وفي القرآن الكريم ما يوضح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا في قصة مولاه « زيد بن حارثة »^(١) ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - التي وهبته بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد في خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده في مكة فاتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خيره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء في خدمة رسول

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي : صحابي ، اختلف في الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها ، فتبناه واعتقه وزوجه بنت عمته ، جعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفي ٨ هـ .

الله وأثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على من أختارني شيئاً » ^(١) .

وفي هذه القصة دليل على أن الرق كان مباحاً في هذا العصر ، وكان الرق حضائفةً حنانٍ ورحمةً ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يكفه ما لا يطيق ، وإن كلفه أعانه ، فكانت يده بيده ^(٢) .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك أثره على أهله ، وأحب البقاء في خدمته ، فرأى رسول الله أن يكافئ زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فسُيَال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد » ^(٣) .

وكان التبني شائعاً في ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أن يُحرّم التبني ، وأن يُحرّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

(١) أورده ابن حجر العسقلاني في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) في ترجمة « زيد بن حارثة الكلبي » .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم في صحيحه (١٦٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، لا تعلموهم مسا تاكلون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تكفروهم ما يغلبهم ، لأن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه » أورده ابن حجر في الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوج زيداً ابنة عمة زينب بنت جهمش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَوْلُ الَّذِي أُنْتِمِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمَتْ عَلَيْهِ أَنْبَاكَ عَلَيْكَ وَرَجُلِكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتَحْبِلْ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب] .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

○ ٨٢٨١ ○

الله ﷻ ، فقال : ﴿ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ .. ﴾ (٥)

[الأحزاب]

والشاهد هنا : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾ (٥)

[الأحزاب]

فكان الحكم الذي أنهى التبنى ، وأعاد زيدا إلى زيد بن حارثة هو
الاقسط والاعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جوراً ، بل كان
قسطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشري يفضل ما كان من عند الحق سبحانه
وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسيبه الأصلي ، وأصبح الناس يقولون « زيد
ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِمَ من شرف الانتساب
لرسول الله ﷺ فعرضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يتَّله صحابي
غيره ، هذا الرسام هو أن ذكر اسمه في القرآن الكريم ، وجعل الناس
يتلونه ، ويتعبدون به في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴾ (٣٧)

[الأحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي إِلَيَّ مِىَ أَقْوَمَ .. ﴾ (٦)

[الإسراء]

لأن المستقيم للمتبع القرآنى يجده يُقَدِّمُ لنا الأقوم والاعدل
والأوسط في كل شيء . في العقائد ، وفي الأحكام ، وفي القصص .

ففي العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليُجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ
ينكر وجود إله في الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدد الآلهة ، فجاء
الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم في هذه المسألة ، جاء
ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو اقوم وأوسط ، فلحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فله يدٌ وسمع وبصر ؛ لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى] وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأولوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونعرض عن تدبرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يُنرى حياتنا ، ويؤسّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مقومات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمن أراد الكماليات فعليه أن يعمل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، امتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسهّلت عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثقل وجده

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحت شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكّنته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوة مُحركة عندما شاهد القدر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالم الذي اكتشف دواء « البينسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكى عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفةً ، لاحظ أن عينه قد برئت ، فبحث في هذه المسألة حتى توصل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخلق ، ويمرون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أعد له كل متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إنّ أعمال عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ ۝ (٦١) ﴾ [هود]

والاستعمار أن تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إن كان هذا يبني

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظَّم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاوض ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. (١٧)﴾ [الشورى]

وإن كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيِّبَ عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسس وتتبع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغيبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثري حياة الناس في الكون ، وهبَّ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعت هذه السيئة الواحدة فربما أزهدتك في كل حسناته ، وحرمتك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تخاضعت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهبَّ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجَّته ليؤدي لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صنعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره . وإن كان أقل منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبع غيبك والبحث عن أسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبیده نعمة أعظم من حفظ الغيب عنده هو ؛ لأنه رب ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غيب أخيه أو غيب من عيوبه أذاعه وفضح به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلعة^(١) في استتباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلعة في تتبع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إن تتبعت غيب الناس والتمست عيوبهم حرمت نفسك من مصادر يمكن أن تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البقاء ، التنافس الذي يثرى الحياة ، ولا يشير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢٦) [المطففين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجتهد ليكون مثله أو أفضل منه ، وكان الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغل والحقد والكراهية ، بل تنافس من يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس من لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشيء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هوائها تشتهيها حتى تهلك صلاحها . [لسان العرب - مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يفضب وتثار حفيظته إن كان له عدو ، ويراه مصدر شر وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار..

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ، لأن صديقك قد يُنافسك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كجوبة ليذيعها ويسمع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

عِدَائِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى وَمِيَّةٌ فَلَا أَبْعَدُ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعْدَاءِ
هُمْوُ بِحُؤَا عَنِّي رَلْتِي فَأَجْتَنَّبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَأَكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة ، حتى في الأعداء ، ونجد في هذا التنافس المثمر الذي يثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بدُّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمي الضعيف من بطش القوي ، فجاء منهج الله تعالى ليقتن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حَذَّرَ القوي أَنْ تُطْفِئَ قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ،
وذكره أَنْ قوته ليست ذاتية فيه ، بل هي عَرَضٌ سوف يزول ،
وسوف تتبدل قوته في يوم ما إلى ضَعْفٍ يحتاج معه إلى العون
والمساعدة والحماية .

وكان الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمي الضعيف من قوتك
الآن ، لأحمي ضعفك من قوة غيرك غداً ..

أليس في هذا كله ما هو أقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله في مجال
الإنفاق ، وتصرف المرء في ماله ، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم
يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذير فيه ولا تقتير^(١) .

ولا شك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثري حياته ، وأن يرتقى
بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إن كان مُبَدِّراً لا يُبقي من
دخله على شيء ، بل لا بُدَّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجد في
جعبته ما يمكنه أن يُثري حياته ويرتقى بها ويُوَفِّرَ لأسرته كماليات
الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا
أُنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الأنعام]

(١) قتر على ماله : خفي عليهم في النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان في الرزق .
[لسان العرب - مادة : قتر] .

فلإنسان في حياته طموحات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة في عصر
كثرت فيه المغريات ، فإن وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ،
فعلية إذن ألا يُبدّد كل طاقته ، ويتفق جميع دُخله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخل والإمساك ؛
لأن البخل مذموم ، والبخل مكره من أهله وأولاده ، كما أن البُخل
سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع ،
فالممسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء ، فيسهم
ببُخله في تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يشقى به
مجتمعه .

إذن : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير في أوسط
الأمر ، وهذا هو الاقوم الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي .

وكذلك في مجال المأكّل والمشروب ، يرسم لنا الطريق المعتدل
الذي يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام
والتُخمة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢١)

[الأعراف]

فقد علمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قدر طاقة
الوقود الذي يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكى أصحاب الإسراف
في المأكّل والمشروب .

والمتأمل في حال هؤلاء الذين ياكلون كلّ ما لذّ وطاب ،
ولا يحرمون أنفسهم مما تشتهي ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء
عند كثيرهم وتقدم السنّ بهم يحرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

الملذّات ، فتدري في بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، في حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :
لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها في بداية الأمر ، فلا بُدَّ أن تُحرّمَ منها الآن .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « كَلُّوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة »^(١)

وأيضاً من أسباب السلامة التي رسمها لنا المنهج القرآني ، ألا يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرمق المعدة ، ويجرّ على صاحبه العطش والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيع كل شيء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذي يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلم تدبرْ هذا المنهج لموجدته في أي جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

في العقائد ، في العبادات ، في الأخلاق الاجتماعية العامة ، في العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣٨) [الأنعام]

هذا المنهج الإلهي هو أقوم المنامج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق ، ويعلم ما يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢ ، ١٨٢) ، وابن ماجه في سننه (٢٦٠٥) والنسائي في سننه (٧٩/٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صنّعه ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملت الآلة حسب قانون صانعها أدت مهمتها بدقة ، وسكمت من الاعطال ، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانتة ، فيقول له : **افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤)** [الملك]

فأفة الناس في الدنيا أنهم وهم صنّعة الحق سبحانه يتركسون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهي قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل . ثم يقول تعالى : **﴿وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩)** [الإسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهي يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، ويتعم بالآمن الإيمانى ، وهذه نعمة في الدنيا ، وإن كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبَشِّرُنَا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمى الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لآنك سررت فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الآمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : **﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)** [البقرة]

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

○ ٨٣٩١ ○

وقوله تعالى في آية أخرى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) [طه]

ويقول تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) [النحل]

وفي الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (١) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) [طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيري الدنيا والآخرة ، ففي المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلماً منه ، فهو سبحانه مُنْزَهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ ، بَلْ عَدْلٌ وَبِطْرٌ ، بما تَسُوْا آيَاتِ اللَّهِ وَانصَرَفُوا عَنْهَا .

ومعنى : ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ (٩) [الإسراء]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تبقى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يفسده .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) [الإسراء]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يأت

(١) الضنك : الضيق من كل شيء . والمعيشة الضنك : الضيقة خير المستسعة . [القاموس

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فَوَصَّفَ الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم . كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) . وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وَصَفَ له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرَضَ الله علينا أكبر من أى عمل دنيوى ، وهذا يعنى أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو معين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبَس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تُخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرَضَ الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوى في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩١ ﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٢ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿ ٨٢٩٢ ﴾

كما أن البائع يحب دائماً البيع ، ويحرص عليه ، بخلاف المشتري الذي ربما يشتري وهو كاره ، فتجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشتَر اليوم سيشتري غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع ، فنترك غيره من الأعمال أولى .

فإذا ما قُضِيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض ، فأخرجنا للقاءه سبحانه في بيته من عمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحياة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذي سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتقبل على عملك بهمة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾

ومذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٩ ﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۝١٠ ﴾ [الإسراء]

إذن : فالآية داخلية في البشارة السابقة ، ولكن كيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبَشِّرُ المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخير يأتي في المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٤) [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهمًا : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ (١) الْكَرِيمُ

﴿ (١١) ﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك
الفشل ، أو تقول : بشر فلانًا بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما
بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسره وتُسعده ، وتجعله
يستشرف ما ينتظره من نعم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسره المؤمن ؛ لأنه لم يقع فى مصيدة
الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان
إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (١٧) ﴿ بَأْىِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٨) ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
فَلْيَتَقَيَانِ ﴾ (١٩) ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (٢٠) ﴿ بَأْىِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢١) ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا
الْأُنثَىٰ وَالْمَرَجَانُ ﴾ (٢٢) ﴿ بَأْىِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٣) ﴿ لَهُ الْجَوَارِ الْمُشَاطَاتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٢٤) ﴿ بَأْىِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢٥) [الرحمن]

فهذه كلها نعم من نعم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيل بقوله

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١١) [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعدّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب - مادة :

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدَ^(١) مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٩) ﴾

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٩) ﴾ [الرحمن]

فأَيُّ نعمة في أن يُرسل الله عليهما شواط من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل في هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نعم الله ، ألا وهي زَجْرُ العاصي عن المعصية ، ومَسْرَةُ للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون : إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر ، فالأمر : طلبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكل طلب من الله لخلقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إن كان الطلب من مُساوٍ لك فهو التماس أو رجاء ، فإن كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلب العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق في الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظِّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لي ، فيقول : اغفر ، قُلْ دَالٌ عَلَى الدعاء ، لأنه لا يجوز في حق المولى تبارك وتعالى أن نقول : فعل أمر ، فإنه لا يأمره أحد .

(١) الشواط : القطعة من الذهب ليس فيها بخان . [القاموس المفيد ١/ ٢٦١] .

فَأُولَ مَا يُفْهَمُ مِنَ الدَّعَاءِ أَنَّهُ دَعَا عَلَى صِفَةِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ فِي الْعَبْدِ ، وَأَنَّهُ قَدْ انْدَكَّتْ فِيهِ ثَوْرَةُ الْغُرُورِ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا اللَّهُ فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالْدَّعَاءِ .

(بِالشُّرِّ) بِالْمَكْرُوهِ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ ، أَوْ عَلَى وَلَدِهِ ، أَوْ عَلَى مَالِهِ بِالشُّرِّ إِلَّا فِي حَالَةِ الْحَقِّ وَالْغَضَبِ وَضَيْقِ الْأَخْلَاقِ ، الَّذِي يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ عَنْ طَبِيعَتِهِ ، وَيُفْقِدُهُ التَّمْيِيزَ ، فَيَتَسَرَّعُ فِي الدَّعَاءِ بِالشُّرِّ ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يُنْقِذَ اللَّهُ لَهُ مَا دَعَا بِهِ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ أَلَّا يَسْتَجِيبَ لَهُمْ هَذَا الدَّعَاءَ الَّذِي إِنْ دُلَّ عَلَيْهِمَا يَدُلُّ عَلَى حَقِّ وَغِيَابِ فِي الْعَبْدِ .

وَكثِيرًا مَا نَسْمَعُ أَمَا تَدْعُو عَلَى وَلَدِهَا بَعَا لَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ لَكَانَتْ قَاصِمَةً الظَّهْرَ لَهَا ، أَوْ نَسْمَعُ أَبَا يَدْعُو عَلَى وَلَدِهِ أَوْ عَلَى مَالِهِ ، إِذَنْ : فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا أَنْ يَفُوتَ لَنَا هَذَا الْحَقُّ ، وَلَا يُنْفِذَ لَنَا مَا تَعَجَّلْنَاهُ مِنْ دُعَاءٍ بِالشُّرِّ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ (١١) [يونس]

أَي : لَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ فِي دَعَائِهِمْ بِالشُّرِّ لَكَانَتْ نَهَايَتُهُمْ .

وَلِنْ كُنْتَ تُسَرِّ وتَسْعِدُ بَأَنْ رَبِّكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فُوتَ لَكَ دَعْوَةٌ بِالشُّرِّ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهَا ، وَأَنْ لَعَدَمَ اسْتِجَابَتِهِ سُبْحَانَهُ حِكْمَةٌ بِالْفَعْلِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ أَيْضًا حِينَمَا لَا يَسْتَجِيبُ لَكَ فِي دَعْوَةِ الْخَيْرِ ، فَلَا تَقُلْ : دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي أَنْ يَمْنَعَكَ

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيس الأمرين بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فله حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، فقالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾ (٢٢) [الأنفال]

وقالوا : ﴿أَوْ تُنْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١)...﴾ (٢٣) [الإسراء]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقُضِيَ عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن الله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحَقَقِ ، وما هم الكفار بأقرب حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا إِلَيْهِ ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرع ، كما قال تعالى : ﴿غُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧) [الأنبياء]

(١) الكسفة : القطعة . وكسَفَ السحاب وكسفه : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفي المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وجه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أن تُجاب إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاةُ بِالْخَيْرِ ۖ ﴾ (١١)

[الإسراء]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَضْلُنَّ تَفْصِيلًا ۚ ﴾ (١٢)

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تقاوى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

(١) محرراً : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقفاة : يريد بالمعنى اللطيفة السوداء التى فى القمر . ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبي ٢٩٥٦/٥] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصب لجنسه تعصباً أعمى خالياً من فهم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ^(١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ^(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ^(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ^(٤) ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضدّاً للنهار ، ولا النهار ضدّاً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضدّاً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضدّاً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ .. ^(٥) ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعاشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أن نغرقهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مغيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحيثما يتحدث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ^(١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ^(٢) ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ^(١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ^(٢) ﴾ [الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

وَالنُّورَ ^(١) ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن في ظلمته ، والحكمة من النهار تكمن في نوره ، فالظلمة سكَنٌ واستقرار وراحة ، وفي الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم » ^(١) .

في حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة - التي تراها الآن - مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهي ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعي ، فعن ارتاح في الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ ۞ ﴾ (٧٢) [النقص]

لماذا ؟ ﴿ لِنَسْكُنُوا فِيهِ ۚ ۞ ﴾ (٧٢) [النقص] أى : في الليل .

﴿ وَلِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ۞ ﴾ (٧٣) [النقص] أى : في النهار .

إن : الليل مهمة ، والنهار مهمة ، وإياك أن تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

(١) أخرج البخارى في صحيحه (٢٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إذا استجنت الليل - أو كان جنت الليل - فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأطلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأرك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولز ثمرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لتخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴾ (٢٣) [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحَةً وَرُخْصَةً ، ولكن في أضيق نطاق ، فمن لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لطفه تعالى ورحمته بخلقه .

هذا الردع إما ردع ذاتي اختياري ، وإما ردع قهري ، الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإن زادت الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رثته لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السلم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فارق التنفس العادي .

فكان الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حدَّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردُّع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القسرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكان الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تعد صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلم الإنسان لاختياره ، بل يُلقي عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منا إذا ما تعرَّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا يدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أن ينام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ ليأخذ الجسم حَقَّه من الراحة التى حُرِم منها .

وقوله تعالى : ﴿ آيَاتِنَا .. ﴾ (١٧) [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشئ العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويُظهر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلق على ثلاثة أشياء :

- تُطلق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٢٧) [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) [الشورى]

وهذه الآيات تلفتتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٤٠٣

- وتُطلق الآيات على المعجزات التي تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدقهم ، فكل رسول يُبعث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخلق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صدقه وأماره على أنه رسول .

وهذه هي المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهرها ؛ لتكون أوضح في إعجازهم وأدعى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۝٥٩ ﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، في كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففي الأولى : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفي الثانية : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشيء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفي الثالثة : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۝١٢١ ﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أن تفسر الآيات الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ۝١٢٢ ﴾ [الإسراء]

أى : بعد أن كان الضوء غابت الشمس فَحُلَّ الظلام ، أو مَحَوْنَاهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحانه مَنْ بَيَّضَ اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْضِرَةً ۝١٢٣ ﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : ترى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغي أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبَصَّرًا فيها ، وليسيت هى مبصرة .

وهذه كما فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ قَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۖ ﴾ (١٣) [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيرت الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكأنوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى ثَوَّرَ الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لامتك أن ترى الأشياء فى الظلمة إذا كنت فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشيء المرئى ؛ ولذلك ترى الأشياء إن كانت فى الضوء ، ولا تراها إن كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشيء المرئى هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويسامدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شيء يلفت النظر أى : يرسل إليك ما يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ ﴾ (١٧) [الأنعام] على مستوى عال من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ﴾ (٥٣)

وقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَغْفِرُوا فُضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾ (٧٦) [الإسراء]

وهذه هي العلة الاولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٧٣) [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ ..﴾ (٧٣) [القصص] أى : فى الليل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٧٢) [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما - إذن - متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحَلًّا للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمر مَادِيّ وتفاعل مَادِيّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آله .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء ؛ لأن الظلمة تغطى الأشياء وتعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أثبت به الفاعل والمتفاعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتطمسه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبين الإنسان المادة التي يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ﴾ (١٦) [الأنعام]

لأن النور محل للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا في ظلمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴾ (١٧) [الإسراء]
وهذه هي العلة الأخرى لليل والنهار ، حيث يمرورهما يتم حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشيء إن لم تكن له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴾ (١٧) [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا في الحياة ، فمن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح ، وفي العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملت عظمة الخالق سبحانه لوجدت القمر في الليل ، والشمس في النهار ، ولكل منهما مهمة في حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذي أثبت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهي بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسها ، فهو في أول الشهر هلال ، ثم يكبر/قيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ في التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواعيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ^(١) لِيَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾ [يونس]

فقوله : ﴿ قَدَرَهُ .. (٥) ﴾ [يونس] أى : القمر ؟ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدق نظام حسابي يعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿ مَنَازِلَ .. (٥) ﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (٦) وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) ﴾ [البروج]

ولأن حياة الخلق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كونه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها متضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير متضبطة (تُقَدِّمُ أَوْ تُؤَخِّرُ) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كونه :

(١) أى : قدرنا له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدرًا ، ومرة كالمرجون القديم فى إشرافه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق لا يختل ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بيننا وبين شيئين ، وتقول : فصلت شيئا عن شيء ، فالحق سبحانه فصل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة .

ومثال ذلك في الوضوء مثلا يقول سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ..﴾ [الباقية]

فاطلق غَسَلَ الوجه : لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدد الأيدي إلى المرافق ، لأن الأيدي يختلف في تصديدها ، فالييد قد تكون إلى الرُئْس ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريد لها على شكل مخصوص .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ..﴾ [٦] [الباقية]

فالرأس يناسبها المسح لا الغسل ، والرجلان كاليد لا بد أن تُحدّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا^(١) طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ..﴾ [١٣] [النساء]

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعي : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب يديه وجه الأرض . ولا يبيح أن كان في الموضع تراب أو لم يكن . لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض . ترابا كان أو غيره . [لسان العرب - مادة : صعد] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٤-٩

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظن البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن تُنظف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، ولا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذي جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يصُفّر وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِلَ عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فلقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأن يستعد للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ۝١٣﴾

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أن يُبْضِىَ عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنَّ مرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح »^(١) ويتقاءلون

(١) قال الحسن : أى شقاوته وسعاده ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبي ٥/٢٩٥٧] .

(٢) السانح : ما أتاك من يمينك من طير أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . [لسان العرب - مادة : سنح] .

به ، وَإِنْ مَرَّ مِنَ اليمِينِ إِلَى الْيسَارِ يَسْمُوهُ « الْبَارِح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر ويتسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .
إذن : كانوا يتفاهلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبي ﷺ يحب الغال الحسن^(١) ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأن الغال الطيب يُنشِط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل في الكون .

والحق سبحانه هذا يوضح : لا تقولوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائر كأي : عملك في عنقك يلازمك ولا ينفك عنك أبداً ، ولا يُسال عنه غيره ، كما أنه لا يُسال عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾ (١٥)

فلا تلقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذي لا ذنب له .
وقوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣)

وهو كتاب أعماله الذي سجلته عليه الحفظة الكاتبون ، والذي قال الله عنه : ﴿ وَيَقُولُونَ بَسْوَئَلَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩)

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً ، أي : مفتوحاً مُعَدّاً للقراءة .

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الغال الصالح ، والغال الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصَوِّرُ لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدي ربه عز وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه^(١) ، ويُقر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجال فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجال فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِعِجْلُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ٢٦ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه في خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده يُنفق ويقتل عثرة المحتاج ، ويرجله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه في كل هذا مُسَخَّرَةٌ طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففعلها لك ليس دليلاً على

(١) قال بعض الصالحين : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضائك قرطاسه ، أنت كنت المملى على حقايقك ، ما زيد فيه ولا نقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبي ٢٩٥٨/٥] .

الرضى عنك ! لانه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فامرہ نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطأ ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارمة وهي لاعة له ، وهي مُبغضة له والفعله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلت من إرادته ، وخرجت من سجن سيطرته ، شهدت عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾ [الإسراء]

أى : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَلَا نَزَرَ ۚ وَازْرُرْ ۖ وَزُرْ ۖ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ
حَقَّ نَبَعَتْ رَسُولًا ١٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنى عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، وقبل أن يخلقه أعد له مقومات الحياة

كلها من أرض وسما ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخلق ، إذن :
فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضره
سبحانه في شيء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم ، لكي
تستمر حركة حياتهم ، وتتسائد ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق
سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ،
من الخالق الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ،
فلو كان منهجٌ بشرٍ لبشر لكان لك أن تتأبى عليه ، أما منهج الله فلا
ينبغي الخروج عليه .

لذلك تسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع
الذي يقطع الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر
بذلك ، فلا اعتراض عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا
ولم تقعد .

ومن كماله سبحانه وغناؤه عن الخلق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم
من أحكام أو تجنُّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ،
ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كُلفت
واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى
فيها ولم يوفق تجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمل الخالق سبحانه عن عباده ، ويعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فكل شيء ميلاد ، ولا داعي لأن نسبق الأحداث ، ولنتنظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يعلمنا الإسلام قبل أن نعد بعمل شيء لا بد أن نسبقه بقولنا : إن شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - في حماية المشيئة الإلهية إن وفقت فيها ونعمت ، وإن عجزت فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكان الحق سبحانه يقول لك : تمهل فكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيت حاجتك فاعلم أن الذي كلفته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادق سعيه ميلاد قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا خير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفاؤها .

وصدق الشاعر حين قال :

والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة الأقدار

فَقَوْلُ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ (١٥) [الإسراء] أَيْ : لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ .

وَالِاهْتِدَاءُ : يَعْنِي الْاِلْتِزَامَ بِمَنْهَجِ اللَّهِ ، وَالتَّزَامَكَ عَائِدٌ عَلَيْكَ ، وَكَذَلِكَ التَّزَامُ النَّاسَ بِمَنْهَجِ اللَّهِ عَائِدٌ عَلَيْكَ أَيْضًا ، وَأَنْتَ الْمُنْتَفِعُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ بِهَذَا الْمَنْهَجِ ؛ لِذَلِكَ حِينَمَا تَرَى شَخْصًا مُسْتَقِيمًا عَلَيْكَ أَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ ، وَأَنْ تَفْرَحَ بِاسْتِقَامَتِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَهْزَأَ بِهِ أَوْ تَسْخَرَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ اسْتِقَامَتَهُ سَتَعُودُ بِالْخَيْرِ عَلَيْكَ فِي حَرَكَةِ حَيَاتِكَ .

وَفِي الْمَقَابِلِ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٥) [الإسراء]

أَيْ : تَعُودُ عَلَيْهِ عَاقِبَةُ انْصِرَافِهِ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ فِي عَدَمِ التَّزَامِهِ بِمَنْهَجِ اللَّهِ يَعُودُ عَلَيْكَ وَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ ، فَيَشْقَى هُوَ بِشَرِّهِ ، وَيَشْقَى بِهِ الْمَجْتَمَعُ .

وَمَنْ الْعَجَبُ أَنْ تَرَى بَعْضَ الْحَمَقَى إِذَا رَأَى مُنْصَرِفًا أَوْ سَاءَ السُّلُوكِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً بُغْضٍ وَكَرَاهِيَةٍ ، وَيَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ بِهَذَا الْعَمَلِ يَزِيدُ الطَّيْنَ بَلَةً ، وَيُوسِّعُ الْخُرْقَ عَلَى الرَّاقِعِ كَمَا يَقُولُونَ .

فَهَذَا الْمُنْخَرَفُ فِي حَاجَةٍ لِمَنْ يَدْعُو اللَّهَ لَهُ بِالْهَدَايَةِ ، حَتَّى تَسْتَرِيحَ أَوَّلًا مِنْ شَرِّهِ ، ثُمَّ لِنَتَمَتَّعَ بِخَيْرِ هَدَايَتِهِ ثَانِيًا . أَمَّا الدُّعَاءُ عَلَيْهِ فَسَوْفَ يَزِيدُ مِنْ شَرِّهِ ، وَيَزِيدُ مِنْ شَقَاءِ الْمَجْتَمَعِ بِهِ .

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ عَلَّمَنَا الْإِسْلَامُ أَنَّ مَنْ كَانَتْ لَدَيْهِ قَضِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ تَعُودُ بِالْخَيْرِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُعَدِّيَهَا إِلَى النَّاسِ ؛ لِأَنَّكَ حِينَمَا تُعَدِّي الْخَيْرَ

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خِلاك الحميدة ،
فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خِلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .
لذلك حرّم الإسلام كَتْمُ العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص
نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة »^(١) .
وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهي أن يُتَقَنَ كل
صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صنعة صنّعتَه ، فالإنسان في
حركة حياته يُتَقَنُ عملاً واحداً ، لكن حاجاته في الحياة كثيرة
ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيّط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ،
وهو يحتاج في حياته إلى مِهَنَ وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب
والمعلم والمهندس والحداد والتجار والفلاح .. الخ .

قلو أنقن عمله وأخلص فيه لَسَخَّرَ الله له مَنْ يتقن له حاجته ،
ولو رَغْمًا عه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس في كمال ، فإنْ أنقنتَ عملك
فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ،
فسوف يُيسِّرُ الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون
ولا يشعرون .

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ - موارد الظلم) . والحاكم في مستدركه (١٠٢/١) وقال : هذا
إستناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشَّيْخَيْنِ وليس له علة . وأقره الذهبي .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٤١٧

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ ، ولا يُؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره ،
وكلمة : ﴿ تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

من الوزر : وهو الحمل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى
يحمل الاعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فَعَدَلَ اللهُ يَقْتَضِي أَنْ يَحَاسِبَ الْإِنْسَانَ بِعَمَلِهِ ، وَأَنْ يُسْأَلَ عَنْ
نَفْسِهِ ، فَلَا يَرْمَى أَحَدٌ ذَنْبَهُ عَلَى أَحَدٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴾ (٣٢) [لقمان]

وحول هذه القضية تحدث كثير من المستشرقين الذين يبحثون
فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى .. ﴾ (١٥) [الإسراء]

وقالوا : كيف تُوفَّقُ بينها وبين قوله : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ
أَثْقَالِهِمْ .. ﴾ (١٢) [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ (٢٥) [التحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هين لو
فهموا الفرق بين الوزر فى الآية الأولى ، والوزر فى الآيتين
الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتى خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى
نفسه ، فيجب أن يتحمل وزر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمل وزره الخاص به ، وتحمل وزر من أضلهم .

ويُوضَّح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أن تُعاقبني عليها لا يد أن تعلمني أن هذه مخالفة أو جريمة (وهي العمل الذي يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمة إلا بنص ينص عليها ويُقننها ، ويحدد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها في الجرائد الرسمية لكي يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إن خالفوا أو تعرضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى في القانون الوضعي نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان في أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المضالفين ، أما أن نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترض عليك من منطلق هذه الآية .

أما أن يُجرَّم هذا العمل ، ويُعلن عنه في الصحف الرسمية ، فلا

(١) أخرجه مسلم في مسنده (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

حجة لمن جهله بعد ذلك ؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يعنى من العقوبة .

فكان قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الاسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدد لهم ما جرّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢١) [فاطر]

ويقول : ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ^(١) مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. ﴾ (١٩) [المائدة]

إن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على من آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركب فيه خالقه سبحانه من ميزان إيماني هو الفطرة ، هذه الفطرة هي المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإن لم يأت رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أَنْتَ قَدْ انْقَطَعَتْ بِكَ السُّبُلُ فِي صَحْرَاءٍ وَاسِعَةٍ شَاسِعَةٍ لَا تَجِدُ

(١) الفترة : هي المدة من الزمن التي تفصل بين تبين . [القاموس القويم ٧١/٢] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فتمتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

يا الله ألا تفكر في أمرها قبل أن تمتد يدك إليها ؟ ألا تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عمَّن أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بدُّ أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً مُبدعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليد المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقومات والإمكانات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك ، خذ مثلاً الشمس التي تثير الكون على بُعدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلفت يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن مواعدها ، ألا تسترعى هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أن ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافة ؟

والعربي القحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْرَ البعير وآثار الأقدام استدلُّ بالآثر على صاحبه ، فقال في بساطة العربي : البعرة تدلُّ على البعير ، والقدم تدلُّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

سُورَةُ الْأَنْزِيلِ

٨٤٢١

إذن : بالفطرة التكوينية التي جعلها الله في الإنسان يمكن له أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً ، وإن لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتي رسول من عند الله يساعده في الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التي حيّرتك هي (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو^(١) ، ولم يعارضه أحد ولم يدّع أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سكّمت له سبحانه هذه الدعوى : لأن صاحب الدعوة حين يدّعيها تسلّم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية في الإنسان هي التي عنها الحق سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وهذا هو العهد الإلهي الذي أخذه الله على خلقه وهم في مرحلة الذُرّ ، حيث كانوا جميعاً في آدم - عليه السلام - فالأنسال كلها تعود إليه . وفي كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هي التي شهدت هذا العهد ، وأقرّت أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابت هذه الشهادة في فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذي أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهي تدعوه

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَرْثَرُوا النَّفْسَ قَاتِلًا بِالْبَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران] .

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمستّه أو شممتّه ؟ إنها الفطرة والغريزة التي جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالفه في حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسَبِّحُ بحمد ربه ، فذرات الكون وذرات التكوين في المؤمن وفي الكافر تُسَبِّحُ بحمد ربها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴾ (٤٤)

[الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسَبِّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذراته وأعضائه في ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذراته وأعضاؤه راضية عنه تُحبّه وتُحبّ البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته في طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعة من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضائه في انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧)

[الذاريات]

وكان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه^(١) ، لأنه في انسجام تام

(١) من أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه ، أخرجه الحاكم في مستدركه (٤٢١/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٢٨) : « يا عائشة إن عينيّ قاتمان ولا ينام قلبي » .

مع إرادته ﷻ . وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد. شرس سيء الخلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقتها .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقَادَةً له لما طأوعته ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أن تفك من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتتلق بلسان مُبِين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضائه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدَّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ۞ (٤٤)﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود - عليه السلام - فقال : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۚ ۞ (٧٩)﴾ [الأنبياء]

ومنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسَبِّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود - عليه السلام - أن الله تعالى أسمعته تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الاصوات ، وتتغام بتسبيح
الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَجِبَالُ اُوبَى مَعَهُ
وَالطُّيْرُ .. (١٠) ﴾ [سبا]

أى : رَجَعى معه ورددى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من
معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى
جنسها^(١) ويقهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من
عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده
من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ اَوْزِعْنِى ^(٢) اَنْ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى اَنْعَمْتَ عَلَى وَعَلَى
وَالِدَى .. (١١) ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها
ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّرُ الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحيثما نقرا عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون :
سَبَّحَ الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن
الحصى يُسَبِّح فى يده ﷺ كما يُسَبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة
أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس
والطير قالت نملة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : بقمه وحكه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه
السلام ﴿ رَبِّ اَوْزِعْنِى اَنْ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (١١) ﴾ [النمل] أى : اللهم شكره وادفعنى إليه وحببه إلى .

والحق سبحانه يريد أن يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهي
كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شيء دونك حياة أيضاً ،
لكن ليست كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨)

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قلّ فهو هالك ، والهلاك ضد
الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ
عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴾ [الأنفال] فدلّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴾ (١٥)

فإن امتدّى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذي
يُعَلِّمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن
الله ، ويُنَبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٦)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يعطينا مثالا لعاقبة الخروج عن
منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولا ليُبلِّغ منهجه إلى
خَلْقِهِ ، فلا عُدْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ،
الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان في نعمة
ربه ثم يعصاه ؟ إنه ردّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذي

يسوقه إليك ليل نهار ، بل في كل نفس من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عذر لمن خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتي يسمع كلمتي » .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك في وقت مناسب ، في وقت استوت فيه ملائكتك وقدراتك ، وأصبحت بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربيع في نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأولى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتنفذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدك من عدم .

والماتمل في قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يكلف بعضاً . كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ (١٣٢) [طه]

وقد شرح لنا النبي ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسِيْعَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لَعَشْرَ »^(١) .

وهذا التكليف وإن كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الأمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول في هذه السن من القريب المباشر المحسن أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسنة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فلذا ما كلفه أبوه كان أدعى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد في هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي ، وهو الله تعالى .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٥) . وأحمد في مسنده (١٨٧/٢) بلفظ « سرُوا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك أمر الأب أن يعود ولده على تحمّل التكليف وأن يعاقبه إن قصّر ؛ لأن الأمر بالفعل هو الذى يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سنّ التكليف الحقيقي من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أنس بالتكليف وتعود عليه ، وبذلك يأتى التكليف الإلهي خفيفاً على النفس ملوفاً عندها .

أما إن أخذت نعم الله وأنصرفت عن منهجه فطفيت بالنعمة وبقيت فانتظر الانتقام ، أنتظر أخذه سبحانه وسنته التى لا تتخلف ولا تُرد عن القوم الظالمين فى الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضرورى لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين والمكبرين يرتعون فى نعم الله فى أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأن يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إن رأوا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلاء منكسرين ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقلة من اعتبار بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاق بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عبرة ومثلاً ، ومن لم يعتبر كان عبرة حتى لمن لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرت البلاد فى نواحي العالم المختلفة لتيسر لك الوقوف على هذه السنة الإلهية فى بلاد بعينها ، ولاستطعت أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ^(١) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَبُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

وياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بُدَّ أن يأتى اليوم الذى يأخذهم فيه أخذٌ عزيزٌ مُقتدر ، وإلا لكانت أسوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١١٦)

[الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نصراً القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نرَ أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴾ (٥)

[البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .. ﴾ (٩٦)

[النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٧٢)

[يونس]

فأمر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعصوا وفسقوا ؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

(١) رَغَدَ المِشْ : اتسع وخاب . يقول تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ يَفْشَى ﴾ (البقرة) .

أى : اكلاً طيباً موسماً طيبكم فيه [القاموس القويم ٢٦٩/١] .

والامر : يَطْلُبُ من الاعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخلق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ۖ ﴾ (١٦) [الإسراء]
من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَرْعُ ۖ ﴾ (١٦) [الإسراء]
أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ۖ ﴾ (٣٣) [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلّم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۖ ﴾ (١٦) [الإسراء]
أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عين ، وليست هذه هى الاولى ، بل إذا استقرت التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يبق منها إلا آثاراً شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ

عِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۖ ﴾ (١٧)

فأين عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فالآية قضية قولية ، لها من الواقع ما يُصدقها .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۖ ﴾ (١٧)

دَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْاِخْتِارَ هَذَا الْعَذَابَ لَمْ يَحْدَثْ فِيمَا قَبْلَ نُوحٍ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا قَرِيبِي عَهْدٍ بِخَلْقِ اللَّهِ لِأَدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا أَنَّهُ كَانَ يُكْفَنُهُمْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَا يَضْمَنُ لَهُمْ سَلَامَةُ الْحَيَاةِ ، أَمَا بَعْدَ نُوحٍ فَقَدْ ظَهَرَ الْفُسَادُ وَالْكَفْرُ وَالْجُحُودُ ، فَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ، الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِثْلٌ .

قال تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاهَرُوا الصُّخْرَ بِالرُّوَادِ (٩) وَقُرْعُونَ ذِي الْأَرْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْقِسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

[الفجر]

ولنا وَقْفَةٌ سَرِيعَةٌ مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْفَجْرِ ، فَقَدْ خَاطَبَ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ رَسُولَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) ﴾

[الفجر]

و ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بِمَعْنَى : أَلَمْ تَعْلَمْ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَرَ مَا فَعَلَهُ اللَّهُ بِعَادٍ ، فَلَمَّا نَازَلَ عَدَلَ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ عَنْ : تَعْلَمُ إِلَى تَرَى ؟

(١) الحجر : العقل ، لانه يمنع صاحبه ويحجزه عما لا يليق به . قال تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) ﴾ [الفجر] . أى : لصاحب عقل . [القاموس القويم ١/ ١٤٤] .

قالوا : لان إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها
قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

حيث وُكِدَ رسول الله في عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التي
لا تكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظم من حضارة الفراعنة التي لغت
أنظار العالم كله : ذلك لان الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿ الَّتِي
لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾ [الفجر]

أي : لا مثيل لها في كل حضارات العالم ، في حين قال عن
حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾ [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ۝١٧ ﴾ [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو في الاصطلاح الزمنى مائة عام ،
ويُطلق على القوم المقترنين معاً في الحياة ، ولو على مبدأ من
المبادئ ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ،
قرن هود ، قرن فرعون ، أي : الفترة التي عاشها .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝١٧ ﴾ [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنى عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٦﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمن يخبره : لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟ نقول : لأن السؤال يرد لإحدى فائدتين :

الاولى : كأن يسأل الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه ، فالهدف أن يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه - والله المثل الأعلى - يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعلها شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٧﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. ۝١٧﴾ [الإسراء]

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٦﴾ [غافر] قال : الرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها [أورده السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٨٢] .

سُورَةُ الْأَشْرَافِ

٨٤٣٢

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أى : أنك ترتضيه وتتق به ،
فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أن أوضحنا أن الله
تعالى فى يده كل السلطات حينما يقضى : السلطة التشريعية ،
والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنى عن الشهود
والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق
سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عدل لا ظلم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ
ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ يَصِلْنَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ۝١٨﴾

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذى جعله خليفة له
فى أرضه ، خلق له الكون كله بما فيه ، وخلق له جميع مقومات
حياته ، ووالى عليه نعمه إجاداً من عدم ، وإمداداً من عدم ، وجعل
من مقومات الحياة ما يتفعل له وإن لم يطلب منه ، كالشمس والقمر
والهواء والمطر ... الخ فهذه من مقومات حياتك التى تُعطيك دون أن
تتفاعل معها .

ومن مقومات الحياة ما لا يتفعل لك ، إلا إذا تفاعلت معه ،

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . والصَّلاة : الشَّواء ، لأنه يُعلى بالنار . [لسان العرب -

مادة : صلا] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفلتت لك ، وأعطتك الإنتاج الوفير .

والمتأمل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مقومات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مقومات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقى الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مقومات الحياة ، والذي يعطيه دون أن يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس في الكون ، الذي يُحسن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثري الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا ما أسَميناه سابقاً عطاء الربوبية الذي يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ . (١٨) ﴾

[الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورقبها وتقدمها .

﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .. (١٨) ﴾

[الإسراء]

اجبتناه لما يريد من منافع الدنيا .

ولا بد لنا أن نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذي جعله الله للمؤمن

والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مقومات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقى بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والظبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الالهية من أمر ونهى وتكليف وعبادة . ونغفل أسباب الحياة ومقوماتها المادية التى لا قوام للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أولى بمقومات الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بآله .

إذن : فمن الدين ألا تمكن أعداء الله من السيطرة على مقومات حياتك ، وألا تجعلهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .. ﴾ (١٨)

[الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مطلقاً ، بل للمشئة تدخل فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿ مَا نَشَاءُ .. ﴾ للمعجل و ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ للمعجل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رقى الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليست فى باله ، وليست فى حسبانته ؛ لذلك

لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفراً لا نصيب له فيها ؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدم ، وهذا قدم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقى والتقدم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ ثُمَّ يَجِدُهُ شَيْئًا وَّوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقًاةَ حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجد شيئاً ، كذلك إن عمل الكافر خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجد له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تاتى المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكن في حسبانته حينما قدم الخير في الدنيا .

وفي آية أخرى يصفه القرآن بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

فكرة يشبه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يشبهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخصب والنماء ، وهو مقوم من مقومات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ^(١) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة الحجر الملساء الناعم الذي لا ينبت شيئاً . [لسان العرب - مادة : صفا] .

فَتَرْكُهُ صَلَاحًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [البقرة]

والحق تبارك وتعالى في هذه الآية يُجَسِّمُ لَنَا خَيِّبَةَ أَمَلِ الْكَافِرِ فِي
الْآخِرَةِ فِي صُورَةٍ مُحَسَّسَةٍ ظَاهِرَةٍ ، فَمَثَلُ عَمَلِ الْكَافِرِ كَحَجَرٍ أَمْلَسَ
أَصَابِهِ الْمَطَرُ ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُ مِنْهُ ؟ وَمَاذَا وَرَاءَهُ مِنَ الْخَيْرِ ؟

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَذْخُورًا﴾ ﴿١٨﴾ [الإسراء]

أَيُّ : أَعَدَدْنَاهَا لَهُ ، وَخَلَقْنَاهَا مِنْ أَجْلِهِ يَقَاسِي حَرَارَتَهَا
﴿مَذْمُومًا﴾ أَيُّ : يَذْمُهُ النَّاسُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يُذَمُّ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ شَيْئًا
مَا كَانَ يَصْنَعُ لَهُ أَنْ يَرْتَكِبَهُ .

و ﴿مَذْخُورًا﴾ ﴿١٨﴾ [الإسراء] مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَعْطَانَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ صُورَةَ لِمَنْ أَرَادَ الْعَاجِلَةَ وَغَفَلَ عَنِ
الْآخِرَةِ ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ ، يَعْطِينَا صُورَةَ مُقَابِلَةٍ ، صُورَةَ
لِمَنْ كَانَ أَعْقَلَ وَأَكْبَسَ ، فَفَضْلُ الْآخِرَةِ .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١١﴾

الْمُتِمَّامِلُ فِي أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُهُ عَادَةً يُعْطَى الصُّورَةُ
وَمُقَابِلُهَا ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يَزْدَادُ وَضُوحًا بِمُقَابِلِهِ ، وَالضُّدُّ يَظْهَرُ حُسْنُهُ
الضُّدُّ ، وَنَرَى هَذِهِ الْمُقَابِلَاتِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى

كما فى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ (١٤) ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ .. ۝ (١٧) ﴾ [الإسراء] فى مقابل :
﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعَاجِلَةَ .. ۝ (١٨) ﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. ۝ (١٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. ۝ (١٩) ﴾ [الإسراء]

لان الإيمان شرط فى قبول العمل ، وكلُّ سعى للإنسان فى حركة الحياة لابد فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكى يقبل العمل . ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممن عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قَدَّمُوا هذه الإنجازات لم يَكُنْ فى بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألَّفُوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص^(١) قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة »^(٢) .

(١) القطا : طائر سُمِّيَ بذلك لثقل منثيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفَرِّخ فيه من

الأرض . والمفحص : شدة الطلب خلال كل شيء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها فى

التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها [لسان العرب - مادة : فحص ، قطا] .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٧٢٨) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيرى فى

الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٤٣٩

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول :
أنشأه فلان ، وافتتحه فلان ... الخ مع أنه قد يكون من أموال
الزكاة !! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه
ما يحيطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل ، وانتهت القضية .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ۝١٦ ﴾ [الإسراء]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر
يكون لله استدراراً لمزيد نعمة ، كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم
لَأزيدنكم ۝١٧ ﴾ [إبراهيم]

فما بالك إن كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته ؟
وهذا يدل على أن العمل الإيماني يُصادف شكراً حتى من المخالف
له ، فاللص مثلاً إن كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه
أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذي يحفظه ؟

فاللص لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، في حين يحترم الأمين مع
أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبي ﷺ وكفرهم بما جاء
به إلا أنهم كانوا يأتونونه على الغالي والنفيس عندهم : لأنهم واثقون
من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقدي
جوهرى ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفظ الأمانات فلن يقشوا
أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد ﷺ^(١) .

(١) حدث هذا عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، يقول ابن هشام في السيرة النبوية
(٢/٤٨٥) أن النبي ﷺ أمر علي بن أبي طالب « أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن
رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده
شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذي تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعد أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنْ استعان بك في نقيصة فقد سقطت من نظره ، وإن أعنته على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَائِرِكَ ﴾

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴿٢٠﴾

﴿ كَلَّا ﴾ أى : كلا الفريقين السابقين : مَنْ أراد العاجلة ، وَمَنْ أراد الآخرة : ﴿ نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَائِرِكَ ﴾ .. ﴿٢٠﴾ [الإسراء]
أى : أن الله تعالى يمد الجميع بمقومات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات في الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها في المعصية ، كما لو أعطيت لرجلين مالا ، فالأول تصدق بماله ، والآخر شرب بماله خمرًا .

إنّ : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، أما عطاء الألوهية المتمثل في منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴾ ﴿٢١﴾ [الإسراء]

أى : ممنوعاً عن أحد ؛ لأن الجميع خلقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذى استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفل لهم بمقومات حياتهم ، كما تستدعى ضيفاً إلى بيتك فعليك أن تقوم له بواجب الضيافة .

وتلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴾ (٢١) [الإسراء]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه رب كل شيء .
أى : مُرَبِّيه ومتكفل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (٢١)

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد منا أن ننظر فى الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صدق ما قال .

يقول تعالى : ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٢١) [الإسراء]

والمعامل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عاماً ، فلم يُبين من المفضل ومن المفضل عليه ، فلم يقل : فضلت الاغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام فى القضية عموم فى التفضيل ، فكل بعض مفضل

فى جهة ، ومُفَضَّل عليه فى جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كل زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونسخاً مُعَادَةً ، بل يُريدنا أناساً متكاملين فى حركة الحياة ، ولر أن الواحد مِنَّا أصبح مَجْمَعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفَضَّلًا فى خَصْلَةٍ ، وجعل غيرك مُفَضَّلًا فى خصال كثيرة ، فانت محتاج لغيرك فيما فُضِّلَ فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلَتْ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل فى المجتمع ، وتسلم للناس حركة الحياة .

وستطيع أن تخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فإن زِدْتَ غنى فى المال فربما أزيد عنك فى الصحة ، وهكذا تكون المصلحة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣) [المعبرات]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزم أدب الإسلام فى حفظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفَضَّلًا فلا تحتقر غيرك ، واعلم أن لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذى قد تضطره الظروف وتُجوجه لسبائك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفضّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أن تتصورَ الحال مثلاً إذا أُضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مخموراً فإن له مهمة يفضل بها عن غيره من الناس .

خذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيط للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ^(١) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا^(٢) وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسَخَّر لخدمة الآخرين فيما قُضِل فيه ، وفيما نبيغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ يَدٍ وَمِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

إذن : فى التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة ؛

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، صمى اللسان ، وهو ميسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليل اللسان وهو مقنن عليه . [الدر المنثور ٣٧٥/٧] .

(٢) سخره يسخره : أذله ولهفه وأخضعه . [القاموس القزيم ٢٠٦/١] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس منّا من هو ابن الله ، وليس منّا من بينه وبين الله تسبب أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أولى من أحد .

فالعاقل حين يتنظر في الحياة لا ينظر إلى تميّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندك غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ في مجال من المجالات ، فغيره نابغ في مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنتظر إليهم نظرة احتقار ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبة .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]

فإن كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملت حالك في الدنيا ، وقارنته بالآخرة لوجدت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا مرقوت ، وسينتهي إلى الموت ؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإن بقيت من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما قُضيت به من تعيم الدنيا عرضة للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فَالْغَنَى قَدْ يَصِيرُ فَقِيرًا ، وَالصَّحِيحُ سَقِيمًا ، كَمَا أَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ إِمْكَانِيَّاتِكَ وَتَفَاعُلِكَ مَعَ الْأَسْبَابِ ، فَالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ غَيْرُ مُتَيَقَّنَةٍ وَغَيْرُ مَوْثُوقٍ بِهَا .

وَهَبْ أَنْكَ تَنْعَمْتَ فِي الدُّنْيَا بِأَعْلَى دَرَجَاتِ النِّعَمِ ، فَإِنَّ نَعِيمَكَ هَذَا يُنْقَضُ أَمْرَانِ : إِمَّا أَنْ تَفُوتَ هَذَا النِّعَمَ بِالْمَوْتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَفُوتَكَ هُوَ بِمَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ أَغْيَارِ الْحَيَاةِ .

أَمَّا الْآخِرَةُ فَعَمْرُكَ فِيهَا مُسْتَدَّةٌ لَا يَنْتَهِي ، وَالنِّعْمَةُ فِيهَا دَائِمَةٌ لَا تَزُولُ ، وَهِيَ نِعْمَةٌ لَا حُدُودَ لَهَا ؛ لِأَنَّهَا عَلَى قَدَرِ إِمْكَانِيَّاتِ الْمُتَعَمِّمِ عَنِ وَجَلٍ ، فِي دَارِ خُلُودٍ لَا يَعْتَرِيهَا الْفَنَاءُ ، وَهِيَ مُتَيَقَّنَةٌ مَوْثُوقَةٌ بِهَا .
فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ إِذَنْ ؟ لِذَلِكَ الْحَقُّ سَبَّحَانَهُ يَدْعُونَا إِلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّعَقُّلِ :

﴿ انْظُرْ ﴾ أَيُّ الصَّفَفَتَيْنِ الرَّابِحَةِ ، فَتَاجِرٌ فِيهَا وَلَا تَرْضَى بِهَا بِدِيلًا .

إِذَنْ : فَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ ، وَلَا وَجْهَ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ . وَاذْكُرْ أَنَّنَا سَافَرْنَا مَرَّةً إِلَى (سَانِ فِرَانْسِيْسْكُو) فَأَدْخَلُونَا أَحَدَ الْفُنَادِقِ ، لَا لِلْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَلَكِنْ لِمُشَاهَدَةِ مَا فِيهِ مِنْ رَوْعَةٍ وَجَمَالٍ وَمُظَاهَرِ الرِّقَى وَالرِّفَاقِيَّةِ .

وَفِعْلًا كَانَ هَذَا الْفُنْدُقُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْإِبْدَاعِ وَالْجَمَالِ ، فَرَأَيْتُ رِفَاقِي وَكَانُوا مِنْ عُلِيَّةِ الْقَوْمِ مَبْهُورِينَ بِهِ ، مَأْخُودِينَ بِرَوْعَتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُمْ عِبَارَةً وَاحِدَةً : هَذَا مَا أَعَدَّ الْبَشَرَ لِلْبَشَرِ ، فَكَيْفَ بِمَا أَعَدَّهُ رَبُّ الْبَشَرِ لِلْبَشَرِ ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أن تثير فينا الشوق لنعيم دائم في الجنة ؛ لا أن يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإن كان ما نراه من ترف وتقدم ورقي وعمارة في الدنيا من صنع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إن كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألا نغفل الفرق بين نعيم الدنيا الذي أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذي أعدّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس في رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاي مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إن تفاعلت معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدّمت صناعاتهم فلن يصلوا إلى أن يقدموا لك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذي أعدّه الخالق سبحانه لعباده الصالحين^(١) .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسألنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلا أن تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلّك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا ٢٢ ﴾

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا إذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] .

لأنه سبحانه أعطاك في الدنيا ، وأمدك بالأسباب ، وبمقومات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عدم ، حتى وإن كنت كافراً ، ثم أعبد لك في الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذي لا يقنى ولا يزول .

وهذه هي الحثثيات التي ينبغي عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجه إليه ، وتلتصم به وتكون في معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إن فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمة والخذلان في الدنيا والآخرة .

وسوف تُفاجأ في القيامة ببريك الذي دعاك للإيمان به فكفرت .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. ﴾ (٣٩)

[النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يدك .

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقَعْدَ مَذْمُوماً مُخْذُولاً ﴾ (٢٢)

[الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح خيراً قادر على القيام ، ففيها ما يشمر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أن أصبحت رجلاً غير قادرتين على حمله ، ولم تعد به قوة للحركة .

ونلاحظ في تفسير القرآن عن هذا الذي خارت قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وضع القعود خاصة ، ولم يقل مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم - ففي النوم يفقد الإنسان الرمي فلا يشعر بالعذاب - بل قال ﴿ فَتَقَعْدَ ﴾ هكذا شاخص يقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التي تُحس وتالم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية : لأن التخدير يُفقد الوعي فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ لَعَنَّاهُ الْمَجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦٥)

وقال : ﴿ وَأَقْرَعُوا^(١) مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. ﴾ (٦٥) [النور]
فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفي الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو في عذاب مستمر .

وفي مجال الذم قال الشاعر :
دَحِ المَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
وقوله : ﴿ مَذْمُومًا .. ﴾ (٦٦) [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿ مَخْذُولًا ﴾ (٦٦) [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُصرة ،
فالأبعد في موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك
يقول تعالى لهؤلاء : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٦٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُتَسَلِّمُونَ (٦٦)

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال : فيقول سبحانه :

(١) القراع من النساء : هن اللواتي انقطع عنهن الحبض ويحسن من الولد . ولم يبق لهن تشوف إلى الزوج . نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضمك وقنادة .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِنَّمَا
يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾

بعد أن وجهنا الله تعالى إلى القضية العقيدية الكبرى : ﴿ لَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۝٢٢﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أن يبين لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا
بالعمل ، فلا يكفي أن تعرف الله وتتوجه إليه ، بل لا بد أن تنتظر فيما
فرضه عليك ، وفيما كلفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب
الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا
الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن
يدعوك ولن يسألموك ، ولا بد أن تسلح نفسك بالحق والقوة
والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القولي فقط ، أن كفار مكة
لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألة الإيمان بإله
واحد وتنتهي القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

(١) قضى : أمر والزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم
بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبي ٣٩٦٥/٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بآله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذي جاء ليُبلِّغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلِّغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا رَحِيماً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رُسُلاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴾ (٥١)

وما هي أول الأحكام في منهج الله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٢٢) [الإسراء]

وقد أثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) : لأن الرب هو الذي خلقك ورباك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أدعى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. ﴾ (٢٣) [الإسراء]

الخطاب هنا مُوجَّه إلى النبي محمد ﷺ : لأنه هو الذي بلغ المرتبة العليا في التربية والأدب ، وهي تربية حقّة : لأن الله تعالى هو الذي ربّاه ، وأدبه أحسن تأديب .

وفي الحديث الشريف : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »^(١) .

(١) قال عبد الرحمن بن علي الشافعي الشيباني في كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه العسكري في الأمثال عن علي رضي الله عنه مرفوعاً في حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح » .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٨٤٥﴾

قضى : معناها : حكم ؛ لأن القاضي هو الذى يحكم ، ومعناها
أيضاً : أمر ، وهى هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألا تعبدوا إلا
إياه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تاتى قضى بمعنى : خلق . كما فى قوله تعالى : ﴿فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ مِائَاتٍ ..﴾ (١٦) ﴿[لملت]

وتاتى بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما فى قوله تعالى :
﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا^(١) زَوَّجْنَاكَهَا ..﴾ (٣٧) ﴿[الاحزاب]

وقد تدل على انتهاء المدة كما فى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ ..﴾ (٢٩) ﴿[الفصص]

وتاتى بمعنى : أراد كما فى : ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ (٦٨) ﴿[غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعددة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء
اللازم المؤكّد الذى لا نقص فيه .

وقوله : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ..﴾ (٢٢) ﴿[الإسراء]

العبادة : هى إطاعة أمر فى أمره ونهيهِ ، فتتصاع له تنفيذاً
للأمر ، واجتناباً للنهى ، فإن تركَ لك شيئاً لا أمراً فيه ولا نهياً فاعلم
أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أى :
حلق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَاكَهَا ..﴾ (٣٧) [الاحزاب] - أى : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم
٢٤٣/٢] .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الاصنام والذين اتوا بها حجارة من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والادوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجرها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الاصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبُّ يَبْرُلُ الثُّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذُلٌّ مِّنْ يَّالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهى ، فبأى شيء أمرتكم الاصنام ؟ وعن أى شيء نهتكم ؟! إذن : كلامكم كذب فى كذب .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٧٣) [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلنائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلق ، كما لو قلت : ضربت فلاناً وفلاناً وفلاناً .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلاناً فقد أغلقت باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثانى بعد عبادته : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٧٣) [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين فى

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٤٥٢

آيات كثيرة . قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ الْأَلْبَابَ لِتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [المنكحوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غيب ، والإيمان به يحتاج إلى أعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسّي ، فهما سرُّ وجوده المباشر ، وهما ربياه ووقرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحَسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعتقولة ، فأمَرَ الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربِّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل ربك الوالدان بما أوجدها هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إنّ : لا بد أن يلتزم حقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفس : ﴿الْأَعْبُدُوا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

يعنى لئلا نأخذ غير سيئاته ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلى ، وفذلك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مظلئىة الإساءة . وهذا غير وارد فى حقهما ، وغير متصور ملهما ، وأنت إذا نفيت شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد دَمَمْتَهُ ، كأن تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا فى حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلت : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظن فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نفى العيب عمن لا يستحق العيب عيب . إذن : لم يذكر الإساءة هنا : لأنها لا ترد على البال ، ولا تُتصور من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنس أن فضل الله عليك أعظم : لأن والديك قد يكفرك ويُسْلِمَانِكَ إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ احْسَنَّا .. ﴾ (٢٣)

كانه قال : احسنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَلَفَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ لَا تُنْهَرُهُمَا ^(١) وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٤)

(١) نهر وانتهر : زجر . والانتهاز : الزجر ، واستئباله بكلام تزجره به . [لسان العرب - مادة : نهر] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتي الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

ومرة يُعلل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ ۝١٤ ﴾ [لقمان]

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلة في برِّ الوالدين ، والحيثيات التي استوجبت هذا البرِّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ۝١٥ ﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ ۝١٤ ﴾ [لقمان]

فأين دور الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنتين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات برِّ الوالدين يجد حيثية مُجَمَّلة ذكرت دور الأب والأم معاً في قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ۝٢٤ ﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كمان للام الدور الأكبر ! لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما ، قالت الام : لقد حمّله خُفًا وحملته ثَقَلًا ، ووضع شهوة ووضعته كرهاً .

لذلك ذكر القرآن السبب الخاص بالأم : لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج^(١) ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٦٧/٥) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفر بها الأم عن الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب » .

يشعر بها ، فكانه سبحانه وتعالى أراد أن يُذكرنا بفضل الأم الذي لم ندركه ولم نُحس به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذي يوقر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتي أبوك ، فدور الأب - إذن - معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصت بالوالدين في حال الكبر ، فلماذا خصت هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقوتهما ليسا مظنة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجر منهما ، فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح ترى الأولاد في هذه الحال يتقربون للأباء ، ويتمنون رضاها ، لينالوا من خيرها .

لكن حالة الكبر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أن كان مُعطياً أصبح آخذاً ، وبعد أن كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبي ﷺ في حديث الأُمَيَّات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال :

جاءني جبريل فقال : رغم أنف من ذكرت عنده ولم يُصَلِّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف من أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف من أدرك والديه -

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٤٥٧

أو أحدهما - فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين ،^(١) .

فخصَّ الحق سبحانه حال الكبر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْرُ الزَّوْجِ مَبْكُورُهُ ، فلما سُئِلَ قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعرِّك في طفولة شيخوختك ، وشبه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ . [الروم] فَمَنْ تَزَوَّجَ مَبَكْرًا فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعِينُهُ ويساعده حال كِبَرِهِ .

والمثال في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَلَفَعْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ..﴾ [٢٣] [الإسراء] لم تأت صفة الكبر على إطلاقها ، بل قيدها بقوله : ﴿عِنْدَكَ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة . وما دام لم يعد لهما غيرك فلتكن على مستوى المسئولية ، ولا تتنصل منها ؛ لأنك أولى الناس بها .

ويعتمد البرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكنَّا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢٤٦/٢) من حديث ابن مريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ :

« رَغِمَ أَنْفٌ ، رَغِمَ أَنْفٌ ، رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَهُ الْكِبَرُ لَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةُ » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذى في سننه (٣٥٤٥) وقال :

حديث حسن غريب .

التي لا تُوصَل إلا بهما من قرابة الأب والام ، وتُصِلُ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ويؤدُّهم .

وقد كان ﷺ يؤدُّ صاحبات السيدة خديجة - رضى الله عنها - وكان يستقبلهن ويكرمهن^(١) .

وانظر إلى سُمُو هذا الخلق الإسلامي ، حينما يُعدُّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فبعد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله في أمها التي اتَّنها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صلي أمك »^(٢) .

بل وأكثر من ذلك ، إن كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ (١٥) [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضِّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى في حال كفرهما ولَدَدُهُمَا^(٣) في الكفر .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فمعرّف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد ، قسرت فقلت : وما تذكر من عجز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجته مسلم في صحيحه (٢٤٢٧) وفي حديث آخر (٢٤٢٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدتهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت على أمي وهي رافضة ، أفأصل أمي ؟ قال : نعم . صلي أمك . « أخرجته مسلم في صحيحه (١٠٠٢) والبيهقي في صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللد : العداوة الشديدة . والشديد الخصومة . [لسان العرب - مادة : لد] .

وَيُرْوَى أَنَّ خَلِيلَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - جَاءَهُ ضَيْفٌ لَيْلٍ ،
وَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ فِي ضَيْفَاتِهِ ، فَسَالَهُ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَنْ دِينِهِ
فَقَالَ : مَجُوسِي فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ يَذْهَبُ . فَسَرَّعَانَ مَا أَوْحَى الْحَقُّ
سَبْحَانَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ مُعَاتِبًا إِيَّاهُ فِي أَمْرِ هَذَا الضَّيْفِ : يَا إِبْرَاهِيمُ لَقَدْ
وَسَّعْتُهُ فِي مَلَكِي أَعْرَافًا عَدِيدَةً ، أَطْعَمَهُ وَأَسْقَيْهِ وَأَكْسَوَهُ وَهُوَ كَافِرٌ
بِي ، وَأَنْتَ تُعْرَضُ عَنْهُ وَتُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ دِينَهُ مِنْ أَجْلِ لَيْلَةٍ يَبِيتُهَا
عِنْدَكَ . فَاسْرِعِ الْخَلِيلُ خَلْفَ الضَّيْفِ حَتَّى لَحِقَ بِهِ ، وَحَكَى لَهُ
مَا حَدَثَ . فَقَالَ الرَّجُلُ : نِعْمَ الرَّبُّ رَبُّ يَسْعَاتِبِ أَحِبَّابِهِ فِي أَعْدَائِهِ ،
وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ رَسُولُ اللَّهِ .

وقد رأى المستشرقون لضيق أفقهم وقلة فقههم لأسلوب القرآن
الكريم ، رأوا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ۖ ۝ (١٥) ﴾

وبين قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ ۖ ۝ (١٦) ﴾

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، في
حين ينهى عن مودة مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟

ولو فهم هؤلاء مَعْطِيَاتِ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ
لَعَلَّمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ غَيْرُ الْوَدِّ ؛ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ يَصْنَعُهُ الْإِنْسَانُ مَعَ مَنْ
يُحِبُّ ، وَمَعَ مَنْ يَكْرَهُ ، مَعَ الْمُؤْمِنِ وَمَعَ الْكَافِرِ ، تُطْعِمُهُ إِذَا جَاعَ ،
وَتَسْقِيهِ إِذَا عَطَشَ ، وَتُسْتَرُّهُ إِنْ كَانَ عَرِيَانًا ، أَمَّا الْمُودَةُ فَلَا تَكُونُ إِلَّا
لِمَنْ تُحِبُّ ؛ لِأَنَّهَا عَمَلُ قَلْبٍ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٢) ﴿

[الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهي يُراعى الحالة النفسية للوالدين حال كبرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والقطنة والأدب والرفق في التعامل مع الوالدين في مثل هذه السن .

الوالد بعد أن كنان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أن كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيد البيت أو طريح الفراش ، إذن : هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرهفة في هذه الحال .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ .. ﴾ (٢٢) ﴿ [الإسراء]

وهي لفظة بسيطة أقل ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرِيَّة تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء ، فالحق سبحانه يمتنع من هذا التعبير القَسْرِي ، وليس الأمر الاختياري .

و ﴿ أَمْرٌ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالك مشاعرك ، وتتحكَّم في عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهانى عن هذه فقد نهانى عن غيرها من باب أولى ، وما دامت هي أقل لفظة يمكن أن تُقال ، إذن : نهانى عن القول وعن الفعل أيضاً .

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

٨٤٦٩

ثم أكد هذا التوجيه بقوله : ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ (٢٢) [الإسراء]

والنهر هو الزجر بقسوة ، وهو انفعال تال للتضجر وأشد منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة ، فلو تصورنا الابن يعطى والده كوباً من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد: من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كنْ على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فكر ، ودون تعقل .

ثم بعد هذا النهي المؤكد يأتى أمر جديد ليؤكد النهي السابق : ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) [الإسراء]

وفى هذا المقام تُروى قصة الشاب الذى أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلحق الطعام الذى وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتني ، فحول الإساءة إلى جميل يُحمد عليه .

والآخر الذى ذهب يتمرغ تحت أقدام أمه ، فقالت له : كفى يا بني ، فقال : إن كنت تُحِبِّينَنِي حقاً فلا تمنعيني من عمل يُدخلني الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرف واللباقة في معاملة الوالدين ، خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعد صاحبها ، أو المرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أولى الناس بإعالة الوالدين في

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان ما لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهب أن الوالد المريض أو الذي بلغ من الكبر عتياً يريد أن يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويقعده ويُرِيحُه ، ويتبقي هنا أن يقول الابن لآبيه : هَوْنٌ عليك يا والدي ، وأعطني فرصة أردُّ لك بعض جميلك علي ، فلکم فعلت معي أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحِبّاً لوالده ، رفيقاً به ، حائثاً عليه لا يتبرم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذي ينتقيه الأبناء في المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك في بيتك وقد يحدث منه أن يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له في هذا الموقف : فِدَاكَ يا والدي ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر في شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذي يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتي المرض مع كِبَر السن ، فتري الوالد طريح الفراش أو مشلولاً - عاقباً الله وإياكم - لذلك فهو في أمس الحاجة لمن يُخَفِّف عنه ويُوَاسِيه ، ويفتح له باب الأمل في الشفاء ويذكره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذِكرٍ لفضل الوالدين عليك ، ولا تنسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الابوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فتسرى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قدر حاجة المربى يكون حنان المربى .

إذن : نستطيع أن نأخذ من هذا إشارة دقيقة يجب ألا نغفل عنها ، وهى : إن كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حال كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤ ﴾

﴿ وَأَخْفِضْ ﴾ : الخفض ضد الرفع .

﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويرفرف به ، إن أراد أن يطير ، ويخفضه إن أراد أن يحنو على صغاره ، ويحتضلهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسنة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نفتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كناية عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما متعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرافة والرحمة في الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويرزقهم^(١) الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرّون على مضغ الطعام وتكسيده ، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أن يزدردوا الطعام ، فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يتناولتهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلعه ، وإن تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذل قد يأتي بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرِّئَةٍ مِنْكُمْ عَنْ ذِيئِهِ فَيَسْأَلُ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطفين على المؤمنين . وفي المقابل ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان وحيداً على الإطلاق ،

(١) ذقه : أكله بفيه (بلعه) . [لسان العرب - مادة : ذقق] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٤٦٥

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق في المؤمن مرونة تمكنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التي يمر بها ، فإن كان على الكافر كان عزيزاً ، وإن كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوح هذه القضية في سيرة الصديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما ، وقد عُرف عن الصديق اللين ورقة القلب والرحمة ، وعُرف عن عمر الشدة في الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لي يا رسول الله أضرب عنقه »^(١) .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان من رأى عمر ألا يحاربهم في هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، في حين رأى الصديق محاربتهم والأخذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعموني عقلاً كانوا يؤذونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يبق إلا الزرع »^(٢) .

وقد جاء هذا الموقف من الصديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبي بكر لكان شيئاً طبيعياً ينسب إلى شدة عمر

(١) وقد روت لنا السنة طرفاً من هذا ، فعن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم لئلا نؤاخذوا بالخويسرة ، وهو رجل من بني تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، إئذن لي فبه أضرب عنقه . أخرجه مسلم في صحيحه (٧٤٤/٢) كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم في صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وجراته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصديق - رضى الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكان الموقف هو الذى صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. ﴾ (٢٤) [الإسراء]

إذن : الذلة هنا ذلة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤) [الإسراء]

لأن رحمتك بهما لا تنفى بما قدموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادىء كالمكافئ ، فهم أحسنوا إليك بدايةً وأنت أحسنْتَ إليهما رداً ؛ لذلك أدعُ الله أن يرحمهما ، وأن يتكفل سيحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. ﴾ (٢٤) [الإسراء]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بى حين ربّيانى صغيراً ، أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربّيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (١٩٨) [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُرَبٍّ للإنسان فى هذا الحكم ، وإن لم يكن من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لائى ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فإن ربّاك

غير والدك فلهما ما للوالدين من البرِّ والإحسان وحُسْنِ المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن ربى غير ولده ، ولا سيما إن كان المربى يتيمًا ، أو فى حكم اليتيم .

وفى ﴿رَبَّانِي صَغِيرًا (٢١)﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه فى تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾

وقد سبق أن تكلمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطوق مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطوق لأن كفر بقلبه ولسانه ، أما المتأفق فغير منطوق مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق ؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر فى مكة التى صارت الإسلام وعانده ، وضيق عليه ، بل ظهر فى

(١) الأوابون : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . [تفسير القرطبي ٢٩٧٥/٥] .

المدينة التي احتضنت الدين ، وانساحت به في شتى بقاع الأرض ،
وقد يتساءل البعض : كيف ذلك ؟

نقول : التفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنَافِقُ إلا
القوى ، والإسلام في مكة كان ضعيفاً ، فكان الكفار يُجابهونه
ولا ينافقونه ، فلما تحول إلى المدينة اشتد عوده ، وقويت شوكته ،
وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقد ذمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم :
﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا^(١) عَلَى النِّفَاقِ .. ﴾ [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى
في حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا^(٢) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .. ﴾ [الحشر]

وكانه جعل الإيمان مَحَلًّا للنازِلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا
وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(٣) .. ﴾ [الحشر]

فإن قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. ﴾ [التوبة]

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتربوا كما تاب آخرون . وقال ابن جريج : ماثوا عليه ،
عبد الله بن أبي ، وأبو عامر الزاهد ، والجد بن قيس . [تفسير الدر المنثور للسيوطي
٢٧٢/٤] .

(٢) أي : سكنوا دار الهجرة وهي المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على النار كأنه
منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشيء . [لسان العرب - مادة : خصص] .

فالنفاق في المدينة ظاهرة صريحة للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً في المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، لأنه مُنْدَسٌ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبرِّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارةً دقيقةً إلى أن النفاق كما يكون في الإيمان بالله ، يكون كذلك في برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرُّ أبويه نفاقاً وسُوءَ رِيَاءٍ ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حرصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرُّ أبويه ، وهو يدعو الله في نفسه أن يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَبِّكُمْ ﴾ أي : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندي سواء ، وكما تدافع عن الأب تدافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقع فيما لا تُحمد عقباه .

وقوله : ﴿ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء]

أي : إن توفّر فيكم شرطُ الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى ، وإن كان غير ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا في عدم الصلاح ، بل
عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَرْبَابِ غُفُورًا (٢٥) ﴾ [الإسراء]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .
وقد سبق أن أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمة
من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه
أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ،
ويشقى بها طوال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى
به المجتمع .

لذلك شرع الخالق سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمنه ،
وليُثَرَى جوانب الخير فيه .

ثم يُوسِعُ القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان ،
إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أن حُثَّه على والديه لفت نظره إلى
ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا يَبْذَرْ بَيْدِرًا (٢٦) ﴾

الحق سبحانه بعد أن حُثَّ الإنسان على والديه صعد المسألة فحثَّه
على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ .. (٢٦) ﴾ [الإسراء]
﴿ حَقُّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حَقًّا للآقارب إن كانوا في حاجة ،
وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

سورة الاحزاب

﴿٨٤٧﴾

يُهَادِي أَقْرِبَاءَهُ وَيَهَادُونَهُ . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يُشِيعَ فِي
الْمَجْتَمَعِ رُوحَ التَّكَافُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ .

لِذَلِكَ كَانَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الْأَنْدَلُسِ إِذَا مَنَعَ الرَّجُلُ زَكَاةً تَقَرُّبُ مِنْ
النُّصَابِ أَمْرَ بَقْطَعِ يَدِهِ ، كَأَنَّهُ سَرَقَهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْمَاهُ (حَقًّا)
فَمَنْ مَنَعَ صَاحِبَ الْحَقِّ مِنْ حَقِّهِ ، فَكَأَنَّهُ سَرَقَهُ مِنْهُ .

وَقَدْ سَلَكَ فُقَهَاءُ الْأَنْدَلُسِ هَذَا الْمَسْلَكَ ، لِأَنَّهُمْ فِي بِلَادِ تَرَفٍّ
وَعُثَى ، فَتَشَدَّدُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا عُدْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا^(١) .

لِذَلِكَ ، لَمَّا جَاءَ أَحَدُ خُلَفَائِهِمْ إِلَى الْمَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَقَالَ : لَقَدْ
حَلَفْتُ يَمِينًا ، وَأَرَى أَنَّ أَكْفَرَ عَنْهُ فَأَفْتَاهُ بِأَنْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَقَالَ
أَحَدُهُمْ : لَقَدْ ضَيَّقْتَ وَأَسْعَا فَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لِلْكَفَّارَةِ أَيْضًا إِطْعَامَ عَشْرَةِ
مَسَاكِينَ أَوْ كَسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الْمَنْذَرُ قَائِلًا : أَوْ مِثْلُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُزَجَّرُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ أَوْ كَسْوَتِهِمْ ؟ إِنَّهُ يَفْعَلُ
ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ لَأَلْفَ وَأَكْثَرَ ، وَإِنَّمَا يَزْجِرُهُ الصَّوْمُ ، وَهَكَذَا أَخَذُوا الْحُكْمَ
بِالرُّوحِ لَا بِالنَّصِّ ؛ لِيَتَنَاسَبَ مَعَ مَقْدَرَةِ الْخَلِيفَةِ ، وَيُؤَكِّرَ فِي رَدِّعِهِ
وَزَجْرِهِ .

وَكَلِمَةُ (حَقٌّ) وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَعْنَيْنِ :

الْأَوَّلُ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ [المعارج]

وَالْحَقُّ الْمَعْلُومُ هُوَ الزَّكَاةُ .

(١) جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَغْنِيِّ لِابْنِ قُدَامَةَ (٤٣٥/٢) فِي حُكْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ : « إِنْ مَنَعَهَا مَعْتَقِدًا
رَجُوبًا وَقَدَّرَ الْإِنَامَ عَلَى اخْتِصَامِ مَنْ أَخَذَهَا وَمَزَرَهُ وَلَمْ يَأْخُذْ زِيَادَةً عَلَيْهَا فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ
الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَبَرُ حَلِيفَةٍ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُمْ ، وَكَذَلِكَ إِنْ غُلَّ مَالُهُ وَكُتِمَتْ حَتَّى
لَا يَأْخُذَ الْإِنَامُ زَكَاةً فَظَهَرَ عَدْوِي ، بِأَخْذِهَا وَشَطْرُهَا » .

أما الحق الآخر فحقٌ غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوع لله بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾
[الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عما فرضه الله علينا ، ويجب على من يؤتي هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنَمًا لا مَقْرَمًا ؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطائك اليوم ضماناً لك في المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غداً ، إن دارت عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجاه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ في المجتمع ، وكذلك إن تركت أولادك في عوز وحاجة ، فالمجتمع متكفل بهم .

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْقِهِمُ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصون بها الفقراء الأباعد عنهم ،

وَيُعْطُونَ الْأَقْرَابَ مِنْ مَالِهِمْ الْخَاصَّ مُسَاعَدَةً وَإِحْسَانًا .

و (الْمُسْكِينِ) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّا السُّقِينُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . (٧٩) ﴾ [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض فى تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطئ .

و ﴿ وَابْنُ السَّبِيلِ . (٢٦) ﴾ [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإن كان منقطعاً فى الطريق وطُرأت عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب يَسَارٍ وَغِنًى ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يوصله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله فى وضع مذلة أو حرج .

﴿ وَلَا تَبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) ﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطى المحصول المزجج منه ، أما إن بذر البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهي كثيرة في مكان ، وقليلة في مكان آخر ، وهذا ما نُسَمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب ؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فيُعاق نموها .

لذلك ، فالحق سبحانه أثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال في غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء في غير ما يلزم ، في حين يمسك في الشيء الضروري .

إذن : التبذير : صَرَفُ المال في غير حِلِّه ، أو في غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهي عن التبذير هنا قد يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء ، يعنى حينما تعطى حقَّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطى أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكركم فتزيد في عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلصَ إلى نفسك ربما تدمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذَر في الأمور الأخرى ، فالنهي هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التي يُنفق فيها المال في غير ضرورة^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيَاطِينُ لِرَبِّهِمْ كَفُورًا ﴾ (٢٧)

كلمة (اخ) تُجمع على إخوة و إخوان .

وإخوة : تدل على أخوة النسب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ
إِخْوَةَ يُوسُفَ .. ﴾ (٥٨) [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما في قوله
تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ (١٠) [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .. ﴾ (٢٨) [مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى - عليهما السلام - وبينهما زمن
طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سمعاهما القرآن إخوة أي
أخوة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً
كان أو شراً ، فقد تدل على الاجتماع في الخير ، كما في قوله

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢١٧٦/٥) : « من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر
الحاجات ، وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل
أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر ، ويحجب عليه في نفقته
الدراهم في الحرام ، ولا يحجب عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد » .

تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع في الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الاسراء]

فكان المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة ، وودّ واحد ، وانتظمتها صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إخوة) تدل على أخوة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أخوة الإيمان التي تتهاور أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخوين من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوان : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنياء مكة ، وكان لا يرتدى إلا أفخر الثياب والينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مدلل مكة ، ثم بعد أن آمن تغير حاله وأثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والتعظيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلم الناس أمور دينهم ^(١) ، وفي غزوة أحد رأى رسول الله ﷺ يرتدى جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيك » ^(٢) .

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١٠٧/١) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعت إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه . لقد رأيت بين أبيين يخطوته بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

﴿ ٨٤٧٧ ﴾

فماذا حدث بين الاخوين المؤمن والكافر ؟ وأى الصلوات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لما دارت المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أسرهُ أحد المسلمين اسمه « أبو اليَسَر »^(١) فالتفت إليه . وقال : يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك ، فأَمَّهُ غنية ، وسوف تغديه بمال كثير .

فنظر إليه « أبو عَزِيز »^(٢) وقال : يا مصعب ، أهزم وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخى دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ (١١) [الحجرات]

قوله : ﴿ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ .. ﴾ (٢٧) [الإسراء]

أى : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين فى صفة واحدة هى التبذير والإسراف ، فإن كان الميذّر قد أسرف فى الإنفاق ووَضَعَ المال فى غير حِلّه وفى غير ضرورة ، فإن الشيطانَ أسرف فى المعصية ، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً فى ذاته ، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بهاً وزينها ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٢٧) [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كفر وعمل على تكفير غيره .

(١) اسمه : كعب بن عمرو الأنصارى السلمى ، شهد العقبة ويدرأ ، وهو الذى أسر العباس . قال المدائلى : كان قسيرةً دحداً (سمينة) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٢١٨/٧) ترجمة رقم (١٢٤٢) فى الكنى] .

(٢) اسمه : زُرارة بن عَمِير . له صحبة وسمع من النبي ﷺ ، انفق أهل المغازى على أنه أسرى يوم بدر . [الإصابة ١٢٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أْبَتْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا

فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (٢٨)

ولنا أن نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن
الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء
لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله :
﴿أْبَتْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ..﴾ (٢٨) [الإساءة]

فإنه تعالى في ذهنك ، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله
ورزقه وسعته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا
إذن الغرض من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسالك حاجة ،
وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أن تواجهه بالمنع ، وتستص
منه . فما يكون منك إلا أن تتوجه إلى ربك عز وجل وتطلب منه
ما يسد حاجتك وحاجة سائلك . وأن يجعل لك من هذا الموقف
مخرجاً .

فالمعنى : إما تعرض عنهم خجلاً وحياءً أن تواجههم ، وليس

(١) سبب نزول الآية : قال زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن
يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فيفسد ، فكان يعرض عنهم ونية في الأجر في
منهم لئلا يمينهم على فسادهم . ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٢٩٧٦) .

عندك ما يسد حاجتهم ، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أن يرحمك
رحمة تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ﴾ (٢٨)

[الإسراء]

كما قال في موضع آخر في مثل هذا الموقف : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ
وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. ﴾ (٢٦٢)

[البقرة]

فحتى في حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ،
ولا يجرح مشاعر السائل ، وأن يردّه بلين ورفق ، وأن يظهر له
الحياء والضجل ، ولا يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه
بأن جعله مستولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة في مثل هذا الموقف لا يكفي
فيها أن تقول : ما عندى ، فقد يتهمك السائل بالتعالى عليه ، أو بعدم
الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانية
والأريحية للنفس البشرية التي تسعو بصاحبيها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيماني في قوله تعالى عن أصحاب الأعداء
في الجهاد : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (٩٦) [التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة^(١) الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

(١) قال محمد بن كعب القرظي : كانوا : سالم بن عوف ، حرمي بن عمرو ، عبد الرحمن بن
كعب أبو ليلى ، فضل الله من بني النمل ، عمرو بن عثمان ، عبد الله بن عمرو المزني .
جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليدعهم بالعدة والعتاد ليخرجوا في سبيل الله فقال لهم : ﴿ لَا أَجِدُ
مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴾ (٩٦) [التوبة] . فأنزل الله عزهم في كتابه فقال : ﴿ تَبَيَّنَ عَلَى الْعُفَّاءِ وَلَا
عَلَى الْمَرْحُومِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩٧) [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرفه ، فإذا يرسل الله ﷻ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَكَّلُوا وَأَعِينُهُمْ يَقْضَىٰ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (٩٢) [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمر بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقل من الانفعال العاطفي المعبر عن حقيقة الإيمان الذي يفيض دمع الحزن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٩١)

تحدث الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة عن المبدرين ، وحذرتنا من هذه الصفة ، وفي هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة .

فقرله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ (٩١) [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم في المنح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندي ، وله على أياد لا تُعد ، أى : أن نعمه على كثيرة ؛ لأنها عادة تؤدي باليد ، فقال : لا تجعل يدك التي بها العطاء (مغلولة) أى : مربوطة

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

﴿٨٤٨١﴾

إلى عنقك . وحين تُقَيِّدَ اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق . فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٦٩)﴾ [الإسراء]

فالنهي هنا عن كل البَسْط ، إذن : فيُبَاح بعض البَسْط ، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بذّر ومعنى بذّر الذى سبق الحديث عنه .

فبِذْر : أخذ حفنة من الحب ، وبَسَطَ بها يده مرة واحدة ، فأحدث كومة من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهى عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة فى عملية البَذْر فيأخذ حفنة الحب ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذى يسمح بتقلت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بِذَرًا] .

وهذا هو حد الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم . وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقد أتى هذا المعنى أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾

[الفرقان]

أى : اعتدال وتوسط .

إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتتفق كل ما لديك ، ولكن بعض البَسْط الذى يَبْقَى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أن ترتقى بحياتك .

وقد سبق أن أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق ،
وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يثرى حركة الحياة ، ويسهم في إنمائها
ورقيها ، على خلاف القُبْض والإمساك ، فإنه يُعْرِقِل حركة الحياة ،
وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ،
ويعوق حركتها .

إذن : لا بدّ من الإنفاق لكي تساهم في سير عجلة الحياة ، ولا بدّ
أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبْقَى على شيء من دُخْلك ، تستطيع أن
ترتقي به ، وترفع من مستواك المادى في دنيا الناس .

فالمبذر والمُسْرِف تجده في مكانه ، لا يتقدم في الحياة خطوة
واحدة ، كيف وهو لا يُبْقَى على شيء ؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم
نضمن سلامة الحركة في الحياة ، ونؤمّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء
الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿ فَتَقَعْدَ مَلُومًا
مُخْشَرًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

وسبق أن أوضحنا أن وضعّ القعود يدلّ على عدم القدرة على
القيام ومواجهة الحياة ، وهو وضعّ يناسب مَنْ أسرف حتى لم يعد
لديه شيء .

وكلمة ﴿ فَتَقَعْدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة
تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَعْرِى
الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : اتى بفعل يَلَامُ عليه ، ويُؤْتَب من أجله ، وأول مَنْ يُلوم المفسرف أولاده وأهلك ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما مَلُوم لتصرفه غير المعتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صرّت فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بغير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المفسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعيائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فَإِنْ قَبِضْتَ كُلَّ الْقَبْضِ فَأَنْتَ مَلُومٌ ، وَإِنْ بَسَطْتَ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَحْسُورًا عَنْ طُمُوحَاتِ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَقْرَى عَلَيْهَا .

إِذَنْ : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عقباه فى حياة الفرد والمجتمع . إِذَنْ : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٦٧) [الفرقان]

قالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْرِ عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسْط ، بل تُبْقِ من دخلك على شيء لتحقيق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تَمْسِك وتُقتِر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُساهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۖ ۝ (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو أعطى سبحانه جميع خلقه كل ما يريدون ما نقص ذلك من ملكه سبحانه ، كما قال في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيتكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كل مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبره أحدكم إذا غمسه في البحر ، ذلك أني جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » ^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

الله الذي لا تنفذ خزائنه يعطي خلقه بقدر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، ولا يقبضه عنهم كل القبض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أن يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة .

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي زر رضى الله عنه وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥ ، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (١٢٥٧) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٤٨٥﴾

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمَعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخلق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة في مجال ، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبر به على الناس يُحَوِّجُه الله لأقل المهن التي يستتكمف أن يصنعها ، ولا بُدَّ له منها لكي يزاوِل حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أن يتفضل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة الله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسم له في الحاليتين ، وأن يسير في حركة حياته سيراً يناسب ما قدره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۖ ﴾ (٧) [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّقَ عليه الرزق فلينفق على قدره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تتضمن للإنسان الراحة في الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ؛ لأن الذي يُتَعَب الناس في الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّقَ عليه في الرزق يريد أن

يعيش عيشة الموسع عليه رزقه ، ويتطلع إلى ما فضل الله به غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين في عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :

الاول : غنى وفى سعة من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما ، فعلى الفقير ألا ينظر إلى وضعه الوظيفي ، بل إلى وضعه ومستواه المادى ، فيشتري بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله : لأن لكل منهما قدرة وإمكانية يجب ألا يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرف الإيماني المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويرضى بما قسمه له ويعيش فى نطاقه غير متمرّد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدرى فيك فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويوسع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشاهد لنا فى الحياة ، والامثلة عليه واضحة ، فكم من أناس كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قسمه الله ارتقت حياتهم وتبدل حالهم إلى سعة وترك .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسان نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله فى الأرض ، ويسير فى حركة الحياة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

سُورَةُ الْاِنْتِزَارِ

﴿٨٤٨٧﴾

لمن استخلفك ، مَعْدُودٌ مَعْنُ أَمَدُكَ ، فإياك أَنْ تَغِيثَ . وإياك أَنْ تَعِيشَ
في مستوى فوق المستوى الذي قَدَّرَهُ اللهُ لَكَ .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكونُ كله ؛ لأن الله تعالى جعل
الدنيا أغياراً وجعلها دُولاً ، فالذي وَسَّعَ عليه اليوم قد يُضَيِّقُ عليه
غداً ، والذي ضَيَّقَ عليه اليوم قد يُوَسِّعُ عليه غداً .

وهذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِهِ لِيَدْرَكَ فِي الْإِنْسَانِ غُرُورُ
الاستغناء عن الله .

فلو مَتَّعَ اللهُ الْإِنْسَانَ بِالْغِنَى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب
ارزقني ، ولو مَتَّعَهُ بِالصَّحَةِ دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب
اشفني ، لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعم سبحانه محتاجاً إليه
داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَن رَّآهُ اسْتَفْتَى﴾ (٧) ﴿[الشود]

فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه ، وتوصله به سبحانه .

فالبُسْطُ والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق
كل البسط ، فيعطيهما كُلُّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض
فيحرمهم ويُرِيهم ما يكرهون ، بل يعطي بحساب وبقدر ؛ لتستقيم
حركة الحياة ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ..﴾ (٢٧) ﴿[الشورى]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٢٠) ﴿[الإسراء]

لأن الحق سبحانه لو لم يوزع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ
ميزان العالم ، فَمَنْ بَسِطَ لَهُ يَسْتَفْنِي عَنْ غَيْرِهِ فَيَمَّا بَسِطَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ

ضَيَّقَ عَلَيْهِ يَتَمَرَّدُ عَلَى الْكَوْنِ وَيَحْقِدُ عَلَى النَّاسِ ، وَيَحْسُدُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ .
إِنَّمَا إِذَا تَعْلَمَ الْجَمِيعُ أَنَّ هَذَا بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ لَسَوْفَ يَظَلُّ الْكَوْنُ
الْمَخْلُوقُ مُوَصُولًا بِالْمُكُونِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ .

وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. ﴾ (٣٥) [الإسراء]

مُلِمَحٌ لَطِيفٌ : أَيُّ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ
بَسَطَ لَكَ حَتَّى صِرْتَ تَعْطَى عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ ، وَقَبِضَ عَنْكَ
حَتَّى تَرْتَبِطَ الْحَجَرُ عَلَى بَطْنِكَ مِنَ الْجُوعِ^(١) .

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ﷺ فَلَا يَسْتَنْكَفُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الرِّزْقَ ، وَمَنْ مَنَّا رَبطَ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ ١٢

وَبَعْدَ أَنْ حَدَّثَنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْحَيَاةِ وَهُوَ
الْعَمَلُ ، وَرَسْمٌ لَنَا الْمُنْهَجُ الَّذِي تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ بِهِ وَيَسِيرُ الْإِنْسَانُ بِهِ
سَيْرًا يُحَقِّقُ لَهُ الْعَيْشَ الْكَرِيمَ وَالْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ ، وَيُضْمِنُ لَهُ الْارْتِقَاءَاتِ
وَالطَّمُوحَاتِ الَّتِي يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا .

أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُحَدِّثَنَا عَنِ الْحَيَاةِ فِي أَصْلِهَا ، فَاْمَرٌ بِاسْتِيقَاءِ
النَّسْلِ ، وَنَهْيٌ عَنِ قَتْلِهِ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَنَّ نَرْزُقْهُمْ وَإِيَّاكُمْ^(٢)

إِنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١)

(١) وَقَدْ كَانَ هَذَا دَأْبَ بَعْضِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مِثْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ (الْبُخَارِيُّ ٦٤٥٢) ،

وَأَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ (أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٤٤ / ٣) .

(٢) الْإِمْلَاقُ : الْفَقْرُ - وَالْإِمْلَاقُ : كَثْرَةُ انْفِسَاقِ الْمَالِ وَتَبْذِيرِهِ حَتَّى يَبُورَ حَاجَةٌ . وَالْمُنْتَحِنُ : الَّذِي
لَا شَيْءَ لَهُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - عَادَةُ : مُلَقَّ] .

وواضحُ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أَنْ تُدْخِلُوا مسألة الرزق في حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفل برزق الجميع ، فإياك أَنْ تستدعي اختصاصك ، وتُدْخِلْ أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ﴾ (٢١) [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْقٌ يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْضِ البنية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنساناً إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهى حياته ، لكن تنتهى بنَقْضِ البنية التي بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقت الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنْقَضُ بنيته بعد ذلك . وتتلف أعضاؤه ، فالموت يتم في سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بللمبة الكهرباء التي لا تُقضى ، إلا إذا توافرت لها مواصفات خاصة : من مُؤَلَّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصَّل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضت شيئاً أساسياً فى عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّبَ واحد رصاصة مثلاً فى قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضت عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح فى جسده بدونها .

لذلك ليس فى الشرع عقوبة على الموت - ونقصد به هنا الموت الطبيعى الذى يبدأ بخروج الروح من الجسد - لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبى ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هى بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو مُلك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حُرِّمَ الإسلام الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟!

إذن : المنهى عنه فى الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ .. ﴾ (١١١) ﴿

[آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بنية إنسان آخر وهدم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلَادَكُمْ .. ﴾ (٢١) ﴿ [الأنعام]

الاولاد تُطلق على الذكر والانثى ، ولكن المشهور فى استقصاء

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٨٤٩﴾

التاريخ أنهم كانوا يتكدون البنات خاصة دون الذكور ، وفي القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير]

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عوناً وعدة في مُعْتَرَك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يرون فيهم العزوة والامتداد . في حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة في ظل الفقر والعوز والحاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غنى إلى شيء من المكروه في عرضها ، وبهذا الفهم يؤول المسعى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

أى : خوفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من مَلَقَ وتمَلَّقَ ، وكلها تعود إلى الافتقار : لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملِّقه ليأخذ منه حاجته^(١) .

وقوله : ﴿نُحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

وفي هذه الآية مكمح لطيف يجب التنبيه إليه وفهمه لنتمكن من الرد على أعداء القرآن الذين يتهمون بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

(١) من معاني المَلَق : الزيادة في التودد والدعاء والتضرع لوق ما ينبغي ، ورجل مَلَقَ : يعطى بلسانه ما ليس في قلبه . وفي الحديث : « ليس من خلق المؤمن المَلَق » . [لسان العرب - مادة : ملق] . وقد أورده المعنى الهندي في كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعزاه لابن عدى في الكامل والبيهقي في الشعب عن معاذ وأنظر الفردوس بماثور الخطاب للنيلمي (٥٦٥٨) .

أى : خَوْفًا من الفقر ، فالفقر - إذن - لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُحْتَمَل
الحدوث فى مستقبل الأيام ، فالرِّزْق موجود وميسور ، فالذى يقتل
أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى
المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ ۖ ۞ ﴾ [الإسراء]
أولاً : لأن المولود يُولد ويؤكّد معه رزقه ، فلا تنشغلوا بهذه
المسألة ؛ لأنها ليست من اختصاصكم .

ثم : ﴿ وَإِيَّاكُمْ ۖ ۞ ﴾ [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الابناء مُقَدَّم على رزقكم أنتم . ويمكن أن
يُفْهَم المعنى على أنه : لا تقتلوا أولادكم خَوْفًا من الفقر ، فنحن
نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة : لأن أعداء الدين الذين يُنْقِبُونَ فى
القرآن عن مأخذ يروّون تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التى معنا
وبين آية أخرى تقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ ۖ ۞ ﴾ [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملكة العربية
فى فهمه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ
يحتاج فى فهمه وتدبره إلى ذوق وحس لغوى .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالا سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً
ولا تكراراً ، فليست الاولى أبلغ من الثانية ، ولا الثانية أبلغ من
الاولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإن تشابهتا فى

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٨٤٩﴾

النظرة العَجَلَى لكنَّ بينهما فَرْقٌ فى المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول :
﴿لَنَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما فى آية الأنعام : ﴿لَنَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

فلا بُدَّ أن نلاحظ أن للآية صدرًا وَعَجَزًا ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع فى فهم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجَزَى الآيتين ، وأغفلوا صَدْرِيهما ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنَّ صَدْرَى الآيتين مختلفان :

الاولى : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

والاخرى : ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

والفرق واضح بين التعبيرين : فالاول : الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتَوَقَّع فى المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

أما التعبير الثانى : ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أن يُقَدَّمَ الآباء فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصدر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجَزُ ، فأَيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبِلَ بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتُبَكُمْ . والمقصود أن يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإن قال قائل : إن الآية تنهى أن يقتل الأب ولده خوفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أن يقتل الأب ولد غيره مجاملة له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنى الآية ألا يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قلنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم : لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ قَاتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣٢)﴾ [الإسراء]

خِطْئًا مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذُوا حِذْرَكُمْ ، وخُذُوا حِذْرَكُمْ .

وكلمة : ﴿خِطْئًا .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفت الصواب ، ولكنك تجاوزته .

فالمعلم حينما يُصَوِّبُ للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصَوِّبُ له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه القاعدة التي يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ .

ومنا لا مانع أن نُصَوِّبَ له خَطَأَهُ ونُرشده ؛ لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إن كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام ، فالمعلم يبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التي تُحسب على التلميذ ، وتنتهي المسألة بالنجاح لمن أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُكرَّمة ، عليه أن يسيرَ عليها .

وكلمة (خَطُئاً أو خطياً) مأخوذة من خطأ خطوة^(١) ، وتعني الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استقرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزته وانتقلت عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أي : الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ ۞ (١٦٨) ﴾ [البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله .

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطأ فهو فعل ممتل الآخر بالف متقلبة

عن وار . ولذلك يأتي المضارع من الأول (يخطئ) - أما الثاني فيأتي (يخطو) .

(٢) قال الأزهري في المعقل في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ ۞ (١٦٨) ﴾ [البقرة] :

قرأ بعضهم خطوات الشيطان من الخطيئة : النائم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من

قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب - مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرمه ليكون خليفة له في الأرض ليعمرها ، ويطعم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تحدثه من قتل الأولاد ، وهم بدور الحياة في المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أولادكم) المراد بها البنون دون البنات ، وسلمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقي على الذكور ، فما الحال إذا كبر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟ وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟

إذن : هذا لهم لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خَطَاً كَبِيراً ﴾ (٣١) [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب متعددة :

أولها : أنك بالقتل هدمت بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيت على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .

ثالثها : أنك تعديت على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض منك ، وقتله يُجردك من كل معاني الأبوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

خلافة الإنسان لله في أرضه ، بأن نهى كل والد أن يقتل ولده ، ونهى كل الآباء أن يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

بعد أن تحدث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله في الأرض ، أراد سبحانه أن يحمي هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منا حينما يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً ، ويؤثره على نفسه ، ويخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده ، ويسعى جاهداً ليوفر له رفاهية العيش ، ويؤمن له المستقبل المرضي ، وصدق الشاعر حين قال :

إنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عيني عن الغمض

لكن هذا النظام التكافلي الذي جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دبّ الشك إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه ، فتتحول حياته إلى جحيم لا يُطاق ، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طعن في ذاته هو .

لذلك يُحذّرنا الحق - تبارك وتعالى - من هذه الجريمة النكراء :

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ ۖ ۞ (٣٢) ﴾ [الإسراء]

والمعامل في أي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يكلمنا عن الأوامر يذيل الأمر بقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا ۖ ۞ (٣٢٩) ﴾ [البقرة]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكانه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والمنوع أن نتعدها .

وأما في النواهي ، فيذيلها بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۖ ۞ (٣٨٧) ﴾ [البقرة]

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكان الحق سبحانه يريد ألا نصل إلى الحد المعنى عنه ، وأن يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظل على بُعد من النواهي ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقترّب من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبي ﷺ : « من حمام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »^(١) .

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع في التشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » ، متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث الثعلبان ابن بشير .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أن يقترب من المحذور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفرق بين الفعل وقربان الفعل ، فالمحرم المحذور هنا هو الفعل نفسه ، فلماذا إذن حرم الله الاقتراب أيضاً ، وحذر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أن يرحم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإن حمت حولها توشتك أن تقع فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلم لك .

وحيثما تكلم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيت به وردة جميلة ، فلحظة أن نظرت إليها هذا يسمى « الإدراك » ؛ لأنك أدركت وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حبها فهذا يسمى « الوجدان » أي : الانفعال الداخلي لما رأيت ، فإذا حددت يدك لتقطفها لهذا « نزوع » أي : عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكم الشرع ؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » ، فلا يمكن فيها فصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهي

مراحل ملتحة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفصل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تولد إعجاباً وميلاً ، ثم عشقاً وغريزة عنيفة تدعوه أن تمتد يده ، ويتولد النزوع الذي نخافه ، وهنا إما أن ينزع ويلبى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أن يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خلقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يحرم الزنا بحسب ، بل حرم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا^(١) مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ (٢٠) [النور]

لأنك لو أدركت لوجدت ، ولو وجدت لسنعت ، فإن أخذت حظك من النزوع أفسدت أعراض الناس ، وإن عففت عشت مكبوتاً تعاني عشقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أن تغض بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيفش الإنسان نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سئل ادعى البراءة وحسن الخية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم في هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

(١) غض بصره : خفضه ولم يرفعه ولم يحقق فيما أمامه ، أو كمن بصره ولم ينظره . [القاموس القويم ٥٦/٢] .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

﴿٨٥﴾

وأعلم بحاله ، وما أمره بغضُ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو عليه نفسه .

لذلك قال ﷺ : « الخطرة بسهم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » ^(١) .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَى..﴾

[الإسراء]

﴿٣٧﴾

ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها ، فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها ! لأن مَنْ حَامَ حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعَا مَمْنُ يُنادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما علاّ ومهما كَثُرَ أتباعه فلن يَكُنْ حقاً في يوم من الأيام .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه ، وهو ابن خالتها ، وهما تربياً في بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تُغَيِّرُ من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفي الحديث النبوي : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ^(٢) .

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢١٤/٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه . وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي في تلخيصه : « إسحاق وإيه ، وعبد الرحمن بن الواسطي تصفه » .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١١٤/١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين . وأشار إليه الترمذي في سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥) . وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

إذن : ما حَرَّمَ الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حَرَّمَ الخُلوة في ذاتها ولكن حَرَّمهما : لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ.. (٣٢)﴾ [الإسراء] أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيهما أبلغ وأشدّ في التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهَى عن الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعني : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها في أي مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب - إذن - أشدّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَدُّوهُا.. (١٧)﴾ [الزمر]

فهل نقول في هذه : إن الاجتناب أقل من التحريم ؟ وهل عبادة الطَّاغُوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً.. (٣٢)﴾ [الإسراء]

الفاحشة : هي الشيء الذي اشتدَّ قبحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة ؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والانثى ، وقدر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدرَ لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلة لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيها من يأتيها ؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمي طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التي يلتقى عليها الزوجان عقد القران الذي يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهب أن لك بنتاً بلغت سن الزواج ، وعلمت أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شك أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرضت لهذا الشاب ، وأقمت الدنيا ولم تقعدما .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابك ، وتقدم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترحاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذي حدث ؟ وما الذي تغير ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : « جُدع الحلال آنف الغيرة » .

فالذي يغارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة : زوجتك . ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب برّداً وسلاماً ، وتُحدث فيها انبساطاً وانسراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان ، ولها أثر في انسجام ذراته ، وفي كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التي يلتقي عليها الزوجان ، أنها تُحدث سيالاً بينهما ، هو سيال الاستقبال الحسن ، وعدم الضجر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عدة المتوفى عنها زوجها ، وفي هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يؤثر فيها .

ولو كانت الحكمة من عدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحيضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودت المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقت المرأة فلا يحلُّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التي حددها الشرع بثلاثة أشهر^(١) ، وهي المدة التي يهدأ فيها سيال الحلال في نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزواج آخر .

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة ، وهي المدة التي يصح للزوج المطلق أن يراجع زوجته خلالها ، وهي أيضاً المدة التي إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَفَعْنَ بِلَهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ۚ ﴾ [البقرة] . أي : ثلاث حيضات .

أما في حالة المتوفى عنها زوجها فحدثها أربعة أشهر وعشرة^(١) ،
والحكمة من الفارق بين السعدتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين
الزوجين كُرهُ ، هذا الكُرهُ بينهما يساعد على موت السيال ؛ لأنها
بطبيعة الحال تافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفى عنها زوجها فقد
فارقها دون كُرهِ ، فرغبتها فيه أشد ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول
للتخلص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعى طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف
الميل والرغبة في زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميل وهذه الرغبة
تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً
للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجه مسألة لا يحدث الانسجام
فيها بالتكوين العقلي ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفي الغريزي
الذي يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذي يُؤدِّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث
التوافق ، ويحدث الحب والعشق الذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله .
وهذا - كما قلنا - أثر من آثار كلمة الله التي اجتمعا عليها وتحت
ظلها .

وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي ، ويسكن كل منهما
للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتكلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ،

(١) أما عدة الأرملة التي مدت زوجها ، فيقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْتَدُّونَ مِنْكُمْ وَيَتَزَوَّجُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْ بَنَاهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِمَا كُنَّ يُرِيدْنَ﴾ .. (٢٢٥)

وصدق رسول الله ﷺ حين قال في وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »^(١)

وهذه الكلمة من الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه ، ولك أن تتصور الحال إن تم هذا اللقاء فيما حرم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذوات وعدم انسجام ونكد ومرارة لا تنتهي ، ما بقيت فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سماه القرآن فاحشة ، والدليل على فحشه أن الموصوم به يحب ألا يعرف ، وإن تظل جرائمه خلصة من المجتمع ، وأن الذي يقتوف هذه الفاحشة يكره أن تفعل في مجارمه ، ويكفيها فحشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكى ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حسب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى في جواب رسول الله ﷺ ، وقد سئل كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها »^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله عن حديث طويل وفيه : « فأتوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) من عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

وقال لآخر : « أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بَوَّحَ طَلَّقَ »^(١)

وقال لآخر : « أَنْ تَبْرَأَ أَخَاكَ » .

وهكذا تعددت الإجابات ، لأن النبي ﷺ لا يصف مريضاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطى لكل سائل الجرعة التي تُصلح خللاً في إيمانه ، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التجاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذي جاءه يقول : يا رسول الله إننى أصلى وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أننى لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب في وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإن تكبرت عليه استفحل واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه : لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً في نفسه ، وانظر كيف عالجه النبي ﷺ :

(١) عن أبي ذر رضى الله عنه قال قال لى النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، وإن أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٥) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أحب هذا لامك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغير وجهه وقال : لا يا رسول الله جعلتُ فداك ، فقال : « أحببه لأختك ؟ أحببه لزوجتك ؟ أحببه لبناتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جعلتُ فداك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدره هذا الشاب ودعا له : « اللهم ثق صدره ، وحصن فرجه » ^(١) .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكره عندي من الزنا ، والله ما هممتُ بشيء من ذلك إلا وذكرتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مرًا لا يستسيقه المريض غلّفوه بمادة سكرية حتى يمر من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التي يمر بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله في خلق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلقات دقيقة يختص كل منها بتذوق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحريف ، وهكذا ، مع أنها مترابطة وملتصقة بعضها ببعض .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٥ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (١٩٠/٨ ،

٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر

لنبيه ، وظهر قلبه ، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسي المر ، كذلك يحدث في
العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغْلَفُ الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى
ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثَقِيل ، فاستعبروا له خِفَّةَ البيان :

وقالوا : الحقائق مُرَّة ، فلا ترسلوها جَبَلًا ، ولا تجعلوها جَدَلًا .

وعلى الناصح أن يراعى حال المتصوح ، وأن يرفقَ به ، فلا
يجتمع عليه قسوة الحرمان مما أُلِفَ مع قسوة النصيحة . وقد وضع
لنا الحق سبحانه المنهج الدعوى الذى يجب أن نسير عليه فى قوله
تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ ۖ ﴾ [النحل]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذى تعلَّمناه من النبي ﷺ أن تكون
سِرًّا ، فليس من مصلحة أحد أن تُذَاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً
فى حياة المجتمع كله وفى المتصوح نفسه ، فإن سَتَرْتَ عليه فى
نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نَصَحَ
أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ سَتَرَهُ وَزَكَّاهُ ، وَمَنْ نَصَحَهُ جَهْرًا فَقَدْ قَضَاهُ وَشَكَّاهُ ^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتَخْلِفُونَ
فى الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعى فيها بما يُسعدنا جميعاً ،
ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرفَ عَمَّا رَسَمَهُ
له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها يدل أن يُسعدنا .

واعتقد أن ما نشاهده الآن فى بيئات الانحلال والانحراف ،

(١) الشين : السبب ، والمشايخ : المعايير والمقاييس ، [لسان العرب - مادة : شين] .

وما امتدّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفريع والرعب يجعلنا نؤمن بأن
الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضى على سلامة
المجتمع وأمنه وسعادته .

ويكفى أنك إذا خرجت من بيتك في مهمة تستلزم العبث تأخذ
جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذي
يطاردك في كل مكان ، في الحجرة التي تدخلها ، وفي السرير الذي
تنام عليه ، وفي دورة المياه التي تستعملها ، الجميع في رُعب وفي
هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم ، وأصبح لا يسلم منه
حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجة لخروج الإنسان عن منهج الله
خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابط لها ، فأحدث الله لهم من
الأمراض والبلايا بقدر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتوا
بالحسنى فليأتوا راغمين مُقْرَعِينَ .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفة وطهارة ، لا عن إيمان
بشرع الله ، ولكن عن خَوْفٍ وهَلَعٍ من أمراض شتى لا ترحم ،
ولا تفرّق بين واحد وآخر .

إنّ : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وما هي الأحداث والوقائع تثبت
صدق هذه الآية ، وتثبت أنّ أيّ خروج من الخلق عن منهج الخالق لن
يكون وراءه إلا تكّد الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة .

والآن وقد ضمنا سلامة الاعراض ، وضمنا طهارة النسل ،
وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأمن فيه الإنسان على هذا

الجانب ، فلا بد إذن أن نحافظ فيه على الأرواح ، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء]

كان القياس أن يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التي حرم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قتل النفس الواحدة مسئولية الجميع ، لا أن يسأل القاتل عن النفس التي قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] أى : جعلها محرمة لا يجوز التعدى عليها ؛ لأنها بنيان الله وخلقه وصناعته ، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : ﴿ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] أى : حرم الله قتلها .

﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴾ (٣٣) [الإسراء] وهذا استثناء من الحكم السابق الذى قال : لا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

- القصص من القاتل .

- الردة عن الإسلام .

- زِنَاَ الْمُحْصَنَاتِ أَوْ الْمُحْصَنَاتِ^(١) .

وهذه أسباب ثلاثة تُرْجَب قَتْلُ الْإِنْسَانِ ، والقَتْلُ هنا يكون بالحق
أى : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَجَّةً كبيرة حول هذه الحدود وغيرها ،
واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتْهم أن هذه الحدود تتنافى
وانسانية الإنسان وأدميته ، وتتعارض مع الحرية الدينية التى يقول
بها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]
ففى القصاص قالوا : لقد خَسِرَ المجتمع واحداً بالقتل ، فكيف
تُزِيد من خسارته بقتل الآخر ؟

نقول : لا بُدَّ أن نستقبلَ أحكامَ الله بفهمٍ وَاَعٍ ونظرة متاملة ،
فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألا يقع
القتل ، وألا تحدث هذه الجريمة من البداية .

فحين يُخْبِرُكَ الحق سبحانه أنك إن قُتِلْتَ فسوف تُقْتَلُ ، فهو
يحمى حياتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ،
حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها مَنْ قُتِلَ ؛
لأنه ربما خدش عِزُّهُ أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شك أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول له : إن قُتِلْتَ
ستُقتل ، فنحن نمنعه أن يُقدم على هذه الجريمة ، ونُلَوِّح له بأقصى
ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ .

(١) أحسن الرجل وأحصنت المرأة : تزوجا ، وكان الزواج حصن يحمى المبتزج من الوقوع
فى الشهوات فهو مُحْصَن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٩)

[البقرة]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظن البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحقن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظةٌ استقبالية لأحكام الله : لأن القاتل بما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حمى غيرى من قتلٍ له حماني أيضاً من قتلٍ غيرى لي ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وكذلك في السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فانت ترى أن هذا الأمر قد قيد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك . والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد : لأنها تقيد حريته وهو فرد واحد ، وتقيد من أجله حرية المجتمع كله .

وفي الزكاة ، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أن تخرج قدراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تقل : هذا مالي جمعتُه بجهدِي وعرقِي . ونقول لك : نعم هو مالك . ولكن لا تنسَ أن الأيام دُولٌ وأغيار ، والغنى اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويكيل لك بنفس الكيل الذي كُلتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وعى في استقبالية الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ،

وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما نأخذ مِنَّا فهي أحكام عادلة .

وحُكْمُ القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أن يُقدم على القتل ، فإن غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصر منه ؛ فإن أخذتنا الشهامة وتشدقنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكن معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكل مَنْ اختلف مع إنسان سارع إلى قتله ؛ لأنه لا يوجد رادع يُردعه عن القتل .

إذن : لكي نمنع القتل لابد أن نُنفذَ حكم الله ونقيم شرعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلت لتكون كلاماً يُتلى فقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظم حياتنا ، ويحمي سلامة مجتمعنا .

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرَأَى وَمَسْمَعِ المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ما هي تُطبق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) [النور]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حدِّ الرِّدَّة ، وراوا فيه وحشية وكِبَتْاً للحرية الدينية التي كفلها الإسلام في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حدَّ الرِّدَّة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعَّب على غير المسلمين الدخول في الإسلام ، وأن يُضيق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل في الإسلام إلا مَنْ أخلص

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٥١٥

له . واطمأن قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إن تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحَسَّبُ للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقَدِّم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أن تظل على دينك كما تحب ، فإن أردت الإسلام فتفكر جيداً وتدبر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس في دين الله مجالٌ للتجربة ، إن أعجبتك تظل في ساحته ، وإن لم يرقَّ لك تخرج منه ، فإن علمت هذه الشروط فليس لك أن تعترض على حد الردة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزُّ وأكرم من أن يستجدي أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٢) ﴾ [الاسراء]

وهذا حكم نفى ، المفروض ألا يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُومًا ﴾ أى : قُتِلَ دون سبب من الاسباب الثلاثة السابقة أى : دون حق ، فعلى فَرَضِ أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِرُؤُوسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ..

(٣٣) ﴾ [الاسراء]

وليه : أى وليّ المقتول ، وهو مَنْ يتولَّى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم .. الخ فهو الذى يتولَّى أمر المطالبة بدمه .

﴿سُلْطَانًا .. (٢٢)﴾ [الإسراء] أى : شرعنا له ، وأعطيناه الحق والقوة فى أن يقتل القاتل ، والسلطان يكون فى خدمة التنفيذ ، ويُمكنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه فى تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه فى ذات النفس ، لكن إنْ ضَعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتى دور السلطان ودور المجتمع الإيماني الذي يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لوليِّ الدم ، فإن لم يكن له وليٌّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليمتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعب الدنيا - حينما ينتقل حق القصاص إلى الحاكم العام - طول الإجراءات التي تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذكي نار الحقد والغِلِّ والثَّرة فى نفس وليِّ الدم .

فسوليُّ الدم وحده الذي يُعاني طول فترة التقاضي مع أناس لا يعينهم أن تطول هذه الفترة أو تقصر ؛ لأن طول فترة التقاضي تأتي فى صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام - بل والسنتين - تبرد شراسة الجريمة فى نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيِّات النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسى بشاعتها ، وبدل أن يقف المجتمع ويفكر فى القاتل وفى القصاص منه ، تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التي ستقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا فى إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أن يُقام القصاص قبل أن تبرد شراسة الجريمة فى النفوس ، وتبهت وتفقده حرارتها -

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله في يد وليّ الدم ، أراد في الوقت نفسه ألا يحرم المجتمع من طموحات العفو الذي يُنهي أصول الخلاف ، فيقول تعالى : ﴿لَمَنْ عُلِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففي جَوِّ القتل وثورة الدماء التي تغلي بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والاخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولولى الدم بعد أن أعطيناه حَقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية^(١) وتنتهي المسألة ، وله أن يعفو عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فأعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذلّة التسلّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حَقَّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه عكَم القاتل أن حياته أصبحت هبة من وليّ الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والاحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، وتنتهي تسلسل الثارات الذي لا ينتهي .

وقد اشتهر في صعيد مصر - وكان مثالا للأخذ بالثأر - أن القاتل يأخذ كفه في يده ، ويذهب به إلى وليّ الدم ويُسلم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولى الدم جزية التصرف فيه . فما يكون من وليّ الدم أمام هذا الاستسلام إلا أن يعفو ويصفح ، وبذلك تُقْتَلَع الضغائن من جذورها .

(١) الدية : هي المال الذي يجب بسبب الجناية . وتؤدّى إلى المجنى عليه أو وليه . والدية تكون مغلطة وسخيفة ، فالمغلطة تجب في قتل الخطأ ، والمغلطة تجب في شبه المعد . [فقه السنة ٢٧/٢ - ٤٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۚ ﴾ [الإسراء]

أى : طالما أن الله أعطاك حقَّ القصاص فليكنَّ القصاص بقدره دون زيادة أو تعدُّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف فى القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذى شأن فى قومه ، فلا يرضى ولىُّ الدم بقتله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذى مكانة وذى شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف فى القتل ، وهو [إسرافٌ فى ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف فى الكَمِّ ، فإنَّ قَتْلَ واحدٍ فلا يكتفى ولىُّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغلَّ وثورة الدم إلى أن يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنَّ يُمَثَّلَ بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبىُّ ﷺ أن يفعلها فى قاتل حمزة ، فنهأه الله عن ذلك ^(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۚ ﴾ [الإسراء]

أى : لا يجوز له أن يُسْرِفَ فى القتل : لأننا لم نتخلَّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقَّ القصاص ومكناؤه منه ، إذن : فهو منصور

(١) حين قُتِلَ حمزة ومثَّلَ به فى أحد قال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرنى الله عليهم لأمتن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لسنمتن بهم مئة لم يمتلأ أحد من العرب بأحد قط ، فانزل الله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ لَعَاقِبُوا بِبَلَاءٍ مِّمَّا عَوَفَيْتُمْ بِهِ وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ غَيْرَ الْصَّابِرِينَ ﴾ [النمل] .

ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حدِّ النُصْرَةِ لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ^(١) ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۖ ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. ﴾ (٣٤) [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرننا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدي عليه ؛ لأن اليَتْمَ مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أن تجترى عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغ الرجال وهو سنُّ الرُّشد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أن يرى غيره من الاولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدر الذي حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أن يستل من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يوصي المجتمع به ليشعر أنه وإن فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفي حنوتهم وعطفهم عوض له عن وفاة والده .

(١) حتى يبلغ أشده : أي يبلغ السن التي تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٢٤٣/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤَسَّ منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة . قال أبو إسحاق : نست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أدرك قبل ثمانى عشرة سنة وقد أوتس منه الرشد فطلب دفع مساله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب - مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسان أن اليتيم مُكْرَمٌ في مجتمع إيماني يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزعُه أحداث الحياة في نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّرَ له أنْ يُيْتَمَ أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيماني .

إذن : إنْ وجد اليتيم في المجتمع عَوْضاً عن أبيه عَطْفًا وحنانًا ورعاية يرضى بما قُدِّرَ له ، ولا يتأبى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّرَ عليها اليَتَمُ في أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [الإسراء]

أى : لا تنتهز يَتَمَ اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع لى ماله ، وتأخذه دون وجه حق ،

وقوله : ﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ...﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتى هى أحسن .

و ﴿أَحْسَنُ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة فى الإحسان ، فكان لدينا صفتين معدوحتين : حسنة وأحسن ، وكان المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدي عليه . لكن الأحسن : أن تُنمى له هذا المال وتُثمره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهلاً للتصرف فيه .

لذلك فالحق سبحانه خسينما تكلم عن هذه المسألة قال :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ٥﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنْقَصُها ، لكن معنى :
﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ٥﴾ [النساء] أى : من ريعها وربحها ، وليس من
رأس المال .

والأ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ،
وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف
ينتهى هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرشد فلا يجد من ماله شيئاً
يُعْتَدُّ به .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول : حَقُّقُوا الْحَسَنَ أَوَّلًا
بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قَدِّمُوا الْأَحْسَنَ بِتَنْمِيَّتِهِ لَهُ وَزِيَادَتِهِ
زيادة تتسع لنفقات حياته ، والأ فسوف يشبَّ الصغير ، وليس أمامه
من ماله شيء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يحرم اليتيم من خبرة أصحاب
الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء
مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَالٌ يَعْمَلُ فِيهِ ، فليعمل في مال اليتيم ويديره له
وَيُنْمِيَهُ ، وليأكل منه بالمعروف ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ
لَا يَحِلُّ لَهُ ، يقول تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا
فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ .. ٦﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديه صلاحية
فلا تُعْطَلُ هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر تَفَقُّهًا

صاحب الخبرة الذى لا يجد مالا ، ونفقة اليتيم الذى لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل فى المجتمع الإيمانى .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ ۝٣٤ ﴾ [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هذه الصفة كافية لكى تُعطى لليتيم ماله وقد بلغ سنَّ الرُّشد والتكليف ؟

فى الحقيقة أن هذه الصفة غير كافية لنُسلَّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنِّه سَفِيهاً لا يُحسِن التصرف ، فلا يجوز أن نترك له المال ليُبَدِّده ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۚ ۝٦ ﴾ [النساء]

وقال فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ۝٥ ﴾ [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليه الذى يحافظ عليه ويُنميّه له .

إذن ، فالرُّشد وهو سلامة العقل وحسن التصرف ، شرط أساسى فى تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشد أهلاً للتصرف فى ماله .

وكلمة : ﴿ أَشُدَّهُ ۚ ۝٣٤ ﴾ [الإسراء] أى : يبلغ شِدَّة تكوينه ، ويبلغ الاشدَّ أى : تستوى ملكاته استواءً لا زيادة عليه ، فأعضاء الإنسان تنمو وتتربى مع نموه على مرَّ الزمن ، إلى أن يصل سنَّ الرشد ويصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هى سنَّ الاشدَّ أى : الاستواء .

(١) آنس الشيء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بقلبه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً .

[القاموس اللغوي ٢٧/١] .

لذلك أجلّ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنّ البلوغ ؛ لأنه لو كلفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٢٤) [الإسراء]

﴿ العهد ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أبرم هو العقد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُختاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان ؛ لأن الله لا يريد منّا قوالبً تخضع ، ولكن يريد منّا قلوباً تخضع ، ولو أراد الله منّا قوالبً تخضع ما استطاع واحد منّا أن يشدّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إِنْ نَشَأْ نُزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إن أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ ﴾ [البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أن تدخل الدين ، ولكن إذا دخلت فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهد ؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدته على المقابلة فقد أصبحت ملزماً بالوفاء ؛ لأن المقابل لك قد رتب نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإن أخلفت معه العهد فكانك أطلقت لنفسه حرية الحركة ، وقيدت حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبي ﷺ من صفات المنافقين^(١) .

وقوله : ﴿ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مُسْتَوْلاً ﴾ [الإسراء]

قد يكون المعنى : أى مستولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أو قى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مُسْتَوْلاً ﴾ أى : مستول ممن تعاهد عليه أن يتفذه ، وكأنه عدى المستولية إلى العهد نفسه ، فأنا حر وأنت حر ، والعهد هو المستول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول فى مواضع تقول للوهلة الأولى أنه فى غير موضعه ، ولكن إذا دقت النظر تجده فى موضعه بليغاً غاية البلاغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسْتَوْرًا ﴾ [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب فى الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أن يجعل الحجاب صفيقاً ، كأنه

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه ثلاثة منهن كان من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاسم فجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٥٩) .

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما في قوله تعالى : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧ ﴾ [النساء] أى : أن الظل نفسه مُظْلَلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود ، ولم تُحترم العواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفَكِّكاً فَقَدَت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فَقَدَت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهلاً لرقى أو تقدم .

ولاهمية العهد فى الإسلام نجده يتعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسَجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وَجِدَ ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاء وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أَنْكَ أَخَذْتَ دَيْنًا مِنْ صَدِيقٍ لَكَ ، وَكَتَبْتَ لَهُ مُسْتَدًا بِهَذَا الدِّينِ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، ثُمَّ قَابَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ تيسَّرَ لَكَ السَّدَادُ وَوَقَّيْتَ لَهُ بِدَيْنِهِ . لَكِنَّهُ اعْتَذَرَ لِعَدَمِ وَجُودِ الْمُسْتَدِّ مَعَهُ الْآنَ ، فَقُلْتَ لَهُ : لَا عَلَيْكَ أَرْسَلَهُ لى متى شئتَ ، فَلَوْ تَصَوَّرْنَا أَنَّهُ أَرَادَ الْغَدْرَ بِكَ وَأَنْكَرَ سَدَادَ الدِّينِ ، فَالْقَضَاءُ يَقُولُ : لَهُ الْحَقُّ فِي اخْتِذِ دَيْنِهِ ، أَمَا دِيَانَةُ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ .

إِذْنِ : الْعَهْدُ الَّذِى نَعْقُده مَعَ النَّاسِ يَدْخُلُ تَحْتَ الْمَسْئُولِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ وَلَيْسَ الْقَضَائِيَّةِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ^(١)
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^(٢)﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هي التي تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه في الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التي تريد أن تعيش على اكتاف الآخرين وتتغذى على دماءهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان في مجتمع عامل نشيط ، وأنه إن تعادى في خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويرقى المجتمع ويسعد أفرادُه .

صحيح في المجتمع الإيماني إثارة ، لكنه الإثارة الإيجابية النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغصب فلا مجال لها في هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التي تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الأدمية أولى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

(١) القسطاس : الميزان والفضل . [القاموس القويم ١١٦/٢] والقسطاس المستقيم : العدل الموازين وأقومها . [لسان العرب - مادة : قسطس] .

(٢) أي : أحسن عاقبة ومسالماً ومرجعاً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ١١١/١] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حق مكفول في الدولة وفي أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التامين الذي يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغنى الذي يسهم في سد حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إن أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التي عملت بها واجتهدت وجمعت هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هي هبة من الله يمكن أن تُنزع منك في أى وقت ، وتبدل قوتك ضعفاً وغناك حاجة ، فإن حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونؤمن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابياً ، يعمل ويكسب ويسهم في رفقي الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والضمول ؛ لأن المجتمع الإيماني لا يسوّي بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهب أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوي ؛ الأول عاش في ماله باقتصاد وأمانة وسعى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسرفاً مُتحرِّفاً بدّد كل ما يملك وقعد متحسراً على ما مضى ، فلا يجوز أن تُسوّى بين هذا وذاك ، أو تأخذ من الأول لتُعطي للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذت ما ليس لها حكمها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن تحقد على الغنى طالما أن غناه ثمرة عمله وكنته ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير في ماله سيراً معتدلاً ويؤدي ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولتدعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومواهب ، وبكل ما لديه من طموحات الحياة ؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعُهُ يجتهد ، وإن كان اجتهد في الظاهر لنفسه فإنه في الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير في المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبني مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً في بطون الفقراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

[إذن : علينا أن ندعَ الغنى يجتهد ويسعى ؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيِهِ واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإن كان سَعْيُهُ في الحق فبها وتعمت ، وإن كان في غير الحق فلتضرب على يده .

واليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. ﴾ (٣٥)

والحديث هنا لا يخصُّ الكَيْلَ فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً ، والتي تُقَدَّرُ بالمليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقَاسُ بها الأشياء كُلُّها على حَسَبِهِ ، فالكتاب مثلاً يُقَاسُ بالسنتيمتر ، والحجرة تُقَاسُ بالمتر ، أما الطريق فيُقَاسُ بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتقدير الطولي يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذي نقيسه . هذا في الطوليات ، أما في المساحات فسيأتي

الطول والعرض ، وفي الاحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفي الكُلَّ يأتي الميزان .

إذن : فالحياة محكومة في تقديرات الاشياء بالكيل الذي يُبين الاحجام ، وبالميزان الذين يُبين الكتلة ؛ لأن الكيل لا يدخل له في الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ۖ﴾ (٣٥) [الإسراء] يعنى : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۚ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴿ [المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اکتالوا على الناس ، أى : أخذوا منهم . أخذوا حَقَّهُمْ وافيّاً ، وهذا لا لَوْمَ عليه ، وإنما اللوم على : ﴿وَأِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (٣) [المطففين]

أى : إذا كَالُوا للناس أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أى : ينقصون . هذا هو موضع الذمِّ ومجال اللوم في الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حَقَّهُ ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يجب أن يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون في الكيل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبايع الذي يتقصص الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسك في الوزن ، وطفف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [الإسراء] أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جور فيه .

والمأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقّه ، هكذا : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ۖ ۝ (٣٠) ﴾ [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دقته ، وجعله بالقسطاس ، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدقة في الميزان بالذات ؟

لو نظرت إلى عملية الكيل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلّما يستطيع الإنسان الغش فيها ، وكثيراً ما يتكشف أمره ويُعلم تلاعبه ؛ لأن الكيل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يخسّون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد ؛ لأن الميزان كما تعلم راقعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكفة القوة في ناحية ، وكفة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأى نقص في الذراعين يفسد الميزان ، وأى تلاعب في كفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن الأعيب البائعين في أسواقنا لظل بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه

مجال واسع للغش والخداع وأكل أموال الناس .

وسبق أن أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه ، ويتناسب مع قيمته ونفاسته ، فالذى يزن الجير مثلاً غير الذى يزن اللوز ، غير الذى يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معانى (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون ، فالذى يبيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة فى الميزان ؛ فإنها تساوى الكثير من المال .

لذلك فإن أهل الخبرة فى هذه المسألة يقولون : احذر أن يدخل البائع رأسه قريباً من الميزان ؛ لأنه قد ينفخ فى كفة الميزان ، ولا شك أنك ستخسر كثيراً من جراء هذه النفخة !!

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذت أيديهم على الغش والخداع فى البيع والشراء : أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها ، وفى الوقت نفسه تشتري أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إن غششت الناس فى سلعة واحدة فسوف تُغش فى مئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة فى صالحك .

ولا تنس أن فوقك قيوماً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أن تتبين لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة ؛ لأنك إن عميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التى اختلستها من أقوات الناس من حيث أنت ، كما قال النبى ﷺ : « من

أَصَابَ مَالًا مِنْ مَهَاوِشٍ ^(١) أَذْهَبَهُ اللَّهُ فِي نَهَابٍ ^(٢) ، ^(٣) .

وكذلك في المقابل : مَنْ صَدَّقَ النَّاسَ ، وَوَفَّى لَهُمْ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ ^(٤) وَتَعَامَلَاتِهِ يَسِّرُ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُؤْفَى لَهُ وَيَصْدُقُ مَعَهُ .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) ﴾ [الإسراء]

(ذلك) أى : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلاً)
أى : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة .
فالذى يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشه يزيد في ماله ويجلب
الخير لنفسه . نقول له : أنت وأهم ، فليس في الغش والبخس خير
والزيادة عن طريقه هي عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى
سَيُجْزِيءُ النَّاسَ عَلَيْكَ فَيُفْشِكُوكَ ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن
يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقسطاس المستقيم لا هو خير ، ولا هو
أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذى يُوفَّى الكيل والميزان ، فإن الله تعالى
يُسِّرُ لَهُ مَنْ يُوفَّى لَهُ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ، وكذلك يشتهر بين الناس
بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا
هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) ﴾ [الإسراء] أى :
أحسن عاقبة .

(١) للمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصَاب من غير حِلِّه ولا يُدْرَى ما وجهه كالنصب
والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النّهَاب : الهالك . أى : أذهب الله في مهالك وأمور متبددة [اللسان - مادة : نهير] .

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ٣١٢) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي
مرغوماً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال النقي السيكي : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظّم حركة الحياة ، والإنسان الذي استخلفه الله في الأرض وهبته الحياة وأمدّه بالطاقات ويمقّومات الحياة وضرورياتها .

وبعد أن تكفل له بالضروريات ، دلّه على الترقّي في الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقّي ويُثري حياته ومجتمعه .

وحركة الترقّي والإثراء هذه لا تتم إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركت في الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوة .

فمثلاً ، الطالب الذي يرغب في دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضوء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بد أن تُبنى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرك في أي حركة واثقاً من أن حركته ستؤدي إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردت مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

(١) أي : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً . ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم ، [القاموس الفيوم ١٢٨/٢] .

أسوان ، قلن تتحرك إلا إذا تأكدت أن هذا الطريق هو الموصّل إلى غايته ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أن تتم إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المسئلة التي يُحكّم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أن تُدلل عليها ، وهذا هو العلم .

أما الجهل فإنّ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والامى ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الامى أطوع في التعلم من الجاهل ؛ لأن الامى بمجرد أن تُعلمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أن تُقسّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء : هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإن كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بد أن تختلف ، فكلُّ له هواء الخاص ، فلن أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وَصَدَقَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِينَ قَالَ : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ۖ ﴾ (٧١)

[المؤمنون]

إِذَنْ : فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْ هَذَا الْاِخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ ؟ الْمَخْرَجُ أَنْ يَخْرُجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا مِنْ هَوَى نَفْسِهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ تَرُدُّ الْقَضِيَّةُ الَّتِي اخْتَلَفَتْ فِيهَا أَهْوَاؤُنَا إِلَى مَنْ لَا هَوَى لَهُ .

وَرَبُّكَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَا هَوَى لَهُ ، وَنَحْنُ جَمِيعًا خَلْقُهُ ، وَكُلُّنَا عِنْدَهُ سَوَاءٌ ، لَيْسَ مَنَا مَنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ نَسَبٌ أَوْ قَرَابَةٌ ، فَشَرَعَ اللَّهُ وَاحِدٌ لِلْجَمِيعِ ، وَلَا غَضَاضَةَ فَالْكَلِّ خَاضِعٌ لِهَذَا الشَّرْعِ مُتَّبِعٌ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ شَرَعَ الْخَالِقُ سَبْحَانَهُ لَا شَرَعَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ .

لِذَلِكَ اِشْتَهَرَ قَوْلُهُمْ : « أَلِلَى الشَّرْعِ يَقْطَعُ صَبَاحَهُ مَيِّخُوشٌ دَمٌ » . فَأَنَا لَمْ أَخْضَعْ لَكَ ، وَأَنْتَ لَمْ تَخْضَعْ لِي ، بَلِ الْجَمِيعُ خَاضِعٌ لِلَّهِ تَعَالَى مُنْصَاعٌ لِأَمْرِهِ ، إِذَنْ : اتْرَكُوا قَضَايَا الْأَهْوَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى يُشْرِعْهَا لَكُمْ ، لِكَيْ تَرْتَاخُوا مِنْ تَسَلُّطِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ .

أَمَّا الْقَضَايَا الَّتِي تَتَّفَقُ فِيهَا الْأَهْوَاءُ فَهِيَ الْقَضَايَا الْمَادِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْمَادَةِ الصُّمَاءِ الَّتِي لَا تُجَامِلُ أَحَدًا عَلَى حِسَابِ أَحَدٍ ، وَلَا مَانِعٌ أَنْ تَتَّبِعُوا الْآخَرِينَ فِيهَا ؛ لِأَنَّكُمْ سَوْفَ تَلْتَقُونَ عَلَيْهَا قَهْرًا وَرَغْمًا عَنْكُمْ ، فَالْمَعْمَلُ الَّذِي تَدْخُلُهُ لِتَجْرِيَ التَّجَارِبُ الَّتِي تَوْصِلُكَ لِقَضِيَّةِ مَا مَادِيَّةٍ أَوْ كِيمَاوِيَّةٍ مَعْمَلٌ مُحَايِدٌ لَا يَجَامِلُ أَحَدًا .

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْنَا : إِنَّ الْكَهْرِبَاءَ أَوْ الْكِيمِيَاءَ لَيْسَ فِيهَا رُوسِي وَأَمْرِيكِي ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أَشْيَاءَ مَادِيَّةٍ لَا خِلَافَ عَلَيْهَا ، أَمَّا الَّذِي جَعَلَ الْمَعْمَلُ الشَّرْقِيَّ يَخْتَلِفُ وَالْمَعْمَلُ الْغَرْبِيُّ هِيَ الْقَضَايَا الْأَهْوَايَّةُ ، فَهَذَا شِيوعِي ، وَهَذَا رَاسِمَالِي .

لذلك ، قالنبي ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره ^(١) ، فاطاعوه ولم يؤبّروا النخل في هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتت التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس بصواباً .

يأتى هذا مِمَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، الذى يحرص على أن تاتى كل قضاياها صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ^(٢) .

ليضع بذلك أسوة لعلماء الدين ألا يضعوا انوفهم في قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. ﴾ (٦٠) [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ^(٣) .

فإن أردت أن تتحرك في الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَقْفُ مَا نُسَخَ بِهٖ عِلْمٌ .. ﴾ (٣٦) [الاسراء] لكى تسير في حركة الحياة على هدى وبصيرة .

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب - مادة : أبر] .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخلوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . وفي حديث أنس (٢٢٦٢) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب العسقلاني في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضمه .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

﴿٨٥٣٧﴾

﴿ لَا تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علم لك به ، كمن يدعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدري فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتب على إجابته ما لا تُحمد عقباة ، والذي يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقْفُ ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثارِهِمْ بِرُسُلِنَا .. ﴾ (٢٧) ﴿ الحديد ﴾ أى : أتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خلفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أن يتزوج قال له^(١) : لا تتخذها حنّانة ، ولا منانة ، ولا عُشبة الدار ، ولا كبة القفا .

فالحنّانة التى لها ولد من غيرك يُذكرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنانة التى لديها مال تمنّ به عليك ، وعُشبة الدار هى المرأة الحسنة فى المنبتِ السوء والمستنقع القذر ، وكبة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

— علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويوحّدها إلى هوى واحد هو الهوى الإيمانى .

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاه الخالق سبحانه ، وليس لنا دخل فيه ؛ لأن الصانع أدري بصنعيته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [المك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُّهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

- فليس لنا أن نتدخل فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو للتعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالفك فسوف تحدث فى الكون فساداً يترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمعامل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بأفعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : قدع لربك وخالفك والاعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعيته أن نُحْكَمَ فى أمور ديننا ، ونُخْرِجَ أئوتنا مما اختص به سبحانه ؟

- أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبي الذى لا يخضع للأهراء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسايق ،

شُكْرُ الْأَمْرِئَاتِ

○ ٨٥٣٩ ○

ومضمّاراً يجرى فيه الجميع : لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قهراً
ورغمًا عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من
العلم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودَ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ
وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ،
والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، أربّع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإن
أحسنّت الإمعان فيها فسوف تُوصِّلَك إلى ظواهر أخرى تُثرى حياتك
وتُرقّيقها ، فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة
والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْنِ الله ، إنما أحسن
النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعدّه .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرّ على ظواهر الكون
فى إعراض وغفلة ودون تمعّن فيها : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٥٥) ﴾ [يوسف]

والذين عبّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات)
كانوا أمّاء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى
الكون ، فكلُّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتمام إليها

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة في التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبع ما ليس لنا به علم ، فماذا تتبع ؟ تتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإن كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يُقننها لنا ، وإن كانت في أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُشري حياتنا ؛ لذلك تكلم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) [الاسراء]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع ما لا تعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقيني فلا بد أن يسأل المرء عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما علم الإنسان شيئاً ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [النحل]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هي العلم .

وهذه الحواس تُزِدِّي عملها في الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه ، وبعد أن يخرج إلى الحياة ، والبعض يظن أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويعي من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُؤدِّد

ولديه ملكات إدراكية سمّاها العلماء احتياطات الحواس الخمس الظاهرة ، ، وقد كان احتياطهم في محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى ، مثل حاسة العضل مثلاً التي تُميزُ بها بين الخفيف والثقيل .

وإن كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها : السمع والبصر ، وقد وردت في القرآن بهذا الترتيب ، السمع أولاً ، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر ، قالإنسان بمجرد أن يُولد تعمل عنده حاسة السمع ، أما البصر فإنه يتخلف عن السمع لعدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق في أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسة الوحيدة التي تُؤدّي مهمتها حتى حال النوم ، وفي هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه ، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة في قصة أهل الكهف ، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطل حاسة السمع لديهم ، وإلا لما تمكّنوا من النوم الطويل ، ولازعجتهم الأصوات من خارج الكهف . فقال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١) [الكهف]

ولم يسبق البصر السمع إلا في آية واحدة في كتاب الله تعالى وهي : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ﴾ (١٢) [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفرّج الناس من هولها فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. ﴾ (١٢) [السجدة] لأنهم في الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسَّمْعُ أوَّلُ الحواسِ ، وهو أهمُّها في إدراك المعلومات ، حتى الذى يأخذ معلوماته بالقراءة سَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ ، فَتَعَلَّمَ أَوَّلًا بِالسَّمْعِ أَلْفَ بَاءٍ ، فَالسَّمْعُ أَوَّلًا فِي التَّعَلُّمِ ، ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ الْبَصَرِ .

والذى يَتَّبِعُ الآياتِ التى وَرَدَ فِيهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ سَيَجِدُهَا جَاءَتْ بِإِفْرَادِ السَّمْعِ وَجَمْعِ الْبَصَرِ ، مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (١) ﴿

[السجدة]

إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي تَحْنُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْهَا جَاءَتْ : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٢) ﴿

[الإسراء]

لِمَاذَا ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ إِفْرَادِهَا هُنَا بِالذَّاتِ ؟

وَقَبْلَ أَنْ تُوضَّحَ الْحِكْمَةُ هَذَا يَجِبُ أَنْ نَعْنَى أَنَّ الْمَتَكَلِّمَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا دَامَ الْمَتَكَلِّمُ هُوَ اللَّهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَجِدَ كُلَّ كَلِمَةٍ دَقِيقَةً فِي مَوْضِعِهَا ، بَلِيفَةً فِي سِيَاقِهَا .

فَالسَّمْعُ جَاءَ بِصِيفَةِ الْإِفْرَادِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّدُ فِيهِ الْمَسْمُوعُ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّامِعِ ، فإِذَا حَدَثَ الْآنَ صَوْتٌ نَسْمَعُهُ جَمِيعًا ، فَهُوَ وَاحِدٌ فِي جَمِيعِ الْأَذَانِ .

أَمَّا الْبَصَرُ فَهُوَ خِلَافَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ أَمَامَنَا الْآنَ مَرَاتِيَّ مُتَعَدِّدَةٌ وَمَنَاطِرُ مُخْتَلِفَةٌ ، فَأَنْتَ تَرَى شَيْئًا ، وَأَنَا أَرَى شَيْئًا آخَرَ ، فَوَحْدَةُ السَّمْعِ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى الْبَصَرِ ؛ لِذَلِكَ أَفْرَدَ السَّمْعَ وَجَاءَ الْبَصَرُ بِصِيفَةِ الْجَمْعِ .

أَمَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. ﴾ (٣) ﴿ [الإسراء] فَقَدْ

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سمعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحسب ، فناسب ذلك أن يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

قال إنسان - إذن - مسئول عن سمعه وبصره وقواده من حيث التلقى ، تلقى القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكان الحق سبحانه وتعالى يقول للآذن : لا تسمى إلا خيراً ، ولا تلقى إلا طيباً ، ويا مربي النشء لا تُسمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لآذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترى إلا الحلال الذي لا يهيج غرائذك إلى الشهوات ، ويا مربي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبئ عليها حركة حياته .

وما دُمت مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومجاسباً عنها ، فإياك أن تقول : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أن تقول : رأيت وأنت لم قر ، إياك أن تتعرض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تبتنى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ؛ لأن المبني على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنى على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ [الاسراء] (٣٦) لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) [الاسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَا تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٣٧)

ما زالت الآيات تسير في خط واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعي في مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر في حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قوياً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴾ [الاسراء] (٢٢)

وهذه قضية القمة التي لا تنتظم الأمور إلا في ظلها ، ثم قسم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التي أنث مهمتها في الحياة ، وحين وقت إكرامها ورد الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببرهما .

ثم توجه إلى الطبقة الصغيرة التي تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خوفاً الفقر والعوز ، وخص بالوصية اليتيم ؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسط ، ونهى عن طرقيته : الإسراف والإمساك ، ثم نهى عن الفاحشة ، وخص الزنا الذي يُلوث الاعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسفك الدماء .

ثم تحدث عما يحفظ للإنسان ماله ، ويحمي تعبهِ ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبني حياته على نظريات خاطئة .

الم ثر أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلاقية في الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع له توازناً اجتماعياً .

وأول شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبده . وليس منا من بينه وبين الله قرابة أو نسب ، فالجميع عند الله عبيد كاسنان المشط^(١) ، لا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإن تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غني ، وهذا فقير .

(١) أخرج ابن عدى في الكامل (٢/٢٤٨) عن حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كاسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالمساقفة ، والمرء كثير يأخيه يرقده ويحمله ، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » وفيه أبو داود النخعي . قال ابن عدى : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزه العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٥١) للدليسي عن أنس ، وعن سهل بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويدَّعون غيرها من النواحي الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية ، ولر سلكَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، وأن الحصىلة واحدة ، وصديق الله العظيم القائل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۖ ﴾ (١٣) [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أن يرفع رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ ﴾ (٣٧) [الإسراء]

أي : فخرًا واختيالًا ، أو بطرًا وتعالىًا ؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتيًا فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل كل ما يمكن أن يفخر به الإنسان هبة له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عدم هي هبة يمكن أن تسترد في يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبرت بمالك ، ثم رآك الناس فقيرًا ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلًا ؟

إذن : فالتواضع والادب أليق بك ، والتكبر والتعالى لا يكون إلا للمخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازع سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ



وَمَنْ أَحَبُّ أَنْ يَرَى مَسَاوَاةَ الْخَلْقِ أَمَامَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ ، فليُنْظَرْ
إِلَى الْعِبَادَاتِ ، ففيها استطرأَقُ الْعِبُودِيَّةُ فِي النَّاسِ ، فَصَيْنَمَا يُنَادَى
لِلصَّلَاةِ مِثْلًا تَرَى الْجَمِيعَ سَوَاسِيَّةً : الْغَنَى وَالْفَقِيرَ ، وَالرَّئِيسَ
وَالْمَرْئُوسَ ، الْوَزِيرَ مِثْلًا وَالْخَفِيرَ ، الْكُلَّ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ ، الْكُلَّ
خَاضِعٌ لِلَّهِ مُتَذَلِّلٌ لِلَّهِ فَقِيرٌ لِلَّهِ ، الْكُلَّ عَبِيدٌ لِلَّهِ بَعْدَ أَنْ خَلَعُوا أَقْدَارَهُمْ ،
عِنْدَمَا خَلَعُوا بُعَالَهُمْ ، فَفِي سَاحَةِ الرَّحْمَنِ يَتَسَاوَى الْجَمِيعُ ، وَتَتَجَلَّى
لَنَا هَذِهِ الْمَسَاوَاةُ بِصُورَةٍ أَوْضَحَ فِي مَنَاسِكَ الْحَجِّ .

وَالْأَهَمُّ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّئِيسَ أَوْ الْكَبِيرَ لَا يَأْنِفُ ، وَلَا يَرَى غَضَاضَةً
فِي أَنْ يَرَاهُ مَرْئُوسَهُ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ وَفِي هَذَا الْخَضُوعِ
وَالْتَذَلُّ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ الْخَضُوعَ هُنَا وَالتَّذَلُّ لِلَّهِ ، وَهَذَا عَيْنُ الْعِزَّةِ
وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ
طُولًا ﴾ (٤٧) ﴿

[الْإِسْرَاءُ]

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ نَلْحِظُ إِشَارَةً تَوْبِيخَ وَتَقْرِيعَ ، كَأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمَتَكَبِّرِينَ ، وَلِأَصْحَابِ الْكِبْرِيَاءِ الْكَاذِبِ : كَيْفَ
تَتَكَبَّرُونَ وَتَتَسَيَّرُونَ قَضْرًا وَخُيَلَاءَ بِشَيْءٍ مُوهَبٍ لَكُمْ غَيْرِ ذَاتِي
فِيكُمْ ؟

فَإَنْتُمْ بِهَذَا التَّكْبِيرِ وَالتَّعَالَى لَنْ تَخْرِقُوا الْأَرْضَ ، بَلْ سَتُظَلُّ صَلْبَةً
تَتَحَدَّكُمْ ، وَهِيَ أَدْنَى أَجْنَاسِ الْوُجُودِ وَتُدَاسُّ بِالْأَقْدَامِ ، وَكَذَلِكَ الْجِبَالُ
وَهِيَ أَيْضًا جِمَادٌ سَتُظَلُّ أَعْلَى مِنْكُمْ قَامَةً وَلَنْ تَطَاوُلُوهَا . وَالْحَقُّ

سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم لِيُبْقِيَ له على التكريم في :
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ ۝ (٢٧)﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبر الكاذب أتى
بأدنى أجناس الوجود بالأرض والحيال وهي جماد ؛ لكنه قد يسمو
على الإنسان ويفضله عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد
الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان
والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا
جميع الأجناس مُسَخَّرة في خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها
الإنسان ؟ وَمَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أن يكون لك دَوْر في الكون ووظيفة في الحياة ، وإلا كانت
الأرض والحجر أفضل منك ، فابحث لك عن مهمة في الوجود .

وفي فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذي هو أدنى الأجناس
نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفي
ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ،
وعليه يتزاحم الناس ويتشرفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطرارق العبودية في الكون ، فالإنسان
المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحُرَّم قطعه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك
الحيوان يحُرَّم صيده ، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي
أخدمها وأقدسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٨٥٤٩

الأصل ، ولكي لا يفتُر الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْرَى في الكون كله .

فمايك أيها الإنسان أن تخذش هذا الاستطراق العبودي في الكون بمرح أو خيلاء أو تعال .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢٨)

أى : كُلُّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٢٢) [الأنعام]

وهذه الأمور التي تقدّمت ، والتي تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيء وفيها الحسن ، والسيء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالف منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهي التي تقدّمت يقولون : إنها الوصايا العشر التي نزلت على موسى - عليه السلام - والمقصودة في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ^(١) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَرْعَظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴾ (١٤٥) [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

(١) الأنواح : جمع نوح ، وهو الذي يكتب فيه . قال الزجاج : قيل في التفسير أنها كانت لوحين ، ويجوز في اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب - مادة : لوح] . قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٤٦) : : قيل : كانت الألواح من جواهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواظ وأحكاما مفصلة مبيّنة للحلال والحرام .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (٣٩)

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما تقدّم من الوصايا .

﴿ الْحِكْمَةُ ﴾ هى : وَضْعُ الشَّيْءِ فى مَوْضِعِهِ المؤدّى للغاية منه ،
لِتَنْظُلَّ الْحِكْمَةُ سَائِدَةً فى الْمَجْتَمَعِ تحفظه من الْخُللِ وَالْحُمُقِ وَالسَّفَهَةِ
وَالْفُسَادِ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٣٩) [الإسراء]

لسائل أن يسأل : لماذا كرّر هذا النهى ، وقد سبق أن ذُكر فى
استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المذهب السليم الذى يُنظّم حياة
المجتمع . وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريك له ، ثم عدّل نظام
المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرأسى قواعد الطُّهْرِ وَالْعِفَّةِ ليحفظ
سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكلّ للكلّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أن يستقيم المجتمع ، ويسعد
أفراده بفضل هذا المذهب الإلهي .

إذن : لمّا ياك أن تجعل معه إلهاً آخر ، وكرّر الحق سبحانه هذا
النهى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٣٩) [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحَسِنُونَ الظنَّ بعقول بعض
المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيروا على مناهجهم ، ويُفَضِّلُونَهَا

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٨٥٤١

على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفي أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أن يُزحزحك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفستك عن دينك ، فتكون النتيجة : ﴿ فَتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (٣٩) [الإسراء]

﴿ مَلُومًا ﴾ : لآنك أتيت بما تُلَام عليه ، ﴿ مَدْحُورًا ﴾ : أي : مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء في الآخرة .

أما الذي لا يؤمن بها ، فلا بُدَّ لكي نستطيع العيش معه في الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجله له في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. ﴿ [طه] : أي : في الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في قصة ذي القرنين : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^(١) وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا بِلَا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْبًا ﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (٨٧) [الكهف]

فقوله : ﴿ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ .. ﴾ (٨٧) [الكهف] لانه مُمَكِّن في الأرض ، ومثوِّط به حفظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يؤمنون

(١) أي : رأى الشمس في منظره تغرب في البصر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يرأى كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مشقة فيه لا تفارقه . [تفسير ابن كثير ١٠٢/٢] .

بِالْآخِرَةِ ، وَلَا فَلَوْا أَخْرَجْنَا الْعَذَابَ عَنْ هَؤُلَاءِ إِلَى الْآخِرَةِ لَافْسِدُوا عَلَى
النَّاسِ حَيَاتِهِمْ ، وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ يُعْرِضُونَ وَيُفْسِدُونَ .

ولذلك لا يموت ظلوم في الكون حتى ينتقم الله منه ، ويذيقه
عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بد أن يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة
الظلم وخيمة ، في حين أن المظلوم في رعاية الله وتأييده ينصره بما
يشاء من نعمه وفضله ، حتى إن الظالم لو علم بما أعدّه الله للمظلوم
لَضَنَّ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا
إِنْ كُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٥ ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمتهم من قالوا : المسيح ابن
الله ، ومنهم من قالوا : عزيز ابن الله ، ومنهم من قالوا : الملائكة
بنات الله . فويخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات
ولكم البنين ؟ إنها قسمة جائرة . كما قال الحق سبحانه في آية
أخرى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ٢١ ﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ^(١) خَبِيرَةٌ ﴿ ٢٢ ﴾ [النجم]

أي : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ ٤٥ ﴾ [الإسراء] أي : اصطفاكم واختار لكم
البنين ، وأخذ لنفسه البنات ؟

(١) ضارّه يضيّره : جار عليه . وضارّه حقه : نقصه حقه . وقسمة خبيّرة : جائرة ظالمة .
[القاموس القويم ٣٩٧/١] .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٨٥٥٣

ويقول في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۖ ﴾ (١٥) [الزخرف]
 لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠) [الاسراء]
 فوصف قولهم بأنه عظيم في القبح والافتراء على الله ، كما قال في
 آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴾ (٨٨) [مريم]
 [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَنْ لِيَذَّكَّرُوا
 وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ﴾ (٤١)

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى : حَوَّلْنَا الشيء من حال إلى حال ، ومنها قوله
 تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ۖ ﴾ (١٦٤) [البقرة]

يعنى : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكسكا^(١) غليظة
 هادئة ، ومرة تجدها رُخَاءً أى : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً
 مدمراً . والرياح قد تكون لواقع تأتي بالخير والنماء ، وقد تكون
 عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ ۖ ﴾ (٤١) [الاسراء]

أى : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن ، وعالجها في
 كثير من المسائل ؛ لأنه أمر مهم عالج القرآن علاجات متعددة في مقامات
 مختلفة من سُورِهِ ، فتكرر ذكر هذه المسألة . والتكرار قد يكون في

(١) الإد والإنة : المعجب والأمر الفطيع العظيم والداعية . [لسان العرب - مادة : إد] .

(٢) السكسكة : الضمف . [لسان العرب - مادة : سكك] والمقصود أنها ربيع ضعيفة ذات
 نسيم طيل .

ذات الشيء ، وقد يكون بالالف بالشيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَبَائِرُ
الْأَنْعَامِ رِبْكَمَا تُكَلِّمَانِ ﴾ (١٤)

[الرحمن]

وقوله : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (١٥)

[الإسراء]

أى : بدل أن يذكروا ويعودوا إلى جادة الصواب ازدادوا إعراضاً
ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التي كانت لهم قبل
الإسلام ، ولكي نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين في العالم نجد أن القانون الوضعي
الذي وضعه البشر لم يأت أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلط الكهنة ،
وكانوا هم أصحاب القانون يضعونه باسم الدين ، ويلزمون الناس
به ، ولكن لوحظ عليهم أنهم يحكمون في قضية ما بحكم ، ثم بعد
فترة يحكمون في نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فأنصرف الناس
عن أحكام الكهنة ، ووضعوهم لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك
أصبح لهؤلاء ما يُسمى بالسلطة الزمنية .

وهذه السلطة الزمنية هي التي منعت يهود المدينة من الإيمان
بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن
بعثته ، وكانوا حينئذ يرون عبادة الأصنام في مكة يقولون لهم :
سيأتي زمان يُبعث فيه نبي في هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به
قتل عاد وئرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل
يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه في حق يهود المدينة : ﴿ وَلَمَّا

سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ

٨٥٥٥

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

[البقرة]

لقد تنكر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صدقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرّمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضى على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التي كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا يَشْعُرُونَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٧﴾

أى : لو كان مع الله آلهة أخرى لطلبت هذه الآلهة طريقاً إلى ذى العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية فى قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾ ﴿١٨﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أن تكون غير ذلك . فإن كانت صادقة فقد انتهت المسألة ، وإن كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فماين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإن كان موجوداً ، ولا يدرى - أو كان يدرى بهذه القضية - ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففى كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سكمت له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِي الْعَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لِمَنْ استتب له الأمر بعد عراك وقتال ، فيُصْنَع له كرسي أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذى العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبتطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (١١)

[المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خلقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ^(١) الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴾ (١٧٢)

[النساء]

ويقول : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. ﴾ (٥٧)

[الإسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقلتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كل هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم - إذن - أولى .

(١) أى : لن يمنع ولن يناف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قاضياً بواجب العبد لصوره . [القاموس القريم ٢/ ٢٨٧] .

وينزّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣)

وقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعنى تنزيها مطلقا له تعالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فله تعالى ذات ليست كذاذك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحسب الموجد لها .

فمثلا : لو بنى كل من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتا ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بد من وجود هذا التفاوت بين إله ومآلوه ، وبين ربٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبد .

إذن : كل الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣) [الإسراء] أى : تعالى الله وتنزّه عما يقول هؤلاء علوا كبيرا ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيرا) ولم يقل : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى موضعه المناسب ؛ لأن كبيرا تعنى : أن كل ما سواه صغير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبير أى : مُشَارِك له فى الكبر .

لذلك نقول فى نداء الصلاة : الله أكبر وهى صفة له سبحانه ، وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعى على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^(١) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا عَفُورًا^(٢)﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ! لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلا أن تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فانت لا تُركل أحداً بعمل إلا إذا أيقنت أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بالله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألومين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مطلق الصفات ، فالله غنى وأنت غنى ، لكن غنى الله ذاتي وغنىك موهوب ، يمكن أن يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد من خلقه مَنْ يُنَزِّهه ، والحق سبحانه مُنَزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن

(١) قوله تعالى ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ .. (٤٤) [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٢٩٩٤/٥) :

« يريد الملائكة والانس والجن . ثم هم بعد ذلك الاشياء كلها في قوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ .. (٤٥) [الإسراء] .

يخلق الخلق : لانه خالق قبل أن يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لانه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفت الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخلق .
لذلك فإن المعتنق لهذه العادة في القرآن الكريم مادة (سبح)
يجدها بلفظ (سُبْحَانَ) في أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى .. ﴾
(الإسراء) ﴿٦﴾

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزّهه .
ثم بلفظ : ﴿ سُبْحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ .. ﴾ (١) ﴿ الحديد ﴾
بصيغة الماضي ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من
السموات والارض ، وهي خلق سابق للإنسان .

ثم يأتي بلفظ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ .. ﴾ (١) ﴿ الجمعة ﴾

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس في الماضي ،
بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه
ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنْزَّهه ، وثابتاً لله من جميع
مخلوقاته في السموات والارض ، فلا تَكُنْ أيها الإنسان نشازاً في
منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا التشيد الكوني : ﴿ سُبْحَ اسْمَ رَبِّكَ
الْاَعْلٰى ﴾ (١) ﴿ الأعلى ﴾

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

أى : ما من شيء ، كل ما يُقال له شيء . والشئ : هو جنس الاجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسَبَّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنْزَّهٌ وَمُتَعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط : لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلُّ بِلُغَتِهِ^(١) .

فقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقى ذاتى ينشأ بلغة كل جنس من الاجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿كُلُّ قَدٍّ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور]

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٩٩٦/٥) : « الصحيح أن لكل يسبح للاختيار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فإى تخصيص لداود (يحمده لقوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٢٥)﴾ [الانبيا]) . وإنما ذلك تسبيح المقال يخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهراً القرآن من تسبيح كل شيء ، فالقول به أولى . والله أعلم . » وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إِذَنْ : كل شيء في الوجود عِلْمٌ كَيْفَ يُصَلَّى اللهُ ، وكيف يُسَبِّحُ اللهُ ،
وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَمٍ في الوجود له
لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس
الأدنى لُغَتَهُ ، فكيف يستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وما هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القولي لغة يتفاهمون بها ،
ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا
ما تكلم الإنجليزى - مع أنه يتكلم بالفاظ العربى - ومع ذلك
لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه
في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع
ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان
وحده ما كان في حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهى
المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل
إنجليزى مثلاً ، ووضعتَه في بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة
ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع
الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمُّكُمْ عُمَى..﴾

(١٨) ﴿البقرة﴾

فهم بكم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمُّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا
لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدث به ؛ لأن ما تسمعه
الأذن يحكيه اللسان .

إِذْ : بِالسَّمَاعِ انتقلتُ اللِّغَةُ ، كُلُّ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ ، وَمِنْ الْبَيْتَةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا ، فإِذَا مَا سَلَسَلْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ سَتَتَّصِلُ إِلَى آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهَذَا يَأْتِي السُّؤَالُ : وَمِمَّنْ سَمِعَ آدَمُ اللِّغَةَ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا ؟ وَقد حُلِّ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (٣١)

[البقرة]

وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيُّ بِنَفْسِ لُغَتِكَ وَلَا تَفْهَمُ عَنْهُ مَا يَقُولُ ، وَاللِّغَةُ هِيَ اللِّغَةُ ، كَمَا حَدَّثَ مَعَ أَبِي عِلْقَمَةَ النُّحْوِيُّ ، وَكَانَ يَتَقَرَّرُ فِي كَلَامِهِ وَيَأْتِي بِالْفَاضِ شَاذَةً غَيْرَ مُشْتَهَرَةٍ ، وَقَدْ أَتَعَبَ بِذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ ، وَخَاصَّةً غَلَامَهُ الَّذِي ضَاقَ بِهِ ذُرْعًا لِكثَرَةِ مَا سَمِعَ مِنْهُ مِنْ هَذَا التَّقَرُّرِ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ فِي ذَاتِ لَيْلَةٍ قَالَ أَبُو عِلْقَمَةَ لَغَلَامِهِ : (أَصَقَّعْتَ^(١) الْعَتَارِيفُ) ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ الْغَلَامُ قَائِلًا : (زُقْفَيْلُكُمْ) . وَكَانَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَفْهَمُ فِيهَا أَبُو عِلْقَمَةَ عَنْ كَلِمَةٍ ، فَقَالَ : يَا بَنِي وَمَا (زُقْفَيْلُكُمْ) ؟ قَالَ : وَمَا (صَقَّعْتَ الْعَتَارِيفُ) ؟ قَالَ : أَرَدْتُ : أَصَاغَتْ الدِّيَكَةُ ؟ فَقَالَ الْغَلَامُ : وَأَنَا أَرَدْتُ لَمْ تُصِحَّ .

إِذْ : فَكَيْفَ نَسْتَجِيبُ أَنَّ لَا نَعْلَمُ لُغَةَ الْمَخْلُوقَاتِ الْآخَرَى مِنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ ؟ أَلَمْ يَكُنْ مَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ وَجُودِ لُغَةٍ لَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَفْهَمُهَا ؛ لِأَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللِّغَةَ هِيَ النُّطْقُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ اللِّغَةُ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ .

فَهَذَاكَ - مَثَلًا - لُغَةُ الْإِشَارَةِ ، وَلُغَةُ النُّظُرَاتِ ، وَلُغَةُ التَّخَرُّافِ .

(١) صَقَّعَ الدِّيكُ : صَوْتُهُ . وَقَدْ صَقَّعَ الدِّيكُ : صَاحَ . وَالْعَتَرَفَانُ : الدِّيكُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : صَقَّعَ ، عَتَرَفَ] فَمَعْنَى : أَصَقَّعْتَ الْعَتَارِيفُ : أَيْ : أَصَاغَتْ الدِّيَكَةُ .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هي استعداد لاصطلاح يفهم ويتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفي أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لونٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عالم لغة يتفاهم بها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ۖ ﴾ (٧٩) [الأنبياء]

فالجبال تُسَبِّح مع داود ، وتُسَبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسَبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما في أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فهم عنها وفهم عنه .

وكذلك النملة التي تكلمتُ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسم ضاحكاً من قولها . وقد علّمه الله منطق الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسَبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مؤدّية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قهراً عنه ، مع أن لديه ملكة الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مطلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر ، كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو عَلم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أن يُسمّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۖ ﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجروا أحد منهم أن يُسمّى ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياري يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذي لم يجروا حتى الكافر على التشبّه به ؛ ذلك لأنهم في كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إن أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجروا أحد منهم أن يُجرّب في نفسه مثل هذه التسمية .

وفي مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ يتحنى خضوعاً لغيره ؛ كأنه رাকع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيل له ، وتصل به المبالغة إلى جعله إلهاً في الأرض ، ومنهم مَنْ يسجد للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهمد عنهم بقوله :

﴿ وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ [النمل]

السُّنَّا نرى إنساناً يتقرب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرج زكاة ماله ؟ السُّنَّا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سنيده ، ويُوَقَّعُ في سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك
فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية في شيء متميز وارد عند الناس ،
والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له
سبحانه . لا يتقرب بها أحد لأحد . وهل رأيت إنساناً يتقرب لأخر
بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحَانِيَّة وهذا التنزيه في ذاته سبحانه ،
فلا يجرؤ أحد أن يتسمَّى باسمه .

وفي العبادة لا يُصَامُ لأحد غيره تعالى ، فلو تصورنا أن يقول
واحد للآخر : أنا سأَتَقَرَّبُ إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ،
إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعى صومك ،
فكانك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أن تتقرب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « كل عمل ابن
آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » ^(١) .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأي ركن من أركان الإسلام لغيري ،
إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أن يتطوَّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبْحَانِيَّة هي الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخلق ؛
لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تَأَبَّيْتُ على الإيمان بالله ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث قدسي عن رب العزة سبحانه .

والعاصي : لقد تابيت على أوامر الله ، وما نمتم قد تابيتم على الله ،
والفتم هذا التابى وهذا التمرد ، فلماذا لا تقايون على المرض إن
أصابكم ، وعلى الموت إن طرق بآبكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟ إنها
قاهرة الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن
يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصي حينما ينصرف عن الجادة ، وتمتد يده إلى مال
غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدى على المال العام ، فإن الحق
سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبطل ما جمع من الحرام ، وربما
أخذت في طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :
« من جمع مالا من مهاوش أذهب الله في نهابر »^(١) .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ،
إلا مَنْ أطلع الله عليه ، فإذا مَنْ الله على أحد وعلمه لغة الطير
أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه
النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان - عليه السلام - شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ
أَوْزِعْنِي ^(٢) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴾ [النمل]
فَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا نُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ [الإسراء]

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢١٣/٢) ومزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي
مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحة له . قال النقي السبكي : لا يصح .

(٢) أي : ألهمني شكرك وادعيتي إليه وحبتي إلى . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٨٥٦٧

يجب على العلماء أن ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهما أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذَكِّرُ الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١١)

[الإسراء]

لأن الإنسان كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صنّعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حلیم لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأتاب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلو أن يتدارك الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨)

[الحج]

فبها هي جميع الأجناس من جماد وتبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شيء ، فهي تسجد وتسبح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا في الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذي يشدّ عن منظومة التسبيح في الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذي مَيَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية في أن يفعل أو لا يفعل ، أما باقي المخلوقات فهي مُسَخَّرَةٌ مَبْهُورَةٌ ، فإن قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبة لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبة لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترت الإيمان حباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فاثبت بذلك صفة المحبوبة .

وياك أن تظن أن مَنْ يَعْصِي الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما رُكِب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حَقَّقْتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدت الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أن تُسَلِّم الأمر لله ، وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص . وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) [الاحزاب]

وفي رَفُض هذه المخلوقات لتحمل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء ما يحول بينك وبين أداء الأمانة .

والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب ؛ لأنها لا تثبت إلا بذمة الآخذ الذي قد يضعف عن الأداء وتلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .

فالإنسان - إذن - لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن كان يضمنها وقت التحمل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيرة ، أما الإنسان فقال : لى عقل وأستطيع التصرف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه ؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغير أحواله .

فالكون - إذن - ليس مقهوراً رَغماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغماً عنه ، بل بإرادته واختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعَكَ رَبُّكَ وَأَنْتَ سَمِيعٌ ۝۱۵﴾

يَا آخِرَ جَوَابٍ مُسْتَوْراً ﴿١٥﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أولية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما أدخروا وسعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتفكير به إلا فعلوها .

ومع ذلك لم يُفاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبُط من عزيمته ، لماذا ؟ لأنه كان مُتوقعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .

فالمسألة لم تُفاجيء رسول الله ؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ،
فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى في الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة
فَرَعَا ذهباً به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو
الناموس الإلهي ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه
نبي هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتني أكون حياً حين يُخرجك
قومك ، فقال ﷺ : « أُمُخرجي هم ؟ » ،^(١) .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودي ، وإن
يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حصَّن رسوله ﷺ ضد ما سيناتي
من أحداث ؛ لكس يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التي
ربما ولدت الانهيار ، وأعطاه الطَّعم المناسب للداء قبل حدوثه ؛ لتكون
لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت في نصر الله
له مهما أدلهمت الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس
لهم إلا الدنيا ، هي فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد
كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنَّ أَجَلَ المؤمن بعض
مُتَعِهِ وشهواته انتظاركاً لما في الآخرة فلا لَمَ يؤجل الكفار مُتَعَتِهِمْ ؟

إذن : الذي يجعل هؤلاء يتساهلون على شهواتهم في الدنيا أنهم
غير مؤمنين بالآخرة .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٩/٢ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن
بشير . وأورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٢٨/١) وفيه أن ورقة قال : « والذي
نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، وتكذبت
ولتؤذينه وتخرجته وتغافلته ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرك الله نصراً يعلمه » .

فإذا جاء رسولٌ بمنهجٍ ليعدل حركة الناس لتتنسجم مع الكون ،
فلا بُدَّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ،
لأبَدُ أن يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها في ذات الرسول وفي
منهجه ، في ذاته بالإيذاء ، وفي دعوته ومنهجه بصرف الناس عنه ،
الم يقل الكفار لمن يرونَّ عنده مَيْلًا للإسلام : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا
الْقُرْآنِ وَالْغَوَا بِهِ أَعْلَكُم تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) [فصلت]

وقولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ .. ﴾ (٢٦) [فصلت] شهادة منهم
بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما
قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿ وَالْغَوَا بِهِ .. ﴾ (٢٦) [فصلت] أي : هرجوا وشوشوا
عليه حتى لا يصل إلى أذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق
رسول الله وصدق دعوته ، وقد دُلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما
كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندن بآيات
القرآن كان صناديد الكفر في مكة يستعمدون سماع القرآن ، والتلذذ
بروعته وبلاغته^(١) .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٤٥) [الإسراء]

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (٢١٥/١) ، أن أبا سفيان وأبا جهل
والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في
بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق
فتلاوموا ، وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرَوَّى^(١) أَنَّ أَبَا جَهْل ، وَأَبَا سَفْيَانَ ، وَأَبَا لَهَب ، وَأُمَّ جَمِيلَ كَانُوا يَتَابِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَيَتَنَصَّتُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَرَوْا مَا يَقُولُ ، وَلِيَجِدُوا قُرْصَةً لِإِيْذَانِهِ ﷺ ، فَكَانَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَصُمُّ أَذَانَهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، فَالرَّسُولُ يَقْرَأُ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا ، فَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ بِغِيْظِهِمْ .

وَكَانَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ مِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنْ تَكُونَ تَمْهِيدًا لِحَدِيثٍ أَهَمُّ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةَ الْهَجْرَةِ ، لَيْلَةُ أَنْ بَيَّنُّوا لَهُ الْقَتْلَ بِضَرْبَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَتَحَرَّسَهُ عَنَآيَةُ اللَّهِ وَتَقُولُ لَهُ : أَخْرِجْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَخَفْ ، فَإِنَّ الَّذِي جَعَلَكَ تَقْرَأُ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا فَلَا يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ ، هُوَ الَّذِي سَيَنْزِلُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ غِشَاوَةٌ فَلَا يَرَوْنَكَ .

وَمَعَ إِحْكَامِ خِيُوطِ هَذِهِ الْمَوَآمِرَةِ لَمْ يَخْرُجِ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِهِمْ صَامِتًا يَحْبِسُ أَنْفَاسَهُ خَوْفًا ، بَلْ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ « شَاهَدْتُ الْوُجُوهَ »^(٢) وَهُوَ لَا يَخْشَى انْتِبَاهَهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ : يَأْخُذُ حَفْنَةً مِنَ التُّرَابِ وَيَذَرُهَا عَلَى وَجْهِهِمْ ، إِنَّهَا الثَّقَةُ وَالْيَقِينُ فِي نَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حِجَابًا مُسْتَوْرًا ۝٤٥ ﴾ [الإسراء]

الْحِجَابُ : هُوَ الْمَانِعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ ، فَإِنْ كَانَ لِلْعَيْنِ فَهُوَ مَانِعٌ لِلرَّوْيَةِ ، وَإِنْ كَانَ لِلْأَذْنِ فَهُوَ مَانِعٌ لِلسَّمْعِ .

(١) قَالَ الزَّجَّاجُ فِيمَا نَقَلَ عَنْهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٩٩٨/٥) : « نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا يُوَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَهُمْ : أَبُو جَهْلٍ ، وَأَبُو سَفْيَانَ ، وَالنَّضَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأُمُّ جَمِيلَ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ وَحَوِيطُ . فَحَبَّبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ رَسُولَهُ ﷺ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَكَانُوا يَمْرُقُونَ بِهِ وَلَا يَرَوْنَهُ .

(٢) وَرَدَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذَا فِي حَدِيثِ الْهَجْرَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي الْمُسْنَدِ (٢٦٨/١) وَكَذَلِكَ فِي غُرُوةِ حَنِينٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧٧٧) مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سُلَيْمَةَ عَنْ أَبِيهِ ، وَأَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ (٢٨٦/١) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (٢١٩/٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَهْرِيِّ .

وكلمة ﴿مُسْتَوْرًا﴾ اسم مفعول من السَّتَر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (سائرًا) ، وهذا من قبيل المبالغة في السَّتَر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذي يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستورًا ، فما بالك بما خلفه ؟

ولا شك أن الذَّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادي ، لكن هذا الحجاب الذي يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنوي ولا يراه أحد ، كما في قوله تعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ..﴾ (٢) [الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَكِّنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ..﴾ (٤١) [فاطر] فالامر قائم على قدرة الله دون وجود عمَد تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تجعل المعنى صالحاً لأن نقول بغير عمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تجعلها ، أو نقول : إن لها عمداً لكننا لا نراها ، فهي عمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عمَد المسطح أو الرخام أو الحديد .

وفي هذا ما يدكُ الغرور في الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له في إدراكه ، وأن حواس الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقُدرة الإلهية هي التي تُسِيرُ هذا الكون ، وتأمُر كل شيء بأن يؤدي مهمته في الحياة ، وإن شاء عطَّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه في ملكه مرة واحدة ، بأن جعل فيه النواميس والقوانين ، وهي التي تحكم العالم وتُسِيرُه .

ففي قصة موسى - عليه السلام - أنه سار بجيشه ، يطارده فرعون وجنوده حتى وصل إلى شاطئ البحر فأصبح البحر من أمامه ، وفرعون من خلفه حتى قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (٦١) [الشعراء]

فأين المفر ، وما هو البحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقي مع واقع الحدث البشري ، لكن الأمر يختلف عند موسى - عليه السلام - فقال بملء فيه : ﴿ قَالِ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) [الشعراء]

فهل قالها موسى برصيد بشري ؟ لا ، بل بما عنده من ثقة في ربه ، وهكذا انتقلت المسألة إلى ساحة الخالق سبحانه ، فقال لنبيه موسى : ﴿ فَأَرْحِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ لُحْيَةٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣) [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطرقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحية الأخرى ، وتنشرح صدورهم بفرحة النجاة ، ويأخذ موسى - عليه السلام - عصاه ليضرب البحر ليعود إلى طبيعته ، وحتى

سورة الانزال

٨٥٧٥

لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ^(١) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (٢٩) [الدخان]

فَعَتَمَا نَزَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ الْبَحْرَ وَاكْتَمَلَ عَدَدُهُمْ فِي قَاعِهِ أَطْلَقَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ الْمَاءَ قَانُونَ سَيُولَاتِهِ ، فَأَطْبَقَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ ، وَكَانَتْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، شَاهِدَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَأَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَنْجَى وَأَهْلَكَ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَشَاهِدَةٌ عَلَى قِيَمِيَّتِهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ - كَمَا يَقُولُونَ - أَمْرُ قَانُونَ أَوْ نَامُوسٍ يَعْمَلُ ، وَيُدِيرُ حَرَكَةَ الْكَوْنِ ، فَكُلُ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي مَرَّتْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ جَاءَتْ مِنْ بَابِ خَرَقِ النَّوَامِيْسِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ^(٢) وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَيِّنَاتٌ فِي الْفُرْقَانِ وَحَدَّثُوكُمْ عَلَيْهَا أَلْسِنَةً رِجَالِكُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُ فِيكُمْ مِمَّا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣٠) [فصلت]

ومعنى ﴿ أَكِنَّةٌ ﴾ جمع كَنَّان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التي غُلِّقَتْ قُلُوبَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ۖ ۝ (٣٠) ﴾ [فصلت]

الكون كله خلق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإن

(١) أي : أترك البحر ساكنًا ليفترقوا فينزلوا فيه . [القاموس القويم ٢٧١/١] .

(٢) الأكنة : الأغشية ، ملوثة : كَنَّان [لسان العرب - مادة : كَنَن] .

(٣) الوقْر : يغل في السمع ، وقيل : هو أن يذهب السمع كله [لسان العرب - مادة : وقْر] .

كَانَ كَافِرًا لَا يَزَالُ يَتَقَلَّبُ فِي عَطَاءِ الرَّبُوبِيَّةِ ، فَلَا يُحْرَمُ مِنْهَا كَافِرٌ
يَكْفُرُهُ وَلَا عَاصٍ بِمَعْصِيَتِهِ ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لُئِمْدُ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠) ﴾ [الْاِسْرَاءِ]

وَسَبِقَ أَنْ فَرَّقْنَا بَيْنَ عَطَاءِ الرَّبُوبِيَّةِ الْمُتَعَمِّلِ فِي كُلِّ نِعَمِ الْحَيَاةِ
وَبَيْنَ عَطَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَهُوَ التَّكْلِيفُ الَّذِي يَقْتَضِي عِبَادًا وَمُسْعَبُودًا ،
وَأَفْعَلُ وَلَا تَفْعَلُ .

إِذَنْ : عَطَاءُ الرَّبُوبِيَّةِ عَامٌ لِلْجَمِيعِ وَدَائِمٌ لِلْجَمِيعِ ، فَكَانَ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ يَقِفَ مَعَ نَفْسِهِ وَقِفَّةً تَأْمُلُ فِي هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي تُسَاقُ إِلَيْهِ
دُونَ سَعْيٍ مِنْهُ أَوْ مَجْهُودٍ ، هَذِهِ الشَّمْسُ وَهَذِهِ الْأَرْضُ وَهَذَا الْهَوَاءُ ،
هَلْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهَا ؟ هَلْ تَعْمَلُ لَهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّهَا أُولِيَّاتُ النِّعَمِ الَّتِي
أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَجَلِهِ ، وَسَخَّرَهَا بِقُدْرَتِهِ مِنْ أَجَلِهِ ، أَلَا تَدْعُوهُ
هَذِهِ النِّعَمُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟

وَسَبِقَ أَنْ ضَرَبْنَا مَثَلًا لِلْاِسْتِدْلَالِ عَلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ بِمَا أَوْدَعَهُ
فِي الْكَوْنِ مِنْ ظَوَاهِرٍ وَأَيَّاتٍ بِالرَّجُلِ الَّذِي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ فِي
صَحْرَاءَ ، حَتَّى أَوْشَكَ عَلَى الْهَلَاكِ ، وَقَجَآةً رَأَى مَائِدَةً عَلَيْهَا مَا يَشْتَهِي
مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، أَلَا تَتَنَبَّرُ فِي نَفْسِهِ تَسَاقُلاً عَنْ مَصْدَرِهَا قَبْلَ أَنْ
تَمْتَدَّ إِلَيْهَا يَدُهُ ؟

وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ الَّذِي يَتَقَلَّبُ فِي نِعَمٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَقَدْ طَرَأَ
عَلَى الْكَوْنِ فَوْجِدُهُ مُعَدًّا لِاِسْتِقْبَالِهِ مُهَيِّئًا لِمَعِيشَتِهِ ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ
يُجْرَى عَمَلِيَّةُ الْاِسْتِدْلَالِ هَذِهِ ، وَيَأْخُذَ مِنَ النِّعْمَةِ دَلِيلًا عَلَى الْعَنِيمِ .

وَالْحَقُّ ثَبَارِكُ وَتَعَالَى لَا يَمْنَعُ عَطَاءَ رَبُوبِيَّتِهِ عَمَّنْ كَفَرَ ، بَلْ إِنْ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٥٧٧

الكافر حين يتمكن الكفر منه ويُفلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ ۝ (١٠) ﴾ [البقرة]

إذن : فقلوه تعالى : ﴿ رَجَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ۖ ۝ (٤٦) ﴾ [الاسراء] لم تأت من الله ابتداءً ، بل لما أحبوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا في أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفرًا ، ومالما أنهم يحبونه فكثردهم منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ۖ ۝ (٤٦) ﴾ [الاسراء]

أي : كراهية أن يفقهوه ؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رغمًا عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فانه لا يريد منا قوالب تخضع ، بل يريد قلوباً تخضع ، وإلا لو أرادنا قوالب لما استطاع أحد منا أن يشذ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفي سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب ؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فانه تعالى يريد القلوب ، يريد لها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكنة على قلوبهم ، وأحبوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. ﴾ (٤٦) [الإسراء]

(وَقْرًا) أى : صَمَم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ؛ لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سماعه وكان به صمماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا .. ﴾ (٤٦) [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيت لهم بما يُخَوِّفهم ويُزججهم . وبالله لو أن قضية الإيمان ليست فطرية موجودة في الذات وفي ذرات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فمِمَّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانتقار الطبع ، وانتقار الفطرة التي يعترىها غفلة ، فإذا ذكر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين في خوفٍ ونفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (٤٧)

الحق سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أن ينتبهوا إليها ويراعوها ، يأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٥٧٩

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا
فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا في أنفسهم ،
ولم يقولوا لاحد ، فمن أخير محمداً بهذا القول الذى لم يخرج إلى
عالم الواقع ، ومن أطلعه عليه ؟ ألا يدعوه هذا الإعلام بما يدور في
نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يخفى عليه شيء ،
فهو أعلم بأحوالهم هذه : الأول : يستمعون إليك ، والثاني : وإن هم
نجوى ، والثالث : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم
يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حبٍ للغة
وشغف بأساليب البيان : لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس
ما ينبغ فيه قومه ، لتكون أوضح في التحدى ، هكذا شأن الحق
سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر
والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ،
فعرّفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع
القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مرهفة للأسلوب ومملكة
عربية أصيلة . إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرّون عليها ،
ولديه منهج سيقتّوض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإن كانوا

مُعْجِبِينَ بِالْقُرْآنِ [عَجَابًا بَيَانِيًا] بِلَاغِيًا بِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنْ مَلَكَاتٍ عَرَبِيَّةٍ .

فَيُرَوَّى أَنَّ كِبَارًا مِثْلَ : النَّضَرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَأَبِي سَفْيَانَ ، وَأَبِي لَهَبٍ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ بَعْدَ أَنْ يَنَامَ النَّاسُ - مِمَّنْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُمْ : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ » - كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى الْبَيْتِ يَتَسَمَّعُونَ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَلَمَّا ذَا يَحْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ سَمَاعِ هَذَا الضَّرْبِ الْبَدِيعِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَقَدْ حَرَمُوا مُوَاجِهَتَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ مِنْهُ ، فَكَانُوا عِنْدَ انْتِصَرَفِهِمْ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا مُتَسَلِّلًا مُتَخَفِيًا ، فَكَانُوا مَرَّةً يَكْذِبُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ ، وَمَرَّةً يَعْتَرِفُونَ بِمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ حُبِّ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ ^(١) .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] أَيْ : بِالْحَالِ الَّذِي يَسْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ بِحَالٍ إِعْجَابٍ . ثُمَّ : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجَوَى .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] مِنَ التَّلَاجِي وَهُوَ الْكَلَامُ سِرًّا ، أَوْ : أَنَّ نَجَوَى جَمْعُ نَجَى ، كَقَتِيلٍ وَقَتْلَى ، وَجَرِيحٍ وَجَرْحَى .

فَالْمَعْنَى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، وَإِذْ هُمْ مَتَنَاجِيُونَ أَوْ نَجَوَى ، فَكَانَ كُلُّ حَالِهِمْ تَنَاجٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجَوَى .. ﴾ [الْإِسْرَاءِ] فِيهِ مِبَالِغَةٌ ، كَمَا تَقُولُ : رَجُلٌ عَادِلٌ ، وَرَجُلٌ عَدُلٌ . وَمِنْ تَنَاجِيهِمْ مَا قَالَ أَحَدُهُمْ بَعْدَ سَمَاعِهِ لآيَاتِ الْقُرْآنِ : « وَاشْءٌ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ^(٢) ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمِثْمَرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمْغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ » ^(٣) .

(١) أورد ابن هشام هذه القصة في السيرة النبوية (٢١٥/١) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرواق . [لسان العرب - مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٠/١) .

ثم تأتي الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبِيعُونَ
إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧) [الاسراء]

وهذا هو القول المعلن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر
مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن .
وهذا كله إفلاس في الحجة ، ودليل على غباثتهم العقدي .

وكلمة (مَسْحُورًا) اسم مفعول من السحر ، وهي تخيل الفعل .
وليس فعلاً ، وتخيل القول وليس قولاً ، فهي صرّف للنظر عن إدراك
الحقائق ، أما الحقائق فهي ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى - عليه السلام - من جنس السحر
وليست سحراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحراً ، فقد انقلب
العصا حية تبلى حبال السحرة وعصيتهم على وجه الحقيقة ، لكن لما
كانت المعجزة في مجال السحر ظنّها الناس سحراً ؛ لأن القرآن قال
في سحرة فرعون : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ (١١٦) [الاعراف] وقال في
آية أخرى : ﴿يُخَوِّلُ إِلَهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٦٦) [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا
عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى - عليه
السلام - وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من
موسى ليس من سحرهم وتغليلهم أنه حينما قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾ (١٧) [طه]

فأطال موسى - عليه السلام - الكلام ؛ لأنه أحب الأتس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال بسوجزا : ﴿ وَلِي فِيهَا مَكْرَبٌ آخَرُ ۚ ۞ (١٩) ﴾ [طه]

فهذا هو مدى علمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿ قَالَ أَتَقْنَأُ يُنَمُّوسَى ۚ (٢٠) ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢١) ﴾ [طه]

فهل خُيِّلَ لموسى أنها حية وهي عصا ؟ أم أنها انقلبت حية فعلا ؟ إنها حية فعلا على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوَجَّسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُرْسَى (٢٢) ﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حية حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٢٣) ﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحرا ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا برب موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُونَ إِلَّا وَجْهًا مُسْحُورًا (٢٤) ﴾ . [الإسراء]

أى : سحره غيره . وهذا قول الظالمين الذين يُلْفَقُونَ لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضا : ساحر . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [يونس]

(١) مش الشجر بهشه : ضربه بعصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْلَىٰ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه] أى : أسقط بعصاى أوراق الشجر على غنمى لتأكلها . [القاموس اللاتينى ٢٠٢/٢] .

فَمِرَّةٌ قُلْتُمْ : ساحر . ومرة قُلْتُمْ : مسحور . وهذا دليل التخيُّط
واللَّجج ، فإن كان ساحراً فعندكم من السحرة كثيرون ، فلماذا
لا يُواجهونه بسحر مثل سحره ؟ ولماذا لم يسحروكم أنتم كما سحر
غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسحر الساحر ؟

وإن كان مسحوراً سحره غيره ، فهل جرَّبْتُمْ عليه فى سحره
كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن :
فهذا اتهام باطل وقول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأيَّيتم عليه ،
ولم يُصِيبْكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ،
وبالله أمثلكم أيها العرب ، يا أرباب اللغة والفصاحة والبيان - يخفى عليه
أن يُفرِّق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ،
ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسَل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام
البشر ، فكلام البشر قسمان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من
دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قُبرَات مثلاً فى كتب الأدب تجد الكاتب يقول : هذا العبد
محمود عواقبه ، وهذه النُبوَّة غُمة ثم تتجلى ، ولن يريينى من سيدى
أن أبطأ سيبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضاً
أحفلها ، وأثقل السحاب مشياً أحفلها ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل
كتاب ، له الحمد على احتياله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإن يكن الفعل الذى ساءَ واحداً فأفعاله اللآئى سررنَ ألوفُ

فلا شك أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تميز
أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته
فتجدها تنساب انسياباً لا تلاحظ فيه أنك انتقلت من نثر إلى شعر ،
أو من شعر إلى نثر . وقرأ قول الله تعالى : ﴿ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) [الحجر]

أجر عليه ما يجزبه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً
شعرياً : مستفعل فاعلات وكذلك : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ ﴾ (٥٠) [الحجر] تعطيك الشطر الثاني من البيت ، لكن هل لاحظت
ذلك في سياق الآيات ؟ وهل لاحظت أنك انتقلت من شعر إلى نثر ،
أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يقال له : شعر ولا نثر . وهذا الأمر
لا يخفى على العربي الذي تمرس في اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع
تمييز الجيد من الرديء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٤٨)

أي : تعجب مما هم فيه من تخبط ولجج ، فمرة يقولون عن
القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ،
وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أنَّ الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرْسَل وهو النبي ﷺ ومُرْسَلٌ بِهِ وهو القرآن الكريم ، وقد تحيَّط الكفار في هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم في الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ﴿[الزخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَسْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَآبٍ إِلِهِم﴾ (٣٢) ﴿[الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ١٩ فيبدل أن يقولوا : فاهدنا إليه قراهم يُفضِّلُون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كبرهم وعنادهم وحماستهم أمام كتاب الله .

لذلك ، قال الحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمِئِنُّ قلب رسوله ، ويتحصل عنه الإيذاء في قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ ..﴾ (٣٣) ﴿[الأنعام]

أي : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَرَأَيْنَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٤) ﴿[الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهم مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجرؤون على ذلك ولا يهتمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون
بآياتي ، وكلُّ تصرفاتهم في مقام الألوهية ، وفي مقام النبوة ، وفي
مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قولٌ كاذب بعيد عن الواقع ؛ لأن
ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُفسد في الإنسان آلة التفكير والاختيار
بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خلقي أي : خلقه الله تعالى
هكذا ، أو بسبب طارئ كان يُضرب الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختل
عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخر له التكليف إلى سن البلوغ
واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله ؛ لأنه لو كلفه
قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع
ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سن التكليف ليَعُوْده
الصلاة من الصغير ليكون على إلفٍ بها حين يبلغ سن التكليف ،
وليألف صيغة الأمر من الأمر .

والإنسان لا يشك في حب أبيه وحرصه على مصلحته ، فهو
الذي يُربِّيهِ ويؤفِّر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحسن ، فالحق
سبحانه يريد أن يُربِّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء
وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق ؛ لأنها أصبحت عادة .

والذي أعطى للأب حقَّ الأمر أعطاه حقَّ العقاب على تركه ليكون
التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لتُعَوِّده بالأبوة

المحسنة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذي أنعم على
وعليك .

فالعقل - إذن - شرط أساسي في التكليف ، وهو العقل الناضج
الحرّ غير المكرّه ، فإن حدث إكراه فلا تكليف .

فقرنه : ﴿النَّظْرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ .. (٤٨)﴾ [الإسراء] أى :
قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد ردّه
الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿قَدْ أَلْقَمْنَا وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ
رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ
عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فنقى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة
الخلق العظيم ، والمجنون لا خلق له ، ولا يحاسب على تصرفاته ،
فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق في وجه هذا ، ولا تملك إلا أن
تبتسم في وجهه وتشفق عليه .

ولقائل أن يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة
العقل ، وهو الإنسان الذي كرمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة
لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أن نقارن بين حال العقلاء
وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ،
فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة
فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألا يعقّب على كلامك أحد ، وأن تفعل
ما تريد .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَجْنُونِ كَذَلِكَ يَقُولُ وَيَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ، ثُمَّ يَمْتَاٰزُ عَنْكَ
أَنْ لَا يَسْأَلَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ؟ أَلَيْسَتْ هَذِهِ كَافِيَةً لِنُعُوْضِهِ عَنْ
فَقْدِ الْعَقْلِ ؟ فَلَا تَنْتَظِرْ إِلَى مَا سَلَبَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ إِلَى مَا أَعْطَاهُ مِنْ
مَيِّزَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وقوله تعالى : ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (١٨)

أى : لم يستطيعوا أَنْ يَأْتُوا بِمَثَلٍ يَكُونُ صَادِقًا وَصَارِفًا لِمَنْ يُوْمِنُ
بِكَ أَنْ يُوْمِنَ ، فَقَالُوا : مجنون وكذِّبوا . وقالوا : ساحر وكذِّبوا .
وقالوا : شاعر وكذِّبوا . وقالوا : كاهن وكذِّبوا . فَسَدَّتْ الطَّرِيقُ فِي
وُجُوهِهِمْ ، وَلَمْ يَجِدُوا مَنَافِذًا لِصَدِّ النَّاسِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْفٍ يَصُدُّ مَنْ يَرِيدُ الْإِيمَانَ بِرَسُولِ اللَّهِ ،
قَالُوا : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ
السَّمَاءِ .. ﴾ (٢٢)

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ
الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١)

فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِيجَادَ سَبِيلٍ يُعَوِّقُونَ بِهِ دَعْوَتَكَ ، بِدَلِيلٍ أَنَّهُ رَغْمُ
ضَعْفِ الدَّعْوَةِ فِي بَدَايَتِهَا ، وَرَغْمِ اضْطِهَادِهِمْ لَهَا تَرَاهَا تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ
يَوْمٍ ، وَتَتَسَّعُ رُقْعَةُ الْإِيمَانِ ، أَمَا كَيْدُهُمْ وَتَدْبِيرُهُمْ فَيَتَجَمَّدُ أَوْ يَقُلُّ .
كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا نَأْتِي الْاَرْضَ نَنْقُصُهَا ^(١) مِنْ اَطْرَافِهَا .. ﴾
(١١)

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَاْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ : « اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا نَلْقَحُ لِمُعَمِّدٍ ^(٢) الْاَرْضَ بَعْدَ الْاَرْضِ .
وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : نَقْصَانُ اَمْلِهَا وَبِرْكَتِهَا » . [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٢/٢٠٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى في قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا في أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلَفِّتَ أنظارنا إلى قضية هامة في الوجود ومنظمة في كل الكائنات ، وهي أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقَلِّبُ التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتتفاعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فتعرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمفتريات وأسباب الانحراف ، ويُصدِّرُ إلينا المبادئ الهدامة ويُشكِّكنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : ما يضركم أنتم إن فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعُوهُ يفعل ما يريد ، المهم ألا تقبلَ وألا تتفاعل مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبلنا نحن ولَهْننا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لِقَلَّةِ الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالقرب يريد أن يُثَبِّتَ نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلا أن تتأبى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنى الحضارات فى العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حيثما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مقومات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقومات ما يعطيك ويخدمك دون أن تتفاعل معه أو تطلب منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلا إذا تفاعلت معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسقي والبذر .

والمعامل في الكون يجد أن جميع ارتفاعات البشر من هذا النوع الثاني الذي لا يعطيك إلا إذا تفاعلت معه ، وقد ترقى الطموحات البشرية إلى أن تجعل من النوع الأول الذي يعطيك دون أن تتفاعل معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن في استعمال الطاقة الشمسية في مجالات جديدة لم تكن من قبل . إذن : فهذه ارتفاعات لا يُحْرَمُ منها مَنْ أخذ بالاسباب وسعى إلى الرقي والتقدم .

إذن : إن جاء يُشَكِّكَ في دينك ندَّعه ، وما يقول فليس بملوم ، إنما المعلوم أنت إن قبلت منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلِّ قائم على تربية النشء أن نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتقصير والتفريب ، ونُعَلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكنهم من الدفاع والرد بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سهلة في أيدي هؤلاء .

وهذه هي المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه في الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألا ترى الحق سبحانه في قرآنه الكريم يَعْرِضُ لِشُبَّهِ الْكَافِرِينَ وَالْمَلَاحِدَةِ وَيُفَصِّلُهَا وَيُنَاقِشُهَا ، ثم يبين زيفها ، فيقول : ﴿ كَذَّبَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف]

سورة الاسراء

٨٥٩١

فلماذا يعرضها القرآن ؟ هل لناخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكي لا تُفاجأ بها ، فإذا أنت يكون لدينا المناعة الكافية ضدها ، ولكي نتربى فيها الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أن ضربنا مثلاً فقلنا : في الشتاء ينفخ الإنسان في يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ في كوب الشاي ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف ، وكذلك حال الناس في سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار^(١) في حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفلهُ لمُتَدِق ، وإن أعلاه لمُثَمَر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، لقد استمعته بملكة العربي الشُّفُوف بكل ما هو جميل من القول ، لا بملكة العناد والكِبَر والفطوسة .

وكذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - له حالان في سماع القرآن : حال كفر وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورقّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهي تقرأ القرآن ، فصفعها بقسوة حتى أدْمَى وجهها ، فأخذته عاطفة الرحم ، وتغلّبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآن بهذه العاطفة الحانية تأثر به ، فأمن من قوره : لأن القرآن صادف منه قلباً صافياً ، فلا بد أن يُؤكّر فيه .

(١) هو : الوليد بن المغيرة . وهذا القول نقله ابن هشام في السيرة النبوية (٢٧٠/١) . وذلك أن لشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً في أمر محمد ﷺ رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قَوْلته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر . جاء بقول هو سحر يُفترق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء ومشيرته . »

فالمسألة - إذن - تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لتقبل الشيء والانفعال به .

وقد لخص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. ﴾ (١٦) [محمد] فيأتي الرد عليهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (١٨) [فصلت]

فالقُرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أن تلوم من يريد أن يلوى الناس إلى طريق الضلال ، بل دعه في ضلاله ، وربّ في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذي جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمنا نؤمن بالآخرة فسوف تتسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتميز الذي يجتهد ويجد : لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبيّ مَنْ يظن أن الدنيا هي نهاية المطاف ، وأنها الغاية التي ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك ترى مَنْ يموت في بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هي الغاية لاستوى الجميع في المكث فيها ، باختلاف الأعمار في الدنيا دليلٌ على أنها ليست غاية .

وعجيب في أمر الموت أن ترى الناس يصزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخِذ في شبابه ويُكثرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أي دنيا هذه التي تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أن تُولََّه أنامها وتُلََّقه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطئون في تقدير الغايات ؛ لأن كل حدث يُحدثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقل إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات في الدنيا إلى أن يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهي أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أن يصل إلى هذه الغاية .

إذن : فلا بد للإنسان أن يتمبّ أولاً ، ويبدل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدمية تتناسب مع مجهودك الأول ، فمن اكتفى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرج من الجامعة ، فكلُّ مرتبته ومكانته ؛
لأنك تعيش في الدنيا بالأسباب وعلى قدر ما تعطى تأخذ .

إذن : فسمايتك في الدنيا أن تكون مسخوفاً ، مع أن خادمك قد
يتمرد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفَّر عليك هذا كله ،
وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أن يخطر الشيء على
بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، وفي الآخرة
تعيش بمُسَبَّبِ الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة
لرُحِّجَتْ كِفَّةُ الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هي عمرٌ فيها فقط ،
وليس عمر الدنيا كله ، كما يطوُّ للبعض أن يُحدِّدَ عمر الدنيا بعدة
ملايين من السنين ، فما دَخَلَكَ أنت بكل هذه الملايين ؟

فالدنيا - إذن - هي عمرى فيها ، وهذا العمر مظلون غير مُتَيَقِّن ،
وعلى فرض أنه مُتَيَقِّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهى
حتماً بالموت . أضِفْ إلى ذلك أن نعيمك في الدنيا على قدر سَعْيِكَ
وَأَخْذِكَ بأسبابها .

أما الآخرة فهي باقية لا نهاية لها ، فلا يعترها زوال ولا يُذهيها
الموت ، كما أن مدتها مُتَيَقِّنة وليست مظلونة ، ونعيمك فيها ليس على
قدر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيُّهما أحسن ؟ وأيُّهما أولى بالسَّعْيِ والعمل ؟ ويكفى أنك في
الدنيا مهما توفَّر لك من النعيم ، وإن كنت في قمة النعيم بين أهلها
فإنه يُنْقَصُ عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أن تفوتَ هذا النعيم

سُورَةُ الْاِنْشِرَاقِ

٨٥٩٥

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هر بالفقر ، فهي نعمة مُكْدَرَةٌ ، أما في
الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأَيُّ الصفتين أربح
إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

أَوْنَا الْمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٤٩)

الاستفهام في الآية استفهام للتعجب والإنكار لموضوع البعث يوم
القيامة بعد أن صاروا رُفَاتًا وعظامًا .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشيء ، وهو التراب أو الحُطَام ،
وكذلك كل ما جاء على وزن (فَعَال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية
الوجود وبداية خلق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذي
استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا
تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقل في الماضي ،
وهكذا إلى أن نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم
وحواء ، فمن أين أتيا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن
يُفَكَّرُوا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تركى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن
الناس سوف يتخبطون فيها ، فيتبهنأ الخالق سبحانه بمناعة إيمانية
عقدية في كتابه العزيز ، حتى لا تتساق وراء الذين سيتهورون
ويَهْرَفُونَ بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرودا ،

وهذه مقولة باطلة يسهل رُدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القردة
الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين
أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأت ، إنها مجرد شوشرة
وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا
إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم
انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أن يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى
لا نُصْغِيَ إلى أقوال المضللين الذين يخوضون في هذه الأمور على
غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزلل ؛ لأن مثل هذه القضايا
لا تخضع للتجارب العملية ، ولا تُؤخَذُ إلا عن الخالق سبحانه فهو
أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنْفُسِهِمْ ۖ ۝ (٥١) ﴾ [الكهف] أى : لم يكن معى أحد حين خلقت السماء
والأرض ، وخلقت الإنسان ، ما شهدنى أحد ليُصِفَ لكم ما حدث
﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً ۝ (٥١) ﴾ [الكهف] أى : ما اتخذت من
هؤلاء المضللين مُسَاعِداً أو مُعَاوِناً ، وكان الحق سبحانه يقول لنا :
احكموا على كل من يخوض في قضية الخلق هذه بانه مُضِلٌّ فلا
تستمعوا إليه .

ولكى تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر
مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجدوى العقل حينما
ينضبط في الماديات العملية ، أما إن جنح بنا فلا نجنى من وراءه
إلا الحُمق والتخاريف التي لا تُجدى .

وكلمة « العقل » نفسها من العقل الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أن تضبط العقل فى المجال الذى تُجود فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أى مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقيين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فمن الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُونَ بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أن تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - والله المثل الأعلى - وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طرُق الباب - فكلنا نتفق فى التعمُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصور أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه تَذِيرٌ ،
وآخر يرى أنه بَشِيرٌ . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن
اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة
شيئاً ، وتركوا لعن وراء المادة أن يُظهر لهم عن نفسه لراحوا
واستراحوا ، كما أننا لو قلنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت
لكذا ، وانتهت المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿ أَأَنذَاكُمَا عِظَامًا
وَرَفَاتًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ
مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢٤)

[يونس]

وبقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ ﴾^(١) لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا
أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

[الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ
عَلَيْهِ ۚ ﴾ [الروم] لإعادة الشيء أهون من خلقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

(١) قال السدي : السجل ملك مُرَكَّل بالصف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل لطواه ورقه
إلى يوم القيامة . [أورد السيوطي في الدر المنثور ٦٨٢/١] قال ابن كثير في تفسيره
(٢٠٠/٢) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل في المصطفى ، وعلى هذا يكون معنى
الكلام : يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب » .

لنَشْكِيكَ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَمَنْ مَغَالِطَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ
قَالُوا : مَا الْحِلُّ إِذَا مَاتَ إِنْسَانٌ مِثْلًا ثُمَّ تَحَوَّلَ جَسَدُهُ إِلَى رَفَاتٍ
وَتَرَابٍ ، ثُمَّ زُرِعَتْ فَوْقَهُ شَجَرَةٌ وَتَغَذَّتْ عَلَى عَنَاصِرِهِ ، فَإِذَا أَكَلَ
إِنْسَانٌ مِنْ ثَمَارِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَسَوْفَ تَنْتَقِلُ إِلَيْهِ بِالتَّالِيِ عَنَاصِرُ مِنْ
عَنَاصِرِ الْمَيِّتِ ، وَتَتَكَوَّنُ فِيهِ ذَرَاتٌ مِنْ ذَرَاتِهِ ، فَهَذِهِ الذَّرَاتُ الَّتِي
تَكُونَتْ فِي الثَّانِي نَقُصَتْ مِنَ الْأَوَّلِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْبَعْثُ - إِذَنْ - عَلَى
حَدِّ قَوْلِهِمْ ؟

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَمْ يَفْطَنُوا إِلَى أَنْ مُشَخَّصَ
الْإِنْسَانَ شَيْءٌ ، وَعَنَاصِرُ تَكْوِينِهِ شَيْءٌ آخَرٌ .. كَيْفَ ؟

هَبْ أَنْ إِنْسَانًا زَادَ وَزَنَهُ وَنَصَحَهُ الطَّبِيبُ بِإِنْقَاصِ الْوِزْنِ فَسَمِعَ
إِلَى ذَلِكَ بِالطَّرِيقِ الْمَعْرُوفَةِ لِإِنْقَاصِ الْوِزْنِ ، وَهَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ سَوَاءٌ زِيَادَةُ
الْوِزْنِ أَوْ إِنْقَاصُهُ مُحْكَمَةٌ بِأَمْرَيْنِ : التَّغْذِيَّةُ وَالْإِخْرَاجُ ، فَإِلْنِسَانُ يَنْمُو
حِينَمَا يَكُونُ مَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ غِذَاءٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُخْرِجُهُ مِنْ فَضْلَاتٍ ،
وَيُضْعَفُ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ بَعَكْسِ ذَلِكَ ، فَالْوَلَدُ الصَّغِيرُ يَنْمُو لِأَنَّهُ يَأْكُلُ
أَكْثَرَ مِمَّا يُخْرِجُ ، وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ يُخْرِجُ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ ؛ لِذَلِكَ يَضْعَفُ .

فَلَوْ مَرَضَ إِنْسَانٌ مَرَضًا أَهْزَكَةً وَانْقَصَ مِنْ وَزْنِهِ ، فَذَهَبَ إِلَى
الطَّبِيبِ فَعَالَجَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى وَزْنِهِ الطَّبِيعِيِّ ، فَهَلِ الذَّرَاتُ الَّتِي
خَرَجَتْ مِنْهُ حَتَّى صَارَ هَزِيلًا هِيَ بَعِيْنُهَا الذَّرَاتُ الَّتِي دَخَلَتْهُ حِينَ تَمَّ
عِلَاجُهُ ؟ إِنْ الذَّرَاتُ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ لَا تَزَالُ فِي (الْمَسْجَرِ) ،
لَمْ يَتَكَوَّنْ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا ، إِنَّمَا كَمِيَّةُ الذَّرَاتِ وَمَقَادِيرُهَا هِيَ الَّتِي تَقْوَى
وَتَشْخَصُ .

وَرَبَّنَا سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَتُهُ مِنْهُ ، قَالَ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤٤ ﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع
الاجزاء التى تكون فلانا المشخص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٥ ﴾

أى : قُلْ رداً عليهم : إِنْ كُنْتُمْ تَسْتَعِدُّونَ الْبَعْثَ وَتُسْتَعْبِدُونَهُ مَعَ
أَنَّهُ بَعَثَ لِلْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ ، وَقَدْ كَانَتْ لَهَا حَيَاةٌ فِي فِتْرَةٍ مِنَ الْفِتَرَاتِ ،
وَلَهَا إِنْفَاقٌ بِالْحَيَاةِ ، فَمَنْ السَّهْلُ أَنْ نَعِيدَ إِلَيْهَا الْحَيَاةَ ، بَلْ وَأَعْظَمُ مِنْ
ذَلِكَ ، فَفِي قُدْرَةِ الْخَالِقِ سَبِّحَانَهُ أَنْ يُعِيدَكُمْ حَتَّى وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَةٍ
أَوْ مِنْ حَدِيدٍ ، وَهِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا حَيَاةٌ فِي نَظَرِهِمْ .

وكان الحق سبحانه يتحدثهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم
من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشد من الحجارة وهو يقطعها ،
فلو كنتم حجارة لأعدناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدناكم حديداً .

ثم يترقى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿ أَوْ خَلَقْنَا مِنْكُمْ نَفْسًا كَبِيرًا ۝٥٦ وَرِكْمًا فَسَيَقُولُونَ مَنْ
يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ
رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥٧ ﴾

(١) أى : سيمركونها ويهزونها تعجباً وإنكاراً أو سخرية واستهزاء [انقاموس القويم

قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ ۝٥١ ﴾ [الإسراء]
 أى : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوَعَّلُوا فى التَّحَدُّى والبُعد عن الحياة ،
 فأننا قادر على أنْ أَهْبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على
 إطلاقها .

وقوله : ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ ۝٥١ ﴾ [الإسراء]

يكبر : أى يعظم منْ كَبُرَ يَكْبُرُ . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً
 تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۖ ۝٥ ﴾ [الكهف] أى : عَظُمَتْ . والمراد : اختاروا
 شيئاً يعظم استبعاداً أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى
 بيئتهم الحجارة والحديد ، فهُمَا أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا
 على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد .
 ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى قَرُصِيَةِ الامر إلى أنْ
 يختاروا وتجتمع نفوسهم على شيء ، يكون أعظم استبعاداً من
 الحجارة والحديد .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ ۝٥١ ﴾ [الإسراء]
 جاء هذا الشيء مُبْهَمًا ؛ لأن الشيء العظيم الذى يعظم عن الحجارة
 والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا فى أمر
 الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهَمَةً
 ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُلٌّ على حَسَبِ ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً - رضى الله عنه ، وكرَّم الله
 وجهه - عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام على
 سرعة البديهة والتمرس فى الفُتْيَا ، فأرادوا اختياره بهذا السؤال الذى

يحتاج فى الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون فى هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى ، ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فاستفهم الإمام فى هذه القضية ، وانظر إلى دقة الإستفهام واستيعاب العلم ، فلم يَقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحْضَرَةٌ فى ذهنه ، مُرْتَبَةٌ فى تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفرد أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذى استحضر درسه وأعدّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، وال نار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسفر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والرياح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشئ ويعضى لحاجته ، والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهـم يغلب النوم ، فأشد جنود الله فى الكون الهـم » .

فهذه الأجناس هى المراد بقوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ ﴾ [الإسراء] فاختاروا أياً من هذه الأجناس ، قاله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [٥١] .

[الإسراء]

أى : أن الذى خلقكم بداية قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أهون من الخلق بداية ، ولكن الجواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كانت النتيجة التى يأتى بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أول مرة ؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفرهم ، بدليل قولهم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ : الذى فطركم أول مرة ، ﴿ فَسَيُفْضَوْنَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ .. ﴾ (٥١)

معنى يُنْغِضُ رَأْسَهُ : يَهْزِئُهَا مِنْ أَعْلَى لِأَسْفَلِ ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل فى قوله ﴿ فَسَيُفْضَوْنَ ﴾ يجده فعلاً سيحدث فى المستقبل ويقع من مُختار ، والمقام مقام جدل بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوهما رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٥١) [الإسراء] فسيفضون رؤوسهم .

فكان فى وسع هؤلاء أن يكذبوا هذا القول ، فلا يُنْغِضُونَ رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به فى هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أن يعترضوا على هذا القول ويتهمروه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فما هى الآية تُقَالُ عليهم وتُحْتَسَمُ عليهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدل على غباء الكفار وحمق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَكِّلَنَّ بِقَلْبِكَ نَظْرَهَا .. ﴾ (١٤٤) [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الْبَرَاءُ كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴾ (١٤٥) [البقرة]

وهذا قول اختياري في المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألا يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مأخذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ .. ﴾ (٥١) [الاسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجب الدال على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجع منهم في النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتي الجواب : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ (٥١) [الاسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر متوقع يختلف باختلاف الراجي والمرجى منه ، فإذا قلت مثلاً : عسى فلاناً أن يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيري لك ، أما لو قلت : عسى أن أعطيك كذا ، فهي أقرب في الرجاء ؛ لأنني أتحدث عن نفسي ، وثقة الإنسان في نفسه أكثر من ثقته في الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيي فلا أعطيك ، أو يأتي وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يعطيك فلا شك أنها أقرب في

سورة الأعراف

﴿٨٦٠﴾

الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وإن كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقق وواقع لا شك فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّابِغَةُ كَهَاتَيْنِ » ^(١) وأشار بالسُّبَابَةِ والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصل بينهما ، كما أننا نقول : كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ، فالامر الآتي مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسْرَةٍ

وَتَذْكُرُونَ أَن لَّمْ تَأْتُوا بَأْزَاجًا

هذا في يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحد الخروج عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها في الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخلق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح في الأمور الاختيارية ، فهو مُختار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا تدخل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلت الإرادة عن الجوارح ، ولم يعد لها

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٥١) ، والبخاري في صحيحه

(٢٤٧/١١ - فتح الباري) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم
القيامة : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ
شَيْءٍ .. ﴾ (٢١) ﴿ [فصلت]

لقد كانت لكم وَايَةٌ علينا في دُنْيَا الاسباب ، أما الآن فنحن جميعاً
مرتبطون بالمسيب سببانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول
الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴾ (١٦) ﴿ [غافر]

ففى الدنيا ملك الناس ، وجعل مصالح أناس فى أيدي آخرين ،
أما فى الآخرة ، فالامر كله والملك كله لله وحده لا شريك له .

فقره تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الاسراء] أى : يقول لكم
أخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ
بِحَمْدِهِ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الاسراء] أى : تقومون فى طاعة واستكامة ، لا قومة
مُسْتَنْكَفٍ أو مُتَقَاعِسٍ أو مُتَغَطِرِسٍ ، فكل هذا انتهى وقته فى الدنيا ،
ونحن الآن فى الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الاسراء]
ولم يقل : فتجيبون ؛ لأن استجاب أبلغ فى الطاعة والانصياع ، كما
نقول : فهم واستفهم أى : طلب الفهم ، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أى :
تطلبون أنتم الجواب ، وتلحون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبون
عليه ، فتسرعون فى القيام .

ليس هذا فقط ، بل : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الاسراء]
أى : تسرعون فى القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد
لا يكون إلا على شيء محبوب ؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى : لأنهم عابتوا هذا اليوم الذي طالما
ذكّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألح
عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذبوا ، وما هم اليوم يرون
ما كذبوه وتكشّف لهم الحقيقة التي أنكروها ، فيقومون حامدين لله
الذي أنبأهم ولم يُقصّر في نصيحتهم . كما أنك تتصح ولذك بالذاكرة
والاجتهاد ، ثم يخفق في الامتحان فيأتيك معذراً : لقد نصحتني
ولكنني لم أستجب .

إذن : فبيان الحق سبحانه لأمر الآخرة من النعم التي لا يعترف
بها الكفار في الدنيا ، ولكنهم سيترفون بها في الآخرة ، ويعرفون
أنها من أعظم نعم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى في سورة
(الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله
تعالى : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدًا (١) مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسًا فَلَا تَتَصَدَّرَانِ (٢٥) ﴾
[الرحمن] فالآية في نظرهم تتحدث عن نعمة وعذاب ، فكيف يناسبها :
﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٤) ﴾ [الرحمن]

والعوامل في الآية يجدها منسجمة كل الانسجام : لأن من النعمة
أن تنبّهك بالعظة للأمر الذي ينتظرك والعذاب الذي أعد لك حتى
لا تقع في أسبابه ، فالذي يعلم حقيقة العذاب على الفعل لا يقتصره .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون في قضية البعث لا يقين
عندهم بها .

(١) الشواط : القطعة من اللهب ليس فيها دخان ، [القاموس القويم ٢٦١/١] .

﴿ إِنَّ لَيْثَكُمْ ﴾ أى : أقمتم فى الدنيا ، أو فى قبوركم ؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامت انتهت فلن يبقى منها شيء . وكذلك فى القبور ؛ لأن الميت فى قبره شبيه النائم لا يدرك كم لبث فى نومه ، ولا يتصور إلا النوم العادى الذى تعودده الناس .

ولذلك كل من سُئل فى هذه المسألة : كم لبثتم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداث فيها ، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (١١٦)

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٧) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٨) ﴿

أى : لم يكن لدينا وعى لنعد الأيام ، فاسأل العادين الذين يستطيعون العد .

وفى قصة العزيز الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ (٢٥٩) [البقرة] على مقتضى العادة التى ألفها فى نومه ، فبوضّح له ربه : ﴿ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ^(١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ .. ﴾ (٢٥٩) [البقرة]

فالمدة فى نظر العزيز كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبون شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقولان

(١) وذلك أنه كان معه قنصا ذكر عنب وتين وعصير ، فوجدته لم يتغير منه شيء ، لا العصير استعمال ، ولا التين حمض ، ولا التين ولا العنب نقص ، فله ابن كثير فى تفسيره (٢١٤/١) .

صادقان . والحق سبحانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقد بعث العزيز من موته ، فوجد حماره عظيماً بالية يصدق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامه وشرايه فوجده كما هو لم يتغير ، وكان العهد به يوم أو بعض يوم ، ولو مرَّ على الطعام مائة عام لتغير بل لتحلَّ ولم يَبْقَ له أثر .

وكان الخالق سبحانه قبض الزمن وبسطه في وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَوْلُ الحق سبحانه مائة عام صدق ، وقول العزيز ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ صدق أيضاً ، ولا يجمع الضدين إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبوة وتكذيبهم للنبي ﷺ ، ثم عن موقفهم من منهج الله وكفرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أن يُعطينا الدروس التي تُربِّبُ منهج الله في الأرض ، فقال تعالى ^(١) :

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٢ ﴾

وسبق أن أوضحنا الفرق بين عبيد وعباد ، وأنهما جَمْعُ عبيد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيده في الأمور القهرية ، وتعرَّد عليه في الأمور الاختيارية ، أما عباد فتدل على مَنْ خضع لسيده في كُلِّ

(١) ذكر الراحدى في أسباب النزول (ص ١٦٦) أن هذه الآية نزلت في عصر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، فأمره الله تعالى بالعفو . وقال القرطبي في تفسيره (٤٠٠٤/٥) : « ذكره الثعلبي والماوردي وابن عطية والواحدى » .

(٢) نزغ الشيطان بينهم : أفسد وأخرى . ونزغ الشيطان : وسأسه ونخسه في القلب بما يُسَوِّلُ للإنسان من المعاصي . [لسان العرب - مادة : نزغ] .

أموره القهرية والاختيارية ، وفضلُ مراد الله على مُرادِهِ ، وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٢) وَالَّذِينَ يَبْتِرُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٣﴾ [الفرقان]

وهذا الفرق قائم بينهما في الدنيا دون الآخرة ، حيث في الآخرة تتحلّ صفة الاختيار التي بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع في الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد ؛ لذلك قال تعالى في الآخرة للشيطان : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) [الفرقان] فسمّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (٥٢) [الأنعام]

أى : العبارة التي هي أحسن ، و كذلك الفعل الذى هو أحسن . والمعنى : قلّ لعبادى : قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن ؛ لأنهم مؤتمرون بأمرك مُصدقون لك .

و ﴿ أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسن الأعلى الذى تتشقق منه كلُّ أَحْسَنِيَّاتِ الحياة ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لا إله إلا الله » (١) .

لأن من باطنها ينبت كل حسن ، فهي الأحسن الكبيرة ؛ لأنك ما دُمْتَ تَوْمَنُ بالله فلن تتلقّى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجو إلا هو ، وهكذا يحسنُ أمرُك كُلُّهُ في الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه الترمذى في سننه (٢٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها ؛
لأنك تريد أن تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفى بنفسك فقط ، بل تحب
أن يُشاركك الآخرون هذا الخير ؛ لذلك إذا أردنا أن نتطوّل بهذه الكلمة
نقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، فمعنى أشهد يعنى عند من لم يشهد ،
فكان إيمانك بها دعاءك إلى نقلها إلى الناس ، وبثها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الأحسن هو : كل كلمة
خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى :
﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ (١٢٥) [النحل]

أو نقول : الأحسن يعنى التمييز بين الأقوال المتناقضة وقررها
إمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن - إذن - تشيع لتشمل كل حسن في أى مجال من
مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولناخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا
كان في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شك أن المعارض كآرة لمبدئك
العام ، فإن قسوت عليه وأغلظت له القول أو اخترت العبارة السيئة
فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف في مبدأ عام إلى عداء شخصي .

وإذا تحولت هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أجبت أوار
غضبه ؛ لأنه في حاجة لأن ترفق به ، فلا تجمع عليه مرارة أن
تُخرجه مما ألف إلى ما يكره ، بل حاول أن تُخرجه مما ألف إلى ما
يحب لتطفئ شرارسته لعداوتك العامة ، وتُقرّب من الهوة بينك وبينه
فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السُّيُئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ [فصلت]

وقد يطلع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتي هي أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتي ، ولم أكسب محبته ، نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتُ بالتي هي أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أن تُجرب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌ ، فادفع بالتي هي أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروع قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنْ الَّذِي

ادْفَعْ - قَدَيْتُكَ - بالتي حتى تَرَى فَوْكَذَا الَّذِي^(٢)

لكن ، لماذا نقول التي هي أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ..﴾ ﴿٥٣﴾ [الاسراء] والنزغ هو نخس الشيطان ورسوسته ، وقد قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..﴾ ﴿٢٠٠﴾ [الاعراف]

فإن كنت مُتَتَبِهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نخسه ونزغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس] أي : الذي يخنس ويختفي إذا ذُكِرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومُرَّتْ عليك حيلة ،

(١) الولي : الصديق والنصير ، وهو التابع المحب ، والولي : ضد العدو . [لسان العرب - مادة : ولي]

(٢) قوله « حتى ترى لماذا الذي » أي : حتى ترى تحقيق ما في الآية الكريمة : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت] فنقلب العداوة محبة بعداوة دفعت بالتي هي أحسن .

سورة الاسراء

٨٦١٢

واستجبت لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مجس للزمن واختيار لانتباهه وحذره من هذا العدو ، فينزعه الشيطان مرة بعد أخرى ليُجرّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فانت حين تجادل بالتي هي أحسن لا تعطى للشيطان فرصة لأن يؤجج العداوة الشخصية بينكما ، فيزيّن لك شتمه أو لعنه ، وهكذا يتحول الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

لذلك إذا رأيت شخصين يتنازعان لا صلة لك بهما ، ولكن ضايقتك هذا النزاع ، فما عليك إلا أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتصدى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذي يطفىء نار الغضب ، ويطرده الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك في هذا الموقف برجل الإطفاء الذي يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة في الإصلاح ، وليس لك مآرب من هذا التدخل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ۝٥٣ ﴾ [الإسراء]

تلاحظ أن نزغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقدي ، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يقل يوسف : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ ۝١١٠ ﴾ [يوسف]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خيريتهم ، وأنت تستطيع أن تميز بين الخير والشرير ، فتجد الخير يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضامن إلى أهون

الاشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بآهون الاشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قول إخوة يوسف : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ۚ ۞ ﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به : ﴿ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ۚ ۞ ﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لآخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَتْلُفُهُ بِعُضِّ السَّيَّارَةِ ۚ ۞ ﴾ [يوسف] وهكذا تضاعف الشر في نفوسهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٢ ﴾ [الإسراء]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم - عليه السلام - فهي عداوة مُسَبِّقَةٌ ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ ﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يُعلم ابنه علوم الحياة ووسائلها أن يُعلمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم - عليه السلام - ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكن على حذر من خواطره وسواسه ، وبذلك يُربى في ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونزغهِ ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الإبناء حتى ترسخ في أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٢ ﴾ [الإسراء]

أى : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ لَنْ أَخْرُقَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَكِنُ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ ﴾ [الإسراء]

أى : لاتعهدتهم بالإضلال والقواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

في هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إن شاء يرحمنا بفضله ، وإن شاء يُعَذِّبُنَا بِعَدْلِهِ ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالة واقفاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحْسُنُ بنا أن ندعو الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُبَيِّسُ الْعَصَاةَ مِنْ فَضْلِهِ ، ولا يملن لهم بعَدْلِهِ ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأولون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمتنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر في أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذي يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ » ^(١) .

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأولئ أصحاب رسول الله ﷺ وانتقروا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن معه لا تصل إليه شره مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالتحقوا ببلائه حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٠٩/٢) وابن هشام في السيرة بتخرجه (٣٢١/١) .

لقد كانوا في مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ،
فالضعيف منهم عاجزون عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية
الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على
الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أؤمر ،
لم أؤمر ... » .

لأن الله تعالى أراد ألا يبقى للإيمان جندى إلا وقد مسه العذاب ،
وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمل الشدائد ؛
لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله في الأرض ، ولا شك أن
القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بد من تمحيص
المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام في عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرت
به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربة
المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمرون على حمل منهج
الله ، والانسياح به في شتى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى في
صفوف المؤمنين من يحمل راية الإيمان لمغرم دنياوي ، فالغنيمة في
الإسلام ليست في الدنيا بل في جنة عرضها السموات والأرض .

لذلك ، ففي بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل
يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم
أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم
لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي
أن تؤوونا وتتصرونا وتعنونا مما نعتصم منه أنفسكم ، قالوا : فما
لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

○ ٨٦١٧ ○

لا ، بل قال : « لكم الجنة » ^(١) قالوا : فلك ذلك .

فهذه هي الجائزة الحقيقية التي ينبغي أن يفوز بها المؤمن : لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا في ظل الإسلام ، إذن : فالتبى صادق في هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بد لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يُرْحَمَكُم ۖ ۝ (٥٤) ﴾ [الإسراء] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن في الحبشة ﴿ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۖ ۝ (٥٤) ﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مقصوداً لكي يُحصى إيمانكم ويُميز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝ (٥٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوض من صاحب الشأن بفعل شيء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولست مستولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولست وكيلاً عليهم : لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۖ ۝ (٥٥) ﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنفاصاً من قدره ، بل هي رحمة به ورافة ، كأنه يقول له : لا تُحمل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه في آية أخرى بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٥٠/٢) من حديث عامر الشعبي وأحمد في مسنده

(٤/١٢٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٩٤/٤) لابن سعد في الطبقات الكبرى .

(٢) بضع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزنًا . [القاموس المفيد ٥٦/١] .

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - في هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمة به ، وشفقة عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصَحِّح للرسول خطأ وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه بُرُكَّتِي (٣)﴾ [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذي جاءه سائلاً عن الدين ، وشقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكان الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حرصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرْضَاتُ أَرْوَاجِكَ (١) وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢)﴾ [التحريم]

والتحريم تضيق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيق على نفسه ، وحرم عليها ما أحله الله لها . كما تعتب على ولدك الذي سهر طويلاً في المذاكرة حتى أرق نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)﴾

(١) أخرج النسائي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تنزل به عائشة وحفصة حتى حرهما ، فانزل الله عز وجل : ﴿يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرْضَاتُ أَرْوَاجِكَ .. (٥٥)﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٨٦/٤) .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة في العلم ، وإنَّ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أن يتصف بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمتنع عباده أن تشرب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى امتك ؛ وقد سبق الآية بقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ .. ﴾ (٥٤) [الإسراء] ولكن علمه سبحانه يسع السموات والأرض علماً مطلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يقسم الله الأرزاق ويوزع المواهب بين العباد ، كلُّ على حسب حاله ، وعلى قدر ما يصلحه .

فإن رأيتَ شخصاً ضيق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يصلحه إلا ما قسمه الله له ؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله تسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطى كلاً على قدر استعداده عطاء ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذي ضاق صدره بالإيمان ، وتمكن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه ممّا أحبّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمن في السموات والأرض يعطى عباده على قدر ما يستحقون في الأمور القهرية التي لا اختيار لهم فيها ، فهم فيها سواء ، أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأخذها بالأسباب ، فالأسباب موجدة ، والعانة موجدة ، والجوارح موجدة ، والعقل موجد ، والطاقة موجدة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقى بحياته على قدر استطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ ۝٥٥﴾

[الإسراء]

مَنْ الَّذِي فَضَّلَ ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يُفَضِّلُ بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفَضِّلَ إلا مَنْ فَضَّلَهُ الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى يملك أن يُجَازِيَ على حَسَبِ الفضل ، أما نحن فلا نملك أن نُجَازِيَ على قَدْرِ الفضل .

لذلك قال النبى ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »^(١) .

لأن الذى يُفَضِّلُ هو الله تعالى ، وقد نُصِّ على هذا التفضيل فى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ ۝٢٥٢﴾

[البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أولى العزم من الرسل قد فَضَّلَهُمْ عن غيرهم لما تحملوه من مشقة فى دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والاتباع به ، أو من طول مدتهم من قومهم .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ۝٥٥﴾

[الإسراء]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٢٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النبى ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .
 شرحه لصحيح مسلم (١٤١/١٥) : « قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما : أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : أنا سيد ولد آدم .. والثانى : أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حظ مرتبة يونس عليه السلام » .

سُورَةُ الْأَنْزِيلِ

٨٦٢١

فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذي أنزل عليه ؟ قالوا :
لأن داود عليه السلام أوتي مع الكتاب الملك ، فكان نبياً ملكاً ، فكان
الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه ملك ، بل من
حيث هو نبي صاحب كتاب .

وفي الحديث الشريف يقول ﷺ : « لقد خُيرتُ بين أن أكون عبداً
نبيّاً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً » ^(١) .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ
كُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ وَلَا تَعْبُوا لَهُمْ ﴾

الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : قل للذين يُعارضونك في الوحدانية
إذا مسَّكم ضرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تَكْفُرُونَ به ، بل الجأوا إلى مَنْ
زَعَمْتُمْ أنهم شركاء وأَمْنْتُمْ بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك ؛ لأن
الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة
من دون الله ينفعونهم في شيء لما دَعَوْا ربهم الذي يكفرون به
وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطفى إلا إذا كان مُستغنياً بكل ملكاته ،
بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٢) من حديث أبي هريرة قال : « جلس جبريل إلى النبي
ﷺ فتنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قيل
الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك قال : أملكك نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً .
قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : بل عبداً رسولاً . »

اختلت له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال ممن لا يملكه ، بل يطلبه ممن يعتقد أنه يملكه ،

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ .. ﴾ (٦٧) ﴿ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِياً إِلَيْهِ .. ﴾ (٨) ﴿ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضرُّ وأحاط به البلاء فلا بد أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف في الماضي وكان مستولاً عن صحة الناس ، ويقوم مقام الطبيب في هذا الوقت ، فإذا ما عُنَّ بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقلة الخبرة ليخلو له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد في رزقه ، ومَرَّتْ الأيام وأصيب الحلاق بضرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيَةً لَيْلٍ ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسَّكم الضر فاذهبوا إلى مَنْ ادعيتُمْ أنهم آلهة وادعوهمْ ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهمْ ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ .. ﴾ (٩٦) ﴿ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْوِلُوا ﴾ (٥٦) [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعذائكم ، فهم - إذن - لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويمارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر فى ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم ؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم - فرضاً - ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كشف الضر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ^(٢)
أَيْهُمْ أَقْرَبَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴾ (١٧٢) [النساء]

(١) سبب نزول الآية : أخرج مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم نفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتَقَرَّبُ به إلى الغير ، وهى الوسيلة والقربى . وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب - مادة : وسل] .

مؤلاء لا يرفضون ولا يتأبون أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرب إليه سبحانه ، فكيف - إذن - تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ .. ﴾ (٥٧) [الإسراء] أى : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أى : كلما تقرب واحد منهم إلى الله ابتغى الله أكثر من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغى القربى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٥٧) [الإسراء]

أى : يجب الحذر منه وتجنب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاك منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شك أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوجدانية فى آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أن شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. ﴾ (١٨) [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد والمعينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أن يطلب منا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته فى الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للنشء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويُغَيَّرُ من وضع

بَيِّنَةُ الْإِسْرَاءِ

٨٦٢٥

إلى وضع ، فإنَّ صَحَّتْ هذه الشهادات الثلاث فقد انتهت المسألة .
وإنَّ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟ إنَّ كان لا يدري فهو إله
ناثم لا يصلح لهذه المكانة ، وإنَّ كان يدري فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدُّعْوَى قد سلَّمت للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد
لنفسه ، فهي للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدَّعيها لنفسه .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأَشْقَاءُ إِلَىٰ ذِي
الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٤٢) [الإسراء]

أى : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذى استقرت له
الأمور واستتبَّ له الحال ، ليُجادلوه فى هذه المسألة ، أو لطلبوه
ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨)

ساعة أَنْ تسمع (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا) فاعلم أن الأسلوب قائم على
نفي وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهْلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ، أو مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها
هذا الحكم ؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات فى القرآن تُقَيِّدها
قرآنيات أخرى . وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه :
﴿ ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣٦) [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ لِهَٰذِكِ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴾ (١١٧)

[مؤد]

فهذه آيات مُخَصَّصة تُوضِّع الاستثناء من القاعدة السابقة ،
وتُثَبِّتُ المبدأ السابق والسور العام الذي جاءت به الآية ، فيكون المعنى
- إذن - وإن من قرية غير غافلة وغير مُصَلِّحة إلا والله مُهلكها
أو مُعَذِّبها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ
مُعَذِّبُوهَا ۖ ﴾ (٥٨)

[الإسراء]

﴿ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبْقَى منهم أحداً .
﴿ مُعَذِّبُوهَا ﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فلإن أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد
الناس إلى الصواب فيها ونِعِمَّتْ وتنتهى المسألة ، فلإن لم يقتنعوا
وأصروا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول
الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

والواقع أن فى حاضرتنا شواهد عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ
لأى قرية طغت وبلغت أن ينالها شىء من العذاب ، والامثلة أمامنا
واضحة ، ولا داعى لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلاء حى

يشعر بالعذاب ويُحسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما جاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذي لا يُردّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء في هذا الوقت لم يكونوا مُطالبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب اتباع النبي الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من اتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ائْتِ تَنَا مَلَكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ الْقِتَالِ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا تَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاؤُنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحمل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشى أن يفرض عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يبقَ معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهمة الإنسانية في هذا الوقت لم يكنْ عندها استعداد ونضج لأن تحمل سلاحاً في سبيل الله ، فكان على الرسول أن يُبلِّغ ، وعلى السماء أن تؤدّب بهذا اللون من العذاب الذي يستأصلهم فلا يبقى منهم أحداً .

أما في أمة محمد ﷺ فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ ۞ ﴾ [الأنعام]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَامُ بهم حَمَلُ رِسالته ونَشْرُ دعوته ، والانسياح بمنهج الله في شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقَدِّرُ غفلة الناس عن المنهج ، ويُقَدِّرُ فكرة التأسى بالجيل السابق ، فهذان مُعَوَّضَانِ في طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ۞ ﴾ [الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأسوة سيئة ، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم ، ثم بُلُغَ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثت الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِبَ في الإنسان من حُبِّ للشهوات ، وهذه الشهوات هي التي تصرفه عن منهج ربه ، فإِنْ حدثت غفلة في جيل فإنها سوف تزداد في الجيل التالي ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مؤثرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسى بالجيل السابق .

إذن : بتوالي الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث في مواكب الرسل مَنْ يُنَبِّهُ الناس .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٦٢٩

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ (١١٦) [آل عمران] لماذا ؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (١١٧) [آل عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حمل رسالة الدعوة ، وقد كرم الله أمة محمد بأن جعل كل من آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلغ الرسول من عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تبلغ من بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها ، قَرَبُ مَبْلَغِ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ »^(١) .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولاهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبئنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة في مجال حمل الدعوة ونشرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يؤتى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وترصد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعى هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جذب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٢٢) والبيهقي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فَأَنْتَ حَارِسٌ عَلَى بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسَدَّهُ بِصَدَقِ انْطِبَاعِكَ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَبِصَدَقِ انْقِيَادِكَ لِقَضَايَا الْإِسْلَامِ ، وَبِهَذَا السَّلُوكِ تَكُونُ وَسِيلَةً لِإِغْرَاءِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَرَاوِدُهُمُ الْإِيمَانُ ، وَيَتَرَاءَى لَهُمْ مَنَهِجُ اللَّهِ مِنْ بَعِيدٍ .

وَيَحْتَطِرُ لِبَعْضِ أَنْ يَأْخُذُوا الْإِسْلَامَ بِجَرِيرَةِ أَهْلِهِ ، وَيَحْكُمُوا عَلَيْهِ بِنَاءً عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا خَطَأٌ ، فَمَنْ أَرَادَ الصُّورَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْإِسْلَامِ فَلْيَأْخُذْهَا مِنْ مَنَابِعِ الدِّينِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَنِ رَسُولِهِ ، فَإِنَّ رَأْيَ بَيْنِ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ سَارِقًا فَلَا تَقُلْ : هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ حَرَّمَ السَّرْقَةَ ، وَجَعَلَ لَهَا عَقُوبَةً وَحَدًّا يُقَامُ عَلَى السَّارِقِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً عَلَى دِينِ اللَّهِ .

لِذَلِكَ فَإِنْ كَبَّرَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُفَكِّرُونَ الَّذِينَ دَرَسُوا فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِي لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى تَصَرُّفَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَحَاضِرِهِمْ ، بَلْ أَخَذُوهُ مِنْ مَنَابِعِهِ الْأَصْلِيَّةِ . وَمِنْهُمْ « جِينَو » الْفَرَنْسِيُّ الَّذِي قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْ أَطْلَعَ عَلَى أَحْوَالِنَا الْآنَ لَكَانَ فِي الْعَسَالَةِ كَلَامٌ آخَرٌ .

إِذَنْ : الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى قَضَايَا الْإِسْلَامِ نَظَرَةَ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ لَا بُدَّ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى الْإِسْلَامِ ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَةَ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا قَضِيَّةَ التَّدِينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِنْ اقْتَنَعَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ ، وَفَرَّقَ كَبِيرٌ بَيْنَ الْقَضِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْقَضِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْكَاتِبُ الَّذِي أَلْفَ كِتَابًا عَنِ الْعُظَمَاءِ فِي التَّارِيخِ وَأَسْمَاءُ : « الْعُظَمَاءُ مِائَةً أَعْظَمُهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » وَهُوَ كَاتِبٌ غَيْرُ

سورة الأنشزة

٥٨٦٢١

مؤمن ، لكنه أخذ يستقريء صفحة التاريخ ، ويسجل أصحاب الاعمال
الجليلة التي أثرت في تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة
بينهم وجد أن أعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يترب محمد في
مدرسة ، ولم يتخرج في جامعة ، ولم يجلس إلى معلم .

الم تسال نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟
ولماذا استحق أن يكون في المقدمة ؟ لقد ذكرت حيثيات النبوغ في
جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة في جامعات وعلى أساتذة
وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ في رسول الله ؟ ألم
تعلم أنه أمي في أمة أمية ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه
القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارت خلافاً بين رجال
القانون في موضوع إقامة حدّ الرجم على الزاني المحصن^(١) والجلد للزاني
غير المحصن . فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم
فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزاني المحصن سنة .

وهذا قول خاطيء ويعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنّة
الدليل وسُنّة الحكم ، فسُنّة الدليل أن يكون الأمر قرَضاً ، لكن دليله
من السنة كهذه المسألة التي معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث
ركعات وهي قرَض لكن دليلها من السنة ، أما سُنّة الحكم فيكون
الحكم نفسه سُنّة يُكاتب فاعله . ولا يُعاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً في
الركوع مثلاً .

(١) إحصن الرجل وإحصنت المرأة : تزوج وكان الزوج إحصن يحصى المتزوج من الوقوع في
الشبهات فهو مُحصن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

إذن : فرجم الزاني المحصن فَرَضَ ، لكن دليله من السنة ،
فالسُّنَّةُ هنا سُنَّةٌ دليل ، لا سُنَّةٌ حكم .

فَمَنْ يَقُولُ : إن الرجم لم يَرِدْ به نصٌ في كتاب الله ، نقول :
الدليل عليه جاء في السنة ، وهي المصدر الثاني للتشريع ، حتى على
قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففي القرآن :
﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

إذن : ففعل الرسول ﷺ كنص القرآن سواء بسواء ، وهل رجم
في عهد رسول الله أو لم يَرجم ؟ رجم فعلاً في عهد رسول الله ^(١) ،
فإن قال قائل : فهذا ليس نصاً في الرجم . نقول : بل الفعل أقوى
من النص : لأن النص قد تناول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل
تأويلًا .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد في هذه الآية ، في
قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ﴾ (٢٥) [النساء]

فيقولون : الرجم لا يُنصف . إذن : ليس هناك رجم . نقول :
أنتم لم تُقرُّوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلاء
لحيٍّ يشعر ويحسُّ بهذا الإيلاء ، والمقصود به (الجُدد) .

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٦٩١ - ١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى
رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إني زنت
فأعرض عنه فتنهني ثلثاء وجهه فقال له : يا رسول الله إني زنت فأعرض عنه حتى ثنى
لك على أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك
جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به
فارجموه . »

إِذْ : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٦٥)﴾
[النساء] أى : من الجُلْد ، وهو الذى يُنصَف ، ولو كان الحكم عاماً
لَقَالَ : فعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ، فقوله : ﴿مِنَ الْعَذَابِ ..
(٦٥)﴾ [النساء] دليل على وجود الرِّجْم الذى لا فَرْقَ فيه بين حُرّة وأمة .

وكذلك نلاحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان -
عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حينما تفقد الطير ، واكتشف غياب
الهدم : ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أُرْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. (٦٦)﴾ [النمل]

ولسائل أن يسأل : هل لا يُدُّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك
أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لا بُدَّ أن يمسَّهم شيء من هذا ؛ لأن الله تعالى لو أخر كل
العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظالم وعمُّ الفساد فى
الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع
ظلمه لأغرامهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ،
ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولعلموا أن عاقبته وخيمة ،
ولن يغفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر
عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْلُ مَعْنً لا يؤمنون بها ..

لذلك لما مات رأس من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يرَ الناس
عليه أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجَازَى
فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أن يُقْلَتَ
الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسروكم

على المخالفين لكم من الراسخين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قلت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلت : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظهم من العقاب الذي أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أن تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإن أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصَفِّيَ معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (١٧) ﴾ [الطور] وأريد منكم أن تطلعوا على تفسير هذه الآية التي نحن بصددتها : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾ . [الإسراء]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفي^(١) ، وسوف تجدون به أمثلة تؤيد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُعْمَلُ ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويل لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس^(٢) . اقرأوا هذا الكلام عند النسفي .

ثم يقول تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾ [الإسراء]

(١) النسفي هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧٠١ هـ) وكتابه في التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفي هذا في تفسيره (٢١٨/٢) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاک في تفسيرها » وساق ما قاله الشيخ للضمراوى هنا ينصه .

سورة الانزال

٨٦٢٥

أى : مُسَجَّلٌ وَمُسَطَّرٌ فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فى الكتابِ مُسَطَّورًا ﴾ (٥٨) [الإسراء] وثانى الأحداث بغير ذلك ، بل لابد أن يؤكد هذه المقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه^(١) :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَاقِبَتُنَا تُمُودُ النَّاقَةُ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩)

الآيات : جمع آية ، وهى الامر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية تستدل بها على قدرة المدبر الاعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٣٧) [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الاحكام .

فالآيات إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن ، فإياها

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : سأل اهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذمياً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقبل له : إن شئت أن تستانى بهم لعننا نجتبى منهم ، وإن شئت نؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا املكوا كما املك من قبلهم ، قال : لا ، بل استانى بهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ (٥٨) [الإسراء] .

المقصود في الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهي موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات
القرآنية وهي موجودة أيضاً ، بقى المعجزات وهي موجودة ، وقد
جاءت معجزة كل نبي على حسب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى
من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة
عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ في الفصاحة والبلاغة والبيان ؛ لأن
العرب لم يظهروا نبوغاً في غير هذا المجال ، فتحداهم بما يعرفونه
ويجيدونه ليكون ذلك أبلى في الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التي منعه الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت في قوله
تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقَطَ
السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كَسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ بِرُفُيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا نَّقْرؤه .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

والماتمل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل
البُعد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في المقام الأول تثبيت
الرسول ، وبيان صدق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا في
أمر نبغ فيه قومه ولهم به إمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ،
وهل لهم إمام يتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٨٦٣٧﴾

عليهم كَسَفًا يقوم دليلاً على صدق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنْزِلُ من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا^(١)﴾ مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

[يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنْزِلَ عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعْجزه شيء ، ولا يتعاضده شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء]

مبصرة : أى آية بيّنة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها^(٢) فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التي طلبوها .

(١) قال جعفر بن أبي طالب للنجاحشي ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير في تفسيره (٤١٠/٢) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٢٨/٢) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية . واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيثرها بأنفسهم ومن صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشرين ثمخص (أى : دنا ولانها وأخذها الطلق) ، فجاءت كما سألوا ، فتمركت تلك الممطرة ثم انصدمت من ناقة جرهاء وبراء يتحرك جبينها بين جنبتيها » .

يل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع شمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مَذّاً عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةٌ ﴾ لبيان وضوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ﴾ (١٢) [الإسراء] فهل آية النهار مُبْصِرَةٌ ، أم مُبْصِرٌ فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشيء من شعاع ينطلق من عينه إلى الشيء المرئى فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة . وبين أن الإنسان يرى الشيء إذا خرج من الشيء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشيء إذا كان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم تستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة ؛ لأن أشعتها هى التى تُسبب الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩) [الإسراء]

أى : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيب الله سَفْهَهم وراؤاً أنهم لو قتلوه لَطالَبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به ليل ، واقترحوا أن يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جلدٍ ، ويضربوه ضَرْبَةً رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر ليُوقِعُوا به ، وكان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُنبئ له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتي لردع المكذبين عن كذبهم ، وتُخَوِّفهم بما حدث لسابقيهم من المكذبين بالرسول ، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتَّ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤١)

فكل هذه آيات بعثها الله على أُمم من المكذبين ، كل بما يناسبه .
ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٤٢)

أي : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) هي شجرة الزقوم التي قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٢) طَعَامُ الْآلِهَةِ (٤٣) ﴾ [النخان] ، وقال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلَّزُ أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٤٤) إِنْهَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلطَّالِغِينَ (٤٥) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَّارِ (٤٦) طَلْحُهَا كَأَنَّ رُءُوسَ شُجَاهِينَ (٤٧) لِإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا طُورًا (٤٨) ﴾ [الصافات] .

عن عِلْمِهِ تَعَالَى ، لَأَن الإِحَاطَةَ تَعْنَى الإِلْمَامَ بِالشَّيْءِ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ .
وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى العنق (حُطْ
فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن يبالغوا منك لا جهره
ولا تبسيتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لَأَن الله محيط
بهم ، وسيبطل سَعْيَهُمْ ، ويجعل كَيْدَهُمْ فى نحورهم .

لذلك لما تَخَذَى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدّى الجن
أيضاً ، فقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) ﴾ [الاسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من
الأمور له شيطان يُكَلِّمُهُ ، وكانوا يدَّعون أن هذه الشياطين تسكن وادياً
يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحداهم القرآن أن يأتوا
بالشياطين التى تُكَلِّمُهُمْ .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس
جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفية من جنس ظاهر أو من
جنس خفى ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس
المؤمنين .

وهذا من قنوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القنومية نردُّ على الفلاسفة
الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ،
فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسَيِّرُهُ .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يستند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/ ١١٨] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٦٤١

تُسِيرُ الْكَوْنُ مَا رَأَيْنَا فِي الْكَوْنِ شَذُوذًا عَنِ النَّامُوسِ الْعَامِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ
الْمِيكَانِيكِي لَا يَحْدُثُ خُرُوجًا عَنِ الْقَاعِدَةِ ، إِذَنْ : قَحْدُوثُ الشَّذُوذِ دَلِيلُ
الْقُدْرَةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْرِقَ النَّامُوسَ .

ومثال ذلك : النار التي أشعلوها لحرق نبي الله وخليفه إبراهيم -
عليه السلام - فهل كان حظ الإيمان أو الإسلام في أن ينجو إبراهيم
من النار ؟

لا . لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكّنهم الله
من الإمساك به ، أو سخر سبحانه تطفئ النار ، ولكن أراد سبحانه أن
يُظْهِرَ لَهُمْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ فِي خَرْقِ النَّامُوسِ ، فَمَكَّنَهُمْ مِنْ إِشْعَالِ النَّارِ
وَمَكَّنَهُمْ مِنْ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى الْقُوَّةُ فِي النَّارِ ، وَرَأَوْهُ فِي وَسْطِهَا ، وَلَمْ يَعُدَّ
لَهُمْ حُجَّةٌ ، وَهَذَا تَدَخَّلَتِ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِتُسَلِّبَ النَّارَ خَاصِيَّةَ الْإِحْرَاقِ :
﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا ^(١) وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]
إِذَنْ : فَالنَّامُوسُ لَيْسَ مَخْلُوقًا لِيَعْمَلَ مُطْلَقًا ، وَمَا حَدُثَ لَيْسَ طَلَاقَةً
نَامُوسَ ، بَلْ طَلَاقَةُ قُدْرَةِ الْخَالِقِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فَكَانَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يُسَلِّيَ رَسُولَهُ وَيُؤَيِّسَهُ بِمَدَدِ اللَّهِ لَهُ
دَائِمًا ، وَلَا يَفْزَعُهُ أَنْ يَقُومَ قَوْمُهُ بِمُصَادَمَتِهِ وَاضْطِهَادِهِ ، وَيُرِيدُ كَذَلِكَ
أَنْ يُطْمَئِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُبَشِّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ . . ﴾ (٦٩)

[الإسراء]

الْإِحَاطَةُ تَقْتَضِي الْعِلْمَ بِهِمْ وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهِمْ ، فَلَنْ يُفْلِتُوا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ
وَلَا مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَلَا بُدُّ مِنَ الْعِلْمِ مَعَ الْقُدْرَةِ ؛ لِأَنَّكَ قَدْ تَعْلَمُ شَيْئًا

(١) البَرْدُ : خِلَافُ الْحَرِّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْجَلَالِيَّةِ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَسَلَامًا)
لَأَذَى إِبْرَاهِيمَ بِرَدْمِهَا . [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٣ / ١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دفعه ، فالعلم وحده لا يكفي ، بل لا بد له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلق إطلاقاً متعددة ، فقد يراد بها الخلق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ (٤) الْخَنَّاسِ (٥) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

وقد يراد بها بعض الخلق دون بعض ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٥٤) [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ (٧) عَظِيمٍ (٨) ﴾ [الزخرف]

وكما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. ﴾ (١٧٣) [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس في الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. ﴾ (٦) [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن تأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فيراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر في مكة .

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ٢١١/١] .
(٢) سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٨) ﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والمعظيم : الوليد بن المغيرة القرشي ، وحبيب بن عبيد الثقفي ، أورده السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٢٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإن كنت تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهي إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإن أردت بها الكافرين فهي إحاطة حصار لا يفلتون منه ولا ينفكون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [يونس]

أى : حُوصِرُوا وضُيقَ عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكانه يقول له : امضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يضريك ما يُدَبَّرُونَ .

لذلك كان المؤمنون فى أوج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر ، رضى الله عنه - الذى جاء القرآن على وفق رأيه يقول : أئِ جَمَعَ هَذَا ١٩ وَيَتَعَجَّب ، كيف ستهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا^(١) وهذه تسليية لرسول الله وتبشير

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أئِ جَمَعَ يَهْزِمُ ١ أئِ : أى جمع يُغْلِبُ ١ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب فى الدرع وهو يقول « سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ » فعدت ثأري لها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٦٦/١) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والاذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات]

فأذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فانت في عناية فلن يصيبك شرٌ من الخارج ، وهم في حصار لن يفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ .. ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإن أردت الرؤيا المنامية تقول : رأيت رؤيا ، وإن أردت رأى البصرية تقول : رأيت رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه : ﴿ وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [يوسف]

ولم يقل رؤيتي . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء^(١) على أنها الرؤيا التي ثبتت في أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ﴾ [الإسراء] أي : حادثة الإسراء والمعراج .

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانئ والحسن البصري وقتادة ، أورد السيوطي آثارهم في الدر المنثور (٣٠٨/٥ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير في تفسيره (٤٩/٣) اختيار ابن جرير الطبري لهذا الرأي قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، أي : هي الرؤيا والشجرة . »

وبعضهم^(١) رأى أنها الرؤيا التي قال الله فيها : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح]

فقد وعد رسول الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام ، ولكن منعوهم من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أن يعدم رسول الله وعداً ولا ينجزه لهم .

ثم بين الحق - تبارك وتعالى - لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فانزل على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا﴾^(٢) أَنْ يَبْلُغَ مُحَلَّهُ وَلَوْ لَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمْهُمْ أَنْ تَطْفُوهُمْ فَتُصَبِّحَ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا^(٣) لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا في الحديبية : لأنهم لو دخلوا مكة محاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

(١) قلته ابن عباس في رواية عنه قال : الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية ، فردت فالتفت المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العلم المقبل بطلها ، وانزل الله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ..﴾ (٢٧) [الفتح] . قال القرطبي في تفسيره (٤٠٩٩/٥) : في هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة .

(٢) معكوفاً : مذبذباً عن أن يبلغ أماكن دعوته . [القاموس القويم ٢٢/٢] .
(٣) لو تزيَّلوا : أي لو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٢/٤] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى ويثألهم من هذه الحرب ؛
لأنهم لن يُميزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ
بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن
أنوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أن يتشكك الناس فيما حدث بالحديبية ،
وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول
الله ﷺ : السنا على الحق ؟ اليسوا هم على الباطل ؟ ألسنت رسول
الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم عَزْرَهُ يا عمر ، إنه رسول الله ^(١) .

وقد ساهمت السيدة أم سلمة - أم المؤمنين - في حل هذا
الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على
رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ،
هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم
مكرويون ، جاءوا على شوق للبيت ، ثم منعوا وهم على مَقَرَّةٍ منه ،
ولا شك أن هذا يشق عليهم ، فأَمْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا
رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه
المسألة ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في
حديث الحديبية الطويل .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/٤) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان
ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انصروا واحلقوا لما قام أحد . ثم
عاد يمثلها فما قام رجل حتى عاد يمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة
فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن
منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فاتحهم واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ،
فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فأنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينصرون ويحلقون
، حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

سُكُونُ الْأَنْبِيَاءِ

٨٦٤٧

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التي جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم » . وأخذ يومئذ إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرَعُ فلان ، وهذا مَصْرَعُ فلان ، وهذا مَصْرَعُ فلان » ^(١) .

وفعلًا ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لِي : يا الله عليك ، مَنْ الذي يستطيع أَنْ يتَحَكَّم في معركة كهذه ، الأهل فيها الكرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال لِيُحدّد الأماكن التي سيقُتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء ^(٢) قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان في الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر ^(٣) ، هذه أحداث حدثت في المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول - وهو الإسراء والمعراج - هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) وأحمد في مسنده (٢١٩/٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبي في تفسيره (٤٠١١/٥) ، وابن كثير في تفسيره (٤٩/٣) .
(٣) أمر الرسول يوم بدر لم يرد في ناول هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضمّموه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزرون على منبره فزرو القردة ، فأنتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبي في تفسيره (٤٠١١/٥) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث في تفسيره (٤٩/ ٣) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة مثبوك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والعشاكين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومن قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عن له :

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَاشَ ^(١) فَوَادَهُ وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من رقة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم ربّ ، فاختار الرؤيا : لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجَّهَ الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجَّهَ الإعجاز فى الزمن الذى اختَصِرَ لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لَنَا بيت المقدس » ^(٢) .

(١) هش للنشء وهاش : سُرَّبه وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشى].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الحبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كتنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٣/٢) .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٦٤٩

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن :
فاعترضهم على وقت هذه الرحلة التي كانوا يضربون إليها أكباد الإبل
شهرًا ، ويخبر محمد أنه أتاها في ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث
في هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن
الرؤيا المنامية لا زمن لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصل العلماء الباحثون في مسألة وعي الإنسان أثناء
نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أن قالوا : إن الذهن الإنساني
لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هي المدة التي
يستغرقها المنام .

في حين إذا أردت أن تحكي ما رأيت فسيأخذ منكم وقتًا طويلاً .
فأين الزمن - إذن - في الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل
الإدراك في الإنسان والتي تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ،
حتى إذا جاءت الرؤيا مرّت سريعة حيث لا يوجد في الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشي على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان
يفهمها وهي طائيرة) وهذا يدل على السرعة في الفعل ؛ لأنه يركّز كل
إدراكاته لشيء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت
توجد فتنة بين الناس ؟ وهب أن قائلًا قال لنا : رأيت الليلة أنني
ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواي ، ثم إلى اليابان ،
أنكذب به ١٩

إذن : قول الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عدلت المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكان الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها في ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنه الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصهرهم في بوتقة الإيمان لتتميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى في ساحتنا إلا صادق الإيمان قوى العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذي سيحكم حركة الحياة في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق في إيمانهم ليكوتوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التي ميّزت بين أصالة الصديق حينما أخبروه أن صاحبك يحدثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إِنَّ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ » ^(١) هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزيد الذي زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُونَةُ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : وما جعلنا الشجرة المعنونة في القرآن إلا فتنّة للناس أيضاً ، وإن كانت الفتنة في الإسراء كامنة في زمن حدوثه ، فهي في الشجرة كامنة في أنها تخرج في أصل الجحيم ، في قعر جهنم .

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٤٠١٢/٥) وناماه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟

فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ،

والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة في جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُحْصِ إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول ^(١) : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن في الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شيء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالا عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كوني في أصل الجحيم ، فتكون في أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التي قالت للنار : كُوني برّداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزَيْعَرِي حينما سمع قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴿

[المصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْدَ على التمر ، فقوموا تترقوموا

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم الفتنة بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، إن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجرة ، وإننا والله ما تعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فترقوموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤) [المصافات] أي : غذبت بالنار ، ومنها خلقت ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُمْرُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٦٥) [المصافات] قال : يشبهها بذلك .

معنى^(١) ، أى : استهزاء بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالات الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعبّص أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلعن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلعن وهى الطعام الذى سياكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون أكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) ﴾ [الدخان] والأثيم لا شك ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للأكل وجعلها للشجرة ؟

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خسوف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد . أما والله لئن أمكننا فيها لننزلنهم منها نزلهم . فانزل الله تعالى ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] . وعزاء السيوطى فى الدر المنثور (٣١٠ / ٥) لابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لان العربى دَرَجَ على أن كل شىء ضار ملعون ، أى : مُبْعَد من رحمة الله ، فكان الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من أكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : تستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون أكلها^(١) .

ومن الإشكالات التى أثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٦٥) [المصافات]

ووجه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتى عادةً ليُوضَّحَ أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبه مجهول لنا : لأنه غيَّب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منَّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرِ شجرة الزقوم لنعرف طلعها ، ولم نَرِ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربِّى فيهم التَّهَيُّبَ أَنْ يَقْبَلُوا على القرآن بعقولهم ليفتَشُوا فيه ، ولو أنهم تخلَّصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهَيُّبٍ لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

(١) ذكره أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٢٨ طبعة ١٩٨٥ م - دار المصايف .

والردُّ على قول المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملكة العربية أو التدوُّق الكافي لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرَّق بين اللغة كملكة واللغة كصناعة فقط .

الملكة اللغوية تفاعل واختمار للغة في الوجدان ، قساعة أن يسمع التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة - خاصة على كِبَر - فهي مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال^(١) :

يَغْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِثَافُهُ لِيَقْتُلَنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَالٍ
أَيَقْتُلَنِي وَ الْمَشْرِفُ^(٢) مُضَاجِعِي وَمَسْتُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابٍ أَغْوَالٍ

فهل رأيت الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ أن يُشَبِّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوُّر والتخيُّل للغول أجاز أن تُشَبِّه به .

وكذلك الشيطان ، وإن لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلَّفنا جميع رسَّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتَخَيِّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

(١) هو : امرؤ القيس بن حَجَر ، شاعر جامل .

(٢) سيف مشرفٍ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب -

مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كلا منهم سيتصوره بصورة خاصة حسب تصوّره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبّه طلع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لتصورناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يُشيعَ بشاعته ، وأن تذهب النفس في تصوّر بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدي هذا التشبيه في الآية ما لا يؤديه غيره ، ويحدث من الأثر المطلوب ما لا يحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلي .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء]

أى : نُخَوِّفُهُمْ بأن يتعرّضوا للعقوبات التى تعرّض لها المكذّبون للرسول ، فالرسول نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخذلان . وأنت حينما تُخَوِّفُ إنساناً أو تُحذّره من شر سيقع له ، فقد أحسنت إليه وأسديت إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذى يُخَوِّفُ ابنه عاقبة الإهمال ، ويذكّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ۚ ۖ ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبَشِّرُ لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة في قوله تعالى ، فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكَ شَوَاطِدَ^(١) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَحْصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشوَاطِدَ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشيء سيحدث فى المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

(١) الشواط : القطعة من اللحم ليس فيها عظم . [الفاموس القويم ٢٦٦/١] .

وقوله تعالى : ﴿ قَمًا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٦٠) [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادة إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغ ولا تشريع إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوى بين السادة والعبيد ؟

إذن : كلما خوفتهم وذكرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفورا من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجعل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لقتصيب عبد الله بن أبى ملكا عليهم^(١) ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أبى ، وتوجهت الانظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أبى، وأن يزداد كُرهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاويلته ومناواته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ١٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبي ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج لى نفسها ، فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ انفر من الانصار وقوفه على عبد الله بن أبى والذي قال له ، فقال له سعد بن عباد : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومن علينا بقدومك ، أردنا أن نسعد على رأس عبد الله بن أبى القاج ، ونملكه علينا .

وَأَنْ يَحْسَدَهُ عَلَى مَا نَالَ مِنْ حُبِّ النَّاسِ وَالتَّقَافِهِمْ حَوْلَهُ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ وَالْكَائِثِينَ لِلْخَيْرِ دَائِمًا ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴾ (٦١)

أى : تذكروا أن الحسد قديم قدم وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكروا يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، وسبق أن تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عِيًّا وليس قَدْحًا فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المديرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ ۞ (٦١) ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسَخَّرُ له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجود طاعة وخضوع لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ .. (٦١)﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التي تحدثت عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم في موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ .. (٦١)﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف تُسَلَّم لهم جديلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون في قول الحق سبحانه في القرآن الذي أخذوا منه حجته : ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

فإن كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌ صريح في أنه من الجن ، فإن قال قائل : كيف يكون من الجن ويؤاخذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنص الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى أخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جبرٍ وعن طبيعة ،

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة^(١) الذي يزهو عليهم ويتباهى

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة . وكان خازناً على الجنان . وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير في تفسيره (٨٩/٢) .

بأنه صالح للاختيار في العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .
فإذا أصبح في منزلة أعلى من الملائكة وأصبح في حضرتهم ،
فإن الأمر إذا توجه إلى الأدنى في الطاعة فإن الأعلى أوتى بهذا
الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقل منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة
بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إن كان أعلى
فعليه أن يسجد ، وإن كان أدنى فعليه أن يسجد .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - إذا دخل رئيس
الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهب أن
معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى
مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التي أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع
اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أَبَى ﴾ ومرة أخرى
﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾ ومرة ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿ مَا
مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ .. ﴾ (٧٥) [مر] ، ومرة أخرى يقول : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا
تَسْجُدَ .. ﴾ (١٢) [الاعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فهم أساليب العربية ؛
لأنها ليست لديهم ملكة ، والمتأمل في هذه الأساليب يجدها منسجمة
يكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن
يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوع الأسلوب القرآني ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ .. ﴾ (٧٥) [مر] و ﴿ مَا مَنَعَكَ
أَلَّا تَسْجُدَ .. ﴾ (١٢) [الاعراف]

صحيح أن في الأولى إثباتاً وفي الأخرى نفياً ، والنظرة العجلى تقول :
إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) في
الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة في كتاب الله قول لا يليق ، ونُفِزَ
المتكلم سبحانه أن يكون في كلامه زيادة ، والمستأدب منهم يقول
(لا) حرف وصل ، كأنه يستكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوصل ، بل هي
تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [ص]

كأنه هم أن يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما
منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أى شيء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك
بانك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن في حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ۖ (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد
فُسِّرَت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۖ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله متفق عليها ، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية
هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق
الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيت بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ،
وله مهمة في الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من
الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التي لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أن قلنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إن كان مستقيماً ، أما إن أردت خطافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خيراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأهل فيها الخشب الذي ترقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطيء . ومعنى : ﴿ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ (٢١) [الإسراء] يعنى : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقته من طين ، والخلق من الطين مرحلة من مراحل الخلق ؛ لأن الخلق المباشر له مراحل سبقتة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ۖ ۞ ﴾ (٢١) [الحجر] سبقتة مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء ، ومرة : من التراب ، ومرة : من طين . والماء إذا خلط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسود هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبه الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف في صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقش ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطن ، ثم يصبرونه في قوالب . فإذا ما ترك الطين حتى يجف ، ويتحول إلى الصلابة يصير صكصكاً كالفضار ، يعنى يحدث رنة إذا طرقته عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢١) [الحجر]

إذن : لا وجه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حما مستن ، فهذه كلها مراحل للمكون الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك ، والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤَكَّد لا شك فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أين) فما تراه أمامك عياناً ، وإن كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً . فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يَرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « تَرَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فأجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

(١) الاحتناك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال ، قال القرطبي فى تفسيره (٥/٤٠٦) : « المعنى متتارب ، أى : لاستئصال ذريته بالأنواء والإضلال ولاجتاحتهم » .

فَقُولْ تَعَالَى : ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرُمْتَ عَلَىٰ ..﴾ (٦٢) [الإسراء]
 أى : أعلمنى ، لماذا فضلته على ، وكان تفضيل آدم على إبليس مسألة
 تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا
 السؤال الذى توجه به لربه عز وجل ، ولكنه تعجل وحمله الغيظ
 والحسد على أن يقول : ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا
 قَلِيلًا﴾ (٦٢) [الإسراء]

وهذا لأن حقدك وعداوتك لآدم مُسْبِقَةٌ فلم ينتظر الجواب .

ومعنى : ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ أَخَّرْتَ أَجَلِي عَنْ مَوْعِدِهِ ، كَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
 يَجْعَلُ لِكُلِّ نَفْسٍ مِّنْفُوسَةً مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ أَجَلًا مَّعْلُومًا ، فَطَلَبَ أَنْ
 يُؤَخِّرَهُ اللَّهُ عَنْ أَجَلِهِ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مِنْهُ فِى الدُّدِّ وَالْعِنَادِ ، فَلَمْ
 يَتَوَعَّدْهُمْ وَيُهَدِّدْهُمْ مَدَّةَ حَيَاتِهِ هُوَ ، بَلْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ
 الْبَدَايَةُ مَعَ آدَمَ فَلَنْ يَنْجُو وَلَنْ تَنْجُو ذُرِّيَّتُهُ أَيْضًا .

فَالْعَدَاوَةُ بَيْنَ إِبْلِيسَ وَآدَمَ ، فَمَا ذَنْبُ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ؟ لَقَدْ كَانَ
 عَلَيْهِ أَنْ يَقْصُرَ هَذَا الْحَقْدُ ، وَهَذِهِ الْعَدَاوَةُ عَلَى آدَمَ ، ثُمَّ يُوْصَى ذُرِّيَّتَهُ
 بِحَمْلِ هَذَا الْعَدَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ الْغِيْظُ الدَّافِينُ الَّذِى يَمْلَأُ قَلْبَهُ .

وَقَدْ أَمَّهُلَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٠) [الأعراف]

وَمَعْنَى ﴿لَأَحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ..﴾ (٦٢) [الإسراء] اللَّامُ لِلْقِسْمِ ، كَمَا
 اقْسَمَ فِى آيَةِ أُخْرَى : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغَرِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) [ص]

وَعَجِيبُ أَمْرِ إِبْلِيسَ ، يَقْسِمُ بِاللهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَمْرَ وَالْأَجَلَ بِيَدِهِ
 سُبْحَانَهُ ، فَيَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَخِّرَهُ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَطِيعُ أَمْرَهُ .

والاحتناك : يَرِدُ بمعنىين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف . مأخوذ من اللجام الذى يُوَضَّعُ فى حنك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجَّهَ الفرس يمينا أو يسارا أو تُوقَفَ ، فهى أداة التحكم فيه ، والسيطرة عليه قهرا .
فالاحتناك قد يكون استئصالا للذات ، وقد يكون قهرا لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢) [الإسراء] فيها دليل على علم إبليس ومعرفة الله بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغَرِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) [ص] والمعنى : بعزتك عن خلقك : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٢٩) [الكهف] .

سادخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخَلَ لى بهم ، وليس لى عليهم سلطان ، لقد تذكَّرَ قدرة الله ، وإن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أن يأخذه ، فقال : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٢) [ص]

فمقوله : ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢) [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنْ جِئْتُمْ
بِحَزَأٍ أَوْ كَرِجَزَاءٍ مَوْفُورًا ۝ ٣٣ ﴾

قوله تعالى (اذْهَبْ) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ۖ ۝ (٦٣) ﴾ [الأنعام] أى : الذين اتبعوك وساروا لى ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤُكُمْ ﴾ . ولم يقل (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل فى حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم . وكذلك هو المخاطب فى الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفذ أوامر الله الواردة فى قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَعْتَصَمَ مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴾ (٦٤) [الأنعام]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذى يراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذى لا يراد منه التنفيذ . فالأول طلب أعلى من أدنى لكى يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوب عادة من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتم ولا يستجيب فتقول له : اللعب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟ وهل لى أخفق الولد فى الامتحان سيأتى ليقول لك : يا والدى لقد قلت لى اللعب ؟

إن الأمر هنا لا يؤخذ على ظاهره ، بل يراد منه التهديد ، كما يقولون فى المثل (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءُ مَوْفُورًا) أى : وافياً مكتملاً لا نقص فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿وَأَسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ^(١) وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤)

قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ..﴾ [الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فى بعض انهض ، وقم من الأرض التى تلازمها وكانتها ممسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ..﴾ (٣٨) [التوبة]

فتقول للمتشاغل عن القيام : فى أى : قم وخف للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفز من استطعت واستخفهم واخذعهم (بصوتك) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ..﴾ (٦٤) [الإسراء]

(١) قوم رجلة أى رجالة ، والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب - مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك ورجلكم كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [الغاموس القويم ٢٥٧/١] .

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

٨٦٦٧

أَجْلَبَ عَلَيْهِ : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع .
والجَلْبَةُ هي : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبهه الجَلْبَةُ بما نسمعه من
صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن
هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة
مضادة ، فيسهل عليك التغلب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ ۖ ٦٤ ﴾ [الإسراء]

أى : صَوِّتْ وصيِّحْ بهم راكبياً الخيل لتفزعهم ، والغرب تطلق
الخيل وتريد بها الفرسان ، كما فى الحديث النبوى الشريف : « يا
خيل الله اركبى »^(١) .

وما أشبه هذا بما كنا نسميهم : سلاح الفرسان (ورجلك) من
قولهم : جاء راجلاً . يعنى : ماشياً على رجليه و (رجل) يعنى على
سبيل الاستمرار ، وكان هذا عمله وديته ، فهى تدل على الصفة
الملازمة ، تقول : فلانٌ رجلٌ أى : دائماً يسير مترجلاً . مثل : حاذر
وحذرٌ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ۖ ٦٥ ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركونهم أموالهم ؟ بأن يُزَيِّنَ لهم المال الحرام ، فيكتسبوا

(١) أورده العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/٥٢١) . وقال : « رواه أبو الشيخ فى الناسخ والمنسوخ
من عبد الكريم قال : حدثنى سعيد بن جبير عن عمه المصاريبي » قال : كان ناس اتوا رسول الله
ﷺ فقالوا : تباعدك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فأمروا النبي ﷺ فنودى فى الناس :
ياخيل الله اركبى ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » . وقال ابن حجر فى الفتوح (٧/٤١٢) : « روى
ابن عائد من مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادى . فنادى : يا خيل الله اركبى » .

من الحرام وينفقوا في الحرام (والأولاد) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب ، فدور الشيطان أن يفسد على الناس أنسابهم ، ويؤذين لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يؤذين لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يغيرهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وَعَدْتُهُمْ ﴾ أى : متبهم بآمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة)

وقوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الإسراء)

أى : لا يستطيع أن يغرر بوعوده إلا صاحب الغرّة والغفلة ، ومنها الغرور : أى يزّين لك الباطل في صورة الحق فيقولون : غرّه . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً : لأنه لو عقل وانتبه لتبين له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غرّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (القسم) ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام) ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ .. ﴾ (النساء) ﴿ يَنَادِينَا بِقَوْلِهِ : ﴿ يَأْتِلِي الْأَبَابِ .. ﴾ (الطلاق)

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحث على استعماله في كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله منا ذلك ؟ ولماذا يُوقظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبر في كل شيء ؟

لا شك أن الذى يُوقظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى

سُورَةُ الْاِسْرَةِ

٨٦٦٩

المنظر والتدبر واثق من حُسْنِ بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذي يبيع
الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته في ثقة ، ويدعوك إلى
فحصها ، وقد يشعل النار ليُؤيِّد جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون
تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُعْطِيكَ ولا يُزَيِّنُ لك إلا إذا صادف منك غفلة ،
إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتَصْحِباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع
إليك سبيلاً ، ومن حيله أن يُزَيِّنَ الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها
فرصة للمتعة فانتبهزها وَخَذْ حَظَّكَ منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن
تُصَدِّقَ بالبعض أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصَدِّقُهَا إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر
الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإن كان يوم
القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ
مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ ^(١) وَمَا أَنتم بِمُصْرِخِي ^(٢) ۝ (٢٧) ﴾

[إبراهيم]

إذن : في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ،
استغفر ، وأجلب ، وشاركهم ، وعدهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ
مضمونها ، بل للتهديد والإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة ،

(١) المُصْرِخُ : المغيث المنقذ من يستصرخه ، واستصرخه : استغاث به ، والمصْرِخُ :

الاستغاث والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ٢٧٢/١] .

أَوْ صَدَّ النَّاسَ عَنْهَا ، وَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لَهُ : إِفْعَلْ مَا تَرِيدُ
وَدَبِّرْ مَا تَشَاءُ ، فَلَنْ تَوْفِقَ دَعْوَةَ اللَّهِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٦٥)

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ؛ وقلنا كلاماً تُوجزه
في أن العبيد هم المقهورون للسيد في الأمور القسرية القهرية ،
ومتعمدون عليه في الأمور الاختيارية ؛ أما العباد فهم مقهورون في
الأمور القسرية القهرية ؛ وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم في الأمور
الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أن يكونوا مقهورين لله في جميع
أحوالهم .

وقد تحدث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما في قوله
تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ يَسْتَوْنَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴿ [الفرقان]

فعباد الله الذين هم أصفياءه وأحبائه الذين خرجوا من مرادهم
لمرادِهِ ، وَفَضَّلُوا أَنْ يَكُونُوا مَقْهُورِينَ لِرَبِّهِمْ حَتَّى فِي الْاِخْتِيَارِ ،
فَاسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْحَصَانَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي مُوَاجَهَةِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَستِهِ
وَعُورِهِ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴾ (٦٥) [الإسراء]

وسبق أن تحدثنا عن كَيْدِ الشَّيْطَانِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦) [النساء] ففى مُحَاجَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ
ضُحَايَاهِ الَّذِينَ أَغْوَاهُمْ وَأَضَلَّهُمْ ، سَيَقُولُ :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. ﴾ (١٢)
[إبراهيم] فليس لي سلطان قهر أحلكم به على المعصية ، ولا سلطان
حجة وبرهان فأقتنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (١٤) [الإسراء]

الوكيل هو المؤيد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً ، أى :
وثقت به ليؤدى لى كل ما أريد ، فإن كان فى البشر مَنْ تثق به ،
وتأمنه على مصالحك ، فما بالك إن كان وكيلك هو الله عز وجل ؟
لا شك إن كان وكيلك الله فهو كافيك ومؤيدك وناصرك ، فلا يُحوجك
لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي^(١) لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا

مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٦٦)

الرب هو المتولى تربيته : خلقاً من عدم ، وإمداداً من عدم ،
وقيوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء :
الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الْفُلْكَ ﴾ هى السفن وتطلق على
المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكر والمؤنث .

(١) زجا الفس : تيسر واستقام . وأزجاء : سافه برفق . قال تعالى : ﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ
الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. ﴾ [الإسراء] (٥٩) أى : يدفعها ويُسَيِّرُها برفق فوق الماء [القاموس القويم

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ ..

[البقرة]

﴿١٦٤﴾

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ رَجَرَيْنَ يَوْمَ يَرْيَحُ طَيِّبَةٌ .. ﴿٢٢﴾

[يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. ﴿٦٥﴾

[الاسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره .
كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾

[النحل]

فالباحر مصدر من مصادر الرزق والقوت ، ومستودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾

[الاسراء]

والرحمة اتساع مدد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البر بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والارض التي تعيش عليها إما برّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإن كانت نسبة اليابس من الارض الربع أو الخمس ، فالباقي بحر شاسع واسع يزخر من خيرات الله بالكثير .

وطرق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي أو تركب ، وكل وسيلة من وسائل الركوب حسب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر ، أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أن تحمل على شيء ، فمن رحمة الله بنا أن جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لجة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحى من الله نوح عليه السلام ، فلم تكن معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٢٨) [هود]

فلم يكن للناس عهد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من الراح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دله على طريقة بنائها ، وهداها إلى تنظيمها ما كان له علم بهذه المسألة ، فكأن الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبي من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شك أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أن يسر لنا تطوير هذا المركب على مرّ العصور ، فبعد أن كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمى بالقلع ، والذي يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريد بها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويسر ، كما تطورت صناعة السفن كذلك على مرّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البواخر الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ^(١) ﴾ (٢٢) [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكان الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

(١) الأعلام : الجبال ، والعلم : الجبل الطويل ، [لسان العرب - مادة : علم] .

علمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقى يصل بها إلى أن تكون كالجبال ، والأفقى زمن نزول القرآن لم يكن هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تبنى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نخفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسير هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألا يغتر الإنسان بما توصل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمَامِ الأمور فى الكون : لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٣٢) [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإن قال قائل الآن : إن توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرت إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدت أن معنى الريح القوة المطلقة أياً كان نوعها ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَعَفَا غُيُوبُكُمْ وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ ..﴾ (٤٦) [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ ..﴾ (٣٢) [الشورى] يُسْكِنُ القوة المحركة للسفن أياً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإن شاء سبحانه تعطلت كل هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَعْنَا إِلَى الْبِرِّ أَغْرَضْتُمُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾

سُورَةُ الْاِنْمَارِ

٨٦٧٥

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إن أصابه فيه سوء ، فالبحر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْيَحٌ طَبَّيَّةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ ۞ (٦٦) ﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقت به الحيل ولم يجد مَنقذاً يلجأ إلى الله المُنقذ الحقيقي والمفرج للكرب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظل متعلقاً بالأمل في النجاة .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ۚ ۞ (٦٧) ﴾ [الإسراء]

أى : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالى ، وأحسوا بخطورة الموقف ولا مَنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار في هذا الموقف يَصْدُقُونَ مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإن آمنوا بآلهة أخرى وإن عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم في هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله : لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ ۚ ۞ (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : ذهب عن بالكم مَنْ اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل ! لأنهم لن يفشروا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم في هذا الوقت العصيب .

إنهم في هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطر لهم ببال

أبدأ : لأن مجرد تذكّرهم يُضعف ثقتهم في الله الذي يملك وحده النجاة ، والذي يطلبون منه المعونة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إن خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإن كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه وخصيصاً ، فإن أحاطت به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكرب وإغاثة الملهوف ، حتى وإن كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمره أن يلجأ إليه ، وأن يدعو ، فقال :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٣)

فإن دَعَوْهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخلقه وصنّعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمن كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب إذن لي أن أخسف بأبن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إذن لي أن أخرب على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وما خلقت ، لو خلقتهم لرحمتهم ، فإنهم عبادي ، فإن تابوا إلى فانا حبيبتهم ، وإن لم يتوبوا فانا طبييتهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤثروا النبوة ، وأن يقفروا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه رب ، وما دام رباً فهو

سُورَةُ الْاِنْسَانِ

﴿٨٦٧٧﴾

رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِ أَعْرَضُوا ، وعادوا
لَمَا كَانُوا عَلَيْهِ وَتَفَكَّرُوا لِلْجَمِيلِ وَالْمَعْرُوفِ ؛ لَذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَهَا :

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَهُ
كفر بنعمة الخلق فَقَالَ : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر
بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مازقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نَجَّاهُ
الله أَعْرَضَ وَتَمَرَّدَ ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

فهؤلاء الذين أَعْرَضُوا عن الله بعد إذ نَجَّاهُمْ فِي الْبَحْرِ آمَنُوا مَكْرَ
الله فِي الْبَرِّ ؟ وهل الخطر فِي الْبَحْرِ فقط ؟ وليس الله تعالى بِقَادِرٍ
على أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ فِي الْبَرِّ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ ؟

يقول تعالى : ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فِي شَأْنِ قَارُونَ : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ..
﴿٨١﴾﴾ [القصص] ولستم بِبَعِيدِينَ عَنْ هَذَا إِنَّ أَرَادَهُ اللهُ لَكُمْ ، وَإِنْ كُنَّا
نَقُولُ « الْبَرِّ أَمَانٌ » فهذا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِنَا ، أَمَّا إِنْ جَاءَ أَمْرُ اللهِ
فَلَنْ يَمْنَعُنَا مِنْهُ مَا نَع .

(١) حصيه : قلعه بالحصي . والحاصب : الإصهار الغديد يَفْذَلُكُمْ بِالْحَصَى فَيَهْلِكُكُمْ وَالرَّيَاحُ
الْمَاسِفَةُ تَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. ﴾ (٦٨) [الإسراء] أى :
ريحا تحمل الحصى ، وترجمكم بها رجما ، والحصى الحصى
الصغار ، وهي لَوْنٌ من ألوان العذاب الذى لا يُدْفَع ولا يُؤَدَّ : لذلك
قال بعدما : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن
البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ،
سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَهًا يَتَّبِعَا ﴾ (٦٩)

أى : وإن نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر : لأنه
قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة
أخرى ، ويوقعكم فيهما أوقعكم فيه من كَرْبٍ فى المرة الأولى ،
فالمعنى : أنجوتُمْ فامنتُمْ .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ .. ﴾ (٦٩) [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى
الطَّيْس ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ .. ﴾ (٦٩) [الإسراء] أى : بسبب كفركم
بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم
وتمرتدتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجليل ، وتقرؤا له
بالفضل .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٨٦٧٩ ○

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الأنعام]

عندنا تابع وتبعية ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شيء فيك ، أما التبعية : فهو الذى يُوالى تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك . فالمعنى : إن فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبعية يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أمل لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف رد الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافة رد الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربت فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحد يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ
مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [٧٠]

وهل هناك تكريم لبني آدم أعظم من أن يُعد لهم مقومات حياتهم قبل أن يخلقهم ؟ لقد رتب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ..﴾ [٢٩] [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخر لكم من قبل أن تُوجدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادماً وإما مخدوم ، وانت أيها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يقل الحق سبحانه : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾ (١١) [الرعد]

وقال تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعَى منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أن يقفَ وقفة تأمل وتفكير ؛ ليصل إلى حلٍّ للغز الكون . وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدِعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمنى ، وليس لى قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتى ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطينى وتمدنى دون قدرة لى عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنْ الذى أعدَّ لى كل هذه الأشياء التى ما أدعاهَا أحدٌ لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذى خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أن تُرهقوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذى حيركم .

وسبق أن ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذى انقطعتُ به السُّبُل فى الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدة بأطياب الطعام والشراب ؛ أليس حزيناً به قبل أن تمتد يده إليها أن يفكر كيف أتته ؟

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتبعونه يحفظونه ويمسكون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢٩/٢] .

إذن : كان على الإنسان أن يعمل عقله وفكره في معطيات الكون التي تخدمه وتسخر من أجله ، وهي لا تاتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء في بيان أوجه التكريم في الإنسان ، فمنهم من قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيار ، ومنهم من قال : كُرِّمَ الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنْحِنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بأن ياكل بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملاحظ في التكريم^(١) .

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كنث أود أن يلتفت إليه العلماء ، ألا وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وقال : ﴿ فَإِذَا سَرَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [طه : ٢٨] .

[الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى آدانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

(١) قال القوطي في تفسيره (٤٠٢٢/٥) : « والصحيح الذي يُعَوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى تعيُّمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ
كِتَابُهُ بِيَمِينِنَا فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلًا﴾ (٧١)

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المتنادى ، والناس هم المدعوون ،
والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى
القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ،
يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصل هذا الإجمال ، فتنادى كل جماعة بمن بلغهم
وهداهم ودلهم ليقرئ الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى
غيرهم .

وقال بعضهم (بإمامهم) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس
بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وستر على

-
- (١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :
- بكتابهم . بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .
 - بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .
 - بنبيهم ، والإمام مَنْ يؤتم به . قاله مجاهد .
 - بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب وعيسى الله عنه .
 - بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو العالية وابن عباس .
 - بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبي هذه الأقوال فى تفسيره (٤٠٢٥/٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُقضوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَءُوا كِتَابِيَّة ﴾ (١٩) [الحاقة] إنه منسورر بعمله الصالح الذي يحب أن يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) [الإسراء]

الظلم أن تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص في شيء تريد أن تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخلق ؟ إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادة لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخلق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلًا ﴾ عادة يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضل والعلف لماشيئهم ، ومن التمر أخذ القرآن التقدير والقطمير والفصيل ، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة النخلة ، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل .

فالتقدير^(١) : هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة .

(١) ورد لفظ « التقدير » في القرآن مرتين :

- ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَفِّوْنَ النَّاسَ نَفِيرًا ﴾ [النساء]
- ﴿ وَمَنْ يَتْلِ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء]

والقطمير^(١) : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والقتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة .

فمعنى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) [الإسراء] أى : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنْزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ مهما تناهى في الصُّغُرِ .

وفي مقابل مَنْ أُوتِيَ كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتِيَ كتابه بشماله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُبَالَيْتِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ﴾ (٢٥) [الحاقة] وفي آية أخرى قال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١١) [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَلْدِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى

وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميت بصيرته في الدنيا فعَمِيَ في الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شك أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرت مرة السبب ، وذكرت مرة المسبب ، ليلتقى السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكان الحق سبحانه قال : إِنْ مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بيمينه وقراه وتباهى به لم يَكُنْ أَعْمَى في دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

(١) ورد لفظ « القطمير » في القرآن مرة واحدة :

- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة
لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك
المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم .
مدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمس عليها فلا ترى
خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على هدى
لا بدُّ له من بصر يرى به المرائى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى
منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من
عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو
ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو
البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن
به وسار على هديه .

وقوله : ﴿ فَهَرَّ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [الإسراء]

إن كان عماء فى الدنيا عمى بصيرة ، فعماء فى الآخرة عمى
بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف
الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ،
إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ
لَهُ مَعِيشَةً هَنَكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿ (١٢١) [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
عُمًى وَتُكْمًا وَصَمًا .. ﴾ (٩٧) [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية في الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴾ (٧٥) [مريم] وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا .. ﴾ (٥٢) [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات والتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة في مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام ومول المحشر يكونون عمياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حيرتهم ويشدد بهم الفرع حيث هم في هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المسهر ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم في كَرْبٍ وحَيْرَةٍ لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصري عندهم .

أما الحالة الثانية وهي الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل المرقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بدّ لنا هنا أن نلاحظ أن الفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَلْهِ أَعْمَىٰ فَهَرَبَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [الإسراء]

لفظ (أَعْمَى) واحد ، لكن في الآخرة قال (وَأَضَلُّ سَبِيلًا) إذن : لابدّ أن عمى الدنيا أقل من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خير من هذا فقد فضلت الأول في الخيرية عن الثاني ، إذن : كلمة خير إما أن تأتي وصفاً ، وإما أن تأتي تفضيلاً .

شُكْرُ الْأَمْرِ

○ ٨٦٨٧ ○

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوى خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف » وفي كُلِّ خير ، ^(١) .

فالمراد أن المؤمن القوى أكثر في الخيرية . إذن : فكلمة : ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَغْنَى ... ﴾ (٧٦) [الإسراء] ليست وصفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أى أنه في الآخرة أشدَّ عمى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٦) [الإسراء] ومعلوم أنه كان ضالاً في الدنيا ، فكيف يكون أضلُّ في الآخرة ؟

فسالوا : لأن ضلاله في الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السوي ، أما في الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلاله في الآخرة أشدَّ وأعظم من ضلاله في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه ^(٢) :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ وَإِذًا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (٧٦)

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادين أن يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢ ، ٢٧٠) وابن ماجه في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت في وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متبعنا باللات سنة ، وحرّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجيبهم . فأنزل الله هذه الآية . وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبي ﷺ : لا تكف منك إلا بأن تكف ياكهتنا ولو يطرف أصابعك ، فقال النبي ﷺ : ما على لو فعلت والله يعلم أني بارء . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : دَعُ آلِهَتَنَا نَتَمَتَّعَ بِهَا سَنَةً وَنَأْخُذَ الْغَنَائِمَ مِنْ وَرَائِهَا وَتَحْرِمَ لَنَا بِلَدَنَا - أَيْ : ثَقِيف - كَمَا حَرَمْتَ مَكَّةَ . وَمَرَّةٌ يَقُولُونَ لَهُ : لَا تَسْتَلِمَ الْحَجَرَ وَيَمْنَعُونَهُ مِنْ اسْتِلامِهِ حَتَّى يَسْتَلِمَ آلِهَتُهُمْ أَوَّلًا .

ومعنى (كَادُوا) أَيْ قَارَبُوا ، وَالْمَقَارَبَةُ غَيْرُ الْفِعْلِ ، فَالْمَقَارَبَةُ مَشْرُوعُ فِعْلٍ وَتَخْطِيطٌ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ ، إِنَّهُمْ قَارَبُوا أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ لَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ ؛ لِأَنِّ مَحَاوَلَاتِهِمْ كَانَتْ مِنْ بَعِيدٍ ، فَهِيَ تَحْوِمُ حَوْلَ فَتْنَتِكَ عَنِ الدِّينِ ، كَمَا قَالُوا مَثَلًا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، وَنَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً^(١) .

ومعنى : ﴿ لِيَفْتَنُوكَ ﴾ لِيَحْوِلُونَكَ وَيَصْرِقُونَكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، لِمَاذَا ؟ ﴿ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْهَا غَيْرَهُ .. ﴾ [الْإِسْرَاءُ] كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. ﴾ [يُونُسَ] [يُونُسَ]

فَيَكُونُ الْجَوَابُ مِنَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنْني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يُونُسَ]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ لِكُمُ عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يُونُسَ]

ونلاحظ في مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن

(١) أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ قَرِيشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَهْطُوهَ مَا لَا يَكُونُ أَغْنَى رَجُلٌ بِمَكَّةَ وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ ، فَعَالُوا : هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَكَفَ مِنْ شَتَمِ آلِهَتِنَا وَلَا تَذْكُرِ آلِهَتَنَا بِسَرٍّ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلَنَا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَلَكَ فِيهَا صَلاَحٌ . قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً . فَنُزِّلَ الْوَحْيُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَشَاهِبُ الْكَافِرُونَ ١ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ ﴾ [الْكَافِرُونَ] ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٦٨٤/٨) .

رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكي لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٢) [الأنعام]

فلا تحزن يا محمد ، فانت مُصَدِّقٌ عندهم ، لكن المسألة عندي أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (٧٢) [الأنعام]

الخليل : هو المصالح الذي بينك وبينه حبٌّ ومودةٌ ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى في إبراهيم : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (١٣٥) [النساء]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التَّقِينَا قَرِيبَ الشُّوقِ جَهْدَهُ خَلِيلَيْنِ ذَابَا لِرُوعَةٍ وَعَثَابَا
كَأَنَّ خَلِيلًا فِي خِلَالِ خَلِيلِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما في صاحبه أو تخلله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلت عن المنهج الذي جاءك من الله لَضَرَبْتَ خَلِيلًا لهم ، كما كنت خَلِيلًا لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » ، إذن : الذي جعلهم في حالة عداوة لك هو منهج الله الذي جئت به ، فلو تنازلت عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خَلِيلًا ، فلا تَكُنْ خَلِيلًا لهم بل خَلِيلًا لربك الذي أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَتَرَكْتَ رُسُكُنَ إِلَيْهِمْ﴾

شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

﴿وَلَوْلَا﴾ أداة شرط إن دخلت على الجملة الاسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود . كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإن دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادت الحث والحض ، كما في قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ ﴿١٢﴾ [النور]

و (لولا) في الآية دخلت على جملة اسمية ؛ لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تركن إليهم شيئاً قليلاً .

والمعامل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقل : لولا تثبيتنا لك لركنت إليهم ، لا ، بل لقاربت أن تركن فممنعت مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممتوع نهائياً وغير متصور من رسول الله ، ومع ذلك أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٤﴾ [الاسراء] أي : ركوناً قليلاً .

مما يدل على أن طبيعته ﷺ - حتى دون الوحي من الله - طبيعة سليمة بفطرتها ، فلم تصورنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه ؟ يحدث مجرد (كاذب) أو (قَرَب) أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقاربة تعني مشروع فعل ، لكنه لم يحدث ، مما يدل على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى ﴿تَبَيَّنَّاكَ...﴾ ﴿٧٥﴾ [الاسراء] التثبيت هو منع المثبت أن يتأرجح ، لذلك نقول للمتحرك : اثبت .

ومعنى : (تَرَكْنُ) من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتسئ ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتسئ الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مثلاً فقد حمى ظهره فقط ، وأمن أن يأتيه أحد من ورائه ، فإن أراد أن يحمى جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْنٍ وأن يسند ظهره إلى الركن قياماً ما أمامه ، ويحتسئ بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حرز يمنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ وَكُنَّ شِدِيدِينَ﴾ (١٨) [مود] أى : احتسئ به والجأ إليه .

والحق سبحانه فى هذه الآيات يريد أن يستل السخيمة على محمد ﷺ من قلوب أعدائه ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشق على نفسه ويحملها ما لا تطيق فى سبيل هذه الغاية . ومن ذلك ما حدث من تركه عبد الله بن أم مكتوم الذى جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش ؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شق على نفسه^(١) .

وكان الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يقول : يا قوم إن لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عما أنزل إليه من ربه ، فاعذروه ؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني . ولا ذنب لمحمد فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما ، فأردت أن تتحمل عنه المسئولية ، فقلت : أنا الذى كلفته بهذا وأمرته به ، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل .

(١) وقد قال تعالى عن هذا : ﴿عَسَىٰ وَتَرَىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْنَىٰ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ بُرْهَانٌ﴾ (٢١) أو ﴿ذَكَرَ فَجَنَّتِهَا لِلْكَرْبَىٰ ۚ أَنَا مِنْ أَسْتَفْهِىٰ ۚ فَاتَتْهُ تَعْدَىٰ ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْهَىٰ ۚ وَأَنَا مِنَ جَاهِلَةٍ وَسْتَىٰ ۚ وَهُوَ يَخْفَىٰ ۚ فَاتَتْ عَنْهُ تَلْهَىٰ ۚ﴾ [يس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ

لَا يُجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (٧٥)

﴿ إِذَا ﴾ أى : لو حدثت تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُره من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى ﴿ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ .. (٧٥) ﴿ [الإسراء] الضعف : مضاعفة الشيء مرة أخرى . أى : قدر الشيء مرتين ، ولا يُذاق فى الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لأذقناك ضعف عذاب الحياة و ضعف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضاعف العذاب فى حق محمد ﷺ ؟

قالوا : لأنه أسوة كبيرة وقُدوة يقتدى الناس بها ، ويستحيل فى حق هذا الفعل ، ولا يتصور منه ﷺ ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعف له العذاب ، كما قال تعالى فى نساء النبي : ﴿ نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٦) [الاحزاب]

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين ، وهن أسوة لغيرهن من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان فى مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أن يتبرا عن الشبهة ؛ لأنه سيكون أسوة فعل ، فإن ضل فلن يضل فى ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدد الله العقوبة وضاعفها للنبي ولزوجاته .

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لَأَذَقْنَاكَ ﴾ ؛ لأن الإذاعة من

وكفار مكة يعلمون أن في خروجه ﷺ من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أسوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) ﴾ [الأنعام]

أى : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه ﷺ من مكة بعام جاءت بدر ، فقتل سبعون من صناديد قريش ، وأسر سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا يرجونها بعد خروجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا
وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

يُوضَحُ الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سنة من سنن الله في الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَبَّيَّنَّا كَلِمَاتِنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فكان عليهم أن يأخذوا عبرة من الرسل السابقين ، وبما حل بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكذبوا وعُودوا واضطهدوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الفلكية .

والسنة : هي العادة والطريقة التي لا تتخلف ولا تتبدل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الأنعام] ؛ لأن السنة لا تتحول ولا تتبدل إلا بالاقوى الذي يأتي ليغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السنة من الله القوى بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده

الذى يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقلوه الحق الذى لا يُبدله أحد ، ولا يُعارضه أحد .



وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أن يأتى لنا بثمرة هذا المنهج وخصيلته النهائية ، وهى أن يستقيم لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهى جاء فى صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبى ﷺ فى قوله : « بِنِىَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »^(١) .

إذن : هذه هى الأركان التى بنى عليها الإسلام ، لكن ما حظ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملت لوجدت أننا نشترك كلها فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لائى سبب ، وهى المكررة فى اليوم خمس مرات .

أما باقى الأركان وهى : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالمفكير لا يُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التى هى : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقت أركان الإسلام مع أركان المسلم .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سُورَةُ الْأَنْزَالَةِ

٨٦٩٦

وتلاحظ في هذه الأركان أن الشهادتين يكفي أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين ^(١) .
ثم قال تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ^(٢) ٧٨

فالصلاة هي الفريضة الثابتة المتكررة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال ، وفيها إعلان ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهي أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك في الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيدل أن كنت تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات في كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تستعمل على الصوم ؛ لأنك تصوم في أثناء الصلاة ، فتحتج عن شهوتَي البطن والفرج ، وكذلك عن أي فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام في غير ألفاظ الصلاة ، إذن ؛ في الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

(١) لفظه : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقي في تخرجه للأحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الصلا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووي في التفتيح : إنه منكر ياتل . لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .
(٢) قال القرطبي في تفسيره (١٠٣٦/٥) : « اختلفوا لفظاً في الذلوك على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قتاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .
الثاني : أن الذلوك هو الغروب ، قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب قال الماوردي : من جعل الذلوك اسماً لغروبها ، فلأن الإنسان يترك صنيته براحتة لقبيلتها حالة الغيب ، ومن جعل اسماً لزوالها فلأنه يترك عيته لشدة شعاعها » .

(٣) الغسق : ظلمة الليل ، وهو وقت صلاة العشاء . [القاموس القويم ٥٢/٢]

سورة الأَنْزِلَة

○ ٨٦٩٧ ○

وفى الصلاة زكاة ؛ لأن المال الذى تكتسبه وتزكّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفى الصلاة تُضَحَّى بالوقت نفسه ، فكان الزكاة فى الصلاة أبلغ .

وكذلك فى الصلاة حج ؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها فى ذهنك وأمام ناظريك .

لذلك استجبت الصلاة أن تكون عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، وَمَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة فى أول هذه الأحكام ، فقال تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : أدّها أداءً كاملاً فى أوقاتها .

والصلاة لها مَيِّزَة عن كل أركان الإسلام ؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحي لرسول الله إلا الصلاة ، فقد قُرِضَتْ بالمباشرة مما يدل على أهميتها ، وقد مثّلنا لذلك - والله المثل الأعلى - بالرئيس الذى يتصل برؤوسه تليفونيا ليأمره بشيء ، فإذا كان هذا الشيء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد قُرِضَتْ على رسول الله ﷺ وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فرائض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعلمها رسول الله للناس ، وقال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يريد أن يُبَيِّنَ لنا مواقيت الصلاة . و (الدلوك) معناه : الزوال من حركة إلى حركة ، ومنها قولنا : فلان (المدلكتاى)

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١) ، وأحمد فى مسنده (٥٢/٥) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه . ضمن حديث .

أى : الذى يتولى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلك الشمس : مَيلُها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الراسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوس ممتد وعلى حَسْبِ نظرهِ وقوته يرى الأفق ، فإن كان نظرهِ قسويًا رأى الأفق واسعًا ، وإن كان نظرهِ ضعيفًا رأى الأفق ضيقًا ؛ لذلك يقولون لقليل التفكير : ضيق الأفق .

وأنت حين تقف فى مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعة أن ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفت الشمس ناحية المغرب يُقال : دلت الشمس . أى : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمقابل فى قَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهر هو أول وقت صَلَّاه رسول الله ؛ لأن الصلاة قُرِضَتْ عليه فى السماء فى رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد ﷺ كان يستقبل الظهر ، فكانت هى الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنِّى غَسَقَ اللَّيْلِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أقم الصلاة عند دُلك الشمس إلى متى ؟ إلى غَسَقَ الليل أى : ظُلُمته ، وفى الفترة من دُلك الشمس إلى ظُلُمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء] وتتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يقل صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن فى هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن نديًا طريًا وتستقبله استقبالا واعيا قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء]

أى : تشهد الملائكة . إذن : المشهودية لها دَخَلَ فى العبادة ،
فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه فى الصلاة جعلها الله حيثية ،
فكيف بمشهودية مَنْ كُفِّ بالصلاة ؟

والحق سبحانه وتعالى جعل فى صلاة الجماعة استطرافاً
للمعبودية ، ففى صلاة الجماعة يستوى كل الخلق حيث يخلعون
وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون
أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المروءوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبى ﷺ أن يُوطَّن الإنسان لنفسه مكاناً فى المسجد ،
يجلس فيه باستمرار^(١) : لأن الأصل أن يجلس المصلى حيث ينتهى به
المجلس ، فيجلس الناس بأولوية الحضور كل حسب مكانه ومبادرته
للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب^(٢) ، ولا يُفرق بين اثنين^(٣) .

وترى بعض المصلين يسارع إلى الصف الأول مثلاً ، ويضع
سجادته ليحجز بها مكاناً ، ثم ينصرف لحاجته ، فإذا ما تأخر عن
الصلاة أتى ليتخطى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس
يضيقون من هذا التصرف ، ويُحُونَ سجادته جانباً ويجلسون مكانها ،
إنه تصرف لا يليق ببيوت الله التى تُسَوَّى بين خلق الله جميعاً ، وتحقق

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٨/٢) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى

سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة

الغراب ، والفراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » .

(٢) أخرج ابن ماجه فى سننه (١١١٦) من حديث سعد بن أنس قال قال ﷺ : « من تخطى

رقاب الناس يوم الجمعة أتخذ جسراً إلى جهنم » .

(٣) عن سلمان الفارسي قال قال ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر ، ثم

ادهن أو مسح من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فعلى ما كتب له ، ثم إذا خرج الإمام

انصت ، فليقل له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) .

استطراق العبودية لله ، فانت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ،
الجميع خاضع لله راكم وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً في مناسك الحج ، حيث
يأتي أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً
متضرعاً ، وهو مَنْ هو في دنيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهد ملائكة الليل ،
وهم غير مكلفين بالصلاة ، فالأفضل من مشهدية الملائكة مشهدية
المصلين الذين كلفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع
وعشرين درجة ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف^(١) .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس
بالوقت ، وبآية كونية تدل عليه هي الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ،
أو حُجِبَتْ عنَّا بغيم أو نحوه ؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويعمل تفكيره في إيجاد
شيء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتتت القرائح عن آلات ضبط الوقت
الموجودة الآن ، والتي تُيسر كثيراً على الناس ؛ لذلك كانت الطموحات
الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء
المسلمين ، على اعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ

رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝ ٧٩ ﴾

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع
وعشرين درجة » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٦٥٠) .

سُورَةُ الْأَشْرَافِ

○ ٨٧٠ ١ ○

الهجود : هو النوم ، وتهجد : أى أراح النوم والهجود عن نفسه ، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته ، أن يتهدد الله في الليل ، كما قال له ربه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾

[المزمل]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإن كانت فرضاً عليه ، إلا أنها ليست في قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية في هذه العبادة ، المهم أن يقوم الله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما علة هذه الزيادة في حق رسول الله ؟ العلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾

[المزمل]

وكان التهجد ليلاً ، والوقوف بين يدي الله في هذا الوقت سيعطى رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقة على عاتقه ، ألا وهي مسئولية حمل المنهج وتبليغه للناس .

وفي الحديث الشريف « أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة »^(١) ، ومعنى حزبه أمر : أى : ضاقت أسبابه عنه ، ولم يعد له فيه منفذ ، فإن ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبب سبحانه يلجأ إليه ويهرع إلى نجده ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) ﴾

[المزمل]

لأنك في الوقت الذي ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدي ربك مناجياً متضرعاً ، فتتنزل عليك منه الرحمات والفيوضات ، فعن قام من الناس في هذا الوقت

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

وَأَقْتَدَى بِكَ فَلَئِمَّ بِتَصِيبٍ مِنْ هَذِهِ الرَّحِمَاتِ ، وَحَظُّ مِنْ هَذِهِ الْفَيَوضَاتِ .
وَمَنْ تَنَاقَلَتْ رَأْسَهُ عَنِ الْقِيَامِ فَلَا حَظَّ لَهُ .

إِذَنْ : فِي قِيَامِ اللَّيْلِ قُوَّةُ إِيمَانِيَّةٍ وَطَاقَةُ رُوحِيَّةٍ ، وَلَمَّا كَانَتْ مَهْمَةُ
الرَّسُولِ فَوْقَ مَهْمَةِ الْخَلْقِ كَانَ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَزِيدَ مِنْ حَظِّهِمْ ،
فَاعْبَاءُ الرَّسُولِ ﷺ كَثِيرَةٌ ، وَالْعِبَاءُ الثَّقِيلُ يَحْتَاجُ الْإِتِّصَالَ بِالْحَقِّ
الْأَحَدِ الْقَيُومِ ، حَتَّى يَسْتَمِعِينَ بِلِقَاءِ رَبِّهِ عَلَى قَضَاءِ مَصَالِحِهِ .

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ يَنْصَرِفَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ ، وَيَتَغَافَلُونَ
عَنْهَا ، فَإِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ لَا يُهَرَّعُونَ إِلَى الصَّلَاةِ ، بَلْ يَتَجَلَّلُونَ ، يَقُولُ
أَحَدُهُمْ : أَنَا مَشْغُولٌ ، وَهَلْ شَغَلَ الدُّنْيَا مَبْرَرَ لِلتَّهَانُونَ فِي هَذِهِ
الْفَرِيضَةِ ؟ وَمَنْ يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ بِالصَّلَاةِ تُفْتَحُ لَكَ الْأَبْوَابُ ، وَتَقْضَى فِي
سَاعَةٍ مَا لَا تَقْضِيهِ فِي عِدَّةِ أَيَّامٍ .

وَنَقُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَهَانُونَ فِي الصَّلَاةِ وَتَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا عَنْهَا ،
فَإِنْ صَلُّوا صَلُّوا قَضَاءً ، فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ قَالُوا : الْمَشَاغِلُ كَثِيرَةٌ وَالْوَقْتُ
لَا يَكْفِي ، فَهَلْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الذَّهَابَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ، هَلْ سَيَجِدُ وَقْتًا
لِهَذَا ؟ إِنَّهُ لَا شَكَّ وَاجِدَ الْوَقْتِ لِعَمَلِ هَذَا الْأَمْرِ ، حَتَّى وَإِنْ تَكَالَبَتْ عَلَيْهِ
مَشَاغِلُ الدُّنْيَا ، فَلَمَّاذَا الصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا وَقْتًا ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَافِلَةٌ لَكَ .. ﴾ (٧٩) ﴿

[الْإِسْرَاءُ]

النَّافِلَةُ هِيَ الزَّيَادَةُ عَمَّا فَرَضَ عَلَى الْجَمِيعِ (لَكَ) أَيْ : خَاصَّةٌ بِكَ
دُونَ غَيْرِكَ ، وَهَذَا هُوَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾

[الذَّارِيَاتُ]

والمحسن هو الذى دخل مقام الإحسان ، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه ، ومن جنس ما فرض ؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات] وهذا المقام ليس فرضاً عليك ، فلك أن تصلى العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، لكن إن أردت أن تتأسى برسول الله وتتشبه به فادخل فى مقام الإحسان على قدر استطاعتك .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَمَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُّحْمُودًا (٢٨) ﴾ [الإسراء] تحدثت الآية فى أولها عن التكليف ، وهذا هو الجزاء ، و (عَسَى) تدل على رجاء حدوث الفعل ، وقرئ بين التمنى والرجاء ، التمنى : أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا

فالشاعر يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه ، وهذا أمر مستحيل الحدوث .
وقوله :

أَلَا لَيْتَ الشُّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة ؛ فإن طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنى ، وإن طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجى ، وإن طلب صورة الشيء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول : أين زيد ؟ وقرئ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإن طلبت حقيقة الشيء ، فأمامك حالتان : إما أن تطلب الحقيقة على أنها تفعل فهذا أمر ، مثل : قم ، فإن طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهى : لا تقم .

إذن : (عسى) تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإن رجوت من فلان فقد أعطيك أو يخذلك ، فإن قلت : عسى أن أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأننى أرجو من نفسى ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يقى بما وعد .
فإن قلت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوت من لا يعجزه شيء ، ولا يتعاطمه شيء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقق لا شك فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أى الذى يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يقل : محمود ممن ؟ فهو محمود ممن يمكن أن يتأتى منه الحمد ، محمود من الكل من لدن آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حيثما يقف الخلق فى ساحة الحساب وهول المرقف وشدته ، حتى ليستمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ساعتها تستشفع كل أمة بشيها ، فيردها إلى أن يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها^(١) .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٠٢٨/٥) : « اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال : الأول : وهو أصحابها ، الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله حذيفة بن اليمان .
الثانى : إسمائهم لواء الحمد يوم القيامة . قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

الثالث : هو أن يجلس الله تعالى معهما ﷺ معه على كرسية .

الرابع : إخراجهم من النار بشفاعته من يخرج ، قاله جابر بن عبد الله .

لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء : « وأبعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته »^(١) ولا شك أنه دعاء لصالحنا نحن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ٨٠ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ٨٠ ﴾ [الإسراء] أى : من حيث النظرة العامة ؛ لأنك قبل أن تدخل اطلب الخروج أولاً ؛ لأنك لن تدخل إلا بعد أن تخرج . وإن كان الترتيب الطبيعي أن نقول : أخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وأدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ .

نقول : لا ؛ لأن الدخول هو غاية الخروج ، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك ، إذن : الدخول هو الأهم قبيلاً به . لذلك يقولون : إياك أن تخرج من أمر إلا إذا عرفت كيف تدخل .

ومعنى مخرج الصديق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإن خرجت من مكان فليكن مخرجك مخرج صدق ، يعنى : مطابقاً لواقع مسهمتك ، وإن دخلت مكاناً فليكن دخولك مدخل صدق . أى : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلت محلاً مثلاً فادخل

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة القامة والصلاة القائمة آت محمداً الرسيلاً والفضيلة ، وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤) ، والترمذى فى سننه (٢١١) ، وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥٤) .

لهدف ، كـشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صدق ، أما لو دخلت دون هدف أو لتؤدي خلق الله ، فليس في هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرَجَ صدق ، ودخل مُدْخِلَ صدق ، لأنه ﷺ ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعد التربية في مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُصرة والمُؤازرة من أهلها .

فالصدق أن يطابق الواقع والسلوك ما في نفسك ، فلا يكن لك قصور في نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الاسراء]

طلب النُصرة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعَادُونَ الدعوة ، ويُجَاهِلُونَهَا ؛ لذلك توجه رسول الله ﷺ إلى ربه تعالى الذي أرسل واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : ﴿ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الاسراء] السلطان : سبق أن أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يردع ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. ﴾ [الحديد] أي : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] وهذه أدوات القوة والردع .

فالخير من الناس يرتدع بقول الله ويقول الرسول ويستجيب ، أما الشرير فلا تُجدي معه الحجة ، بل لا بُدَّ من رَدِّعه بالقوة ، فالاول إن تعرَّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أما الآخر فإن تعرَّض للحلف حلف كاذباً ، ووجدهما فُرْصةً للنجاة ، ولسان حاله يقول : أباك الفرج ، وفي الآخر : « إن الله ليذبح بالسلطان ما لا يذبح بالقرآن »^(١) .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مدوياً (جَاءَ الْحَقُّ) وما دام قال للرسول : (قُلْ) فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شك فيه ؛ لذلك أمره بهذا الأمر الصريح ولم يُوسَّسه له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله في عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فيككبُّهم جميعاً ، وينادي : « جاء الحق وزهق الباطل » جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبديء الباطل وما يعيد^(٢) .

أى : جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديه القوة التي يُبديء بها أو يعيد ، فقد خمدت قواه ولم يبقَ له صَوْلَةٌ ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ .. (٨١)﴾ [الإسراء]

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب - مادة : وزع) : « معناه أن من يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهي والإتذار » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وأورده القرطبي في تفسيره (٤٠٤٢/٥) وعزاه للبغوي والترمذي عن ابن مسعود .

يشعرنا بأن الحق أتى بنفسه ؛ لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتي فيه ، فلم يأت به أحد ، وكذلك في ﴿وَزَهَّقَ الْبَاطِلَ (٨٦)﴾ [الإسراء] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحر ضعيف لا بقاء له .

ومن العجيب أن الحق الذي جاء على يد رسول الله في فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففي يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة في دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وما هو اليوم يدخلها منتصراً ويوقفهم أمامه ويقول : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء »^(١) .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورفع رؤوسهم . ومن الحق الذي أظلم مكة بالفتح ما يُروى أن واحداً دخل على النبي ﷺ الكعبة وأراد إيذائه ، وحينما وضع يده على رسول الله ﷺ تبدل حاله وقال : فو الله لقد أقبلت عليه ، وما في الأرض أبغض إليّ منه ، فحين وضعت يدي عنده فو الله ما في الأرض أحب إليّ منه^(٢) ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

(١) من أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة يستفتحها وفتح الله عليكم ، ثم دخل صناديد قريش من المشركين الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم ، ثم طاف بالبيت وسلمى ركعتين . ثم أتى الكعبة فآخذ بمضادتي الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : ابن أخ وابن عم حلیم رحيم . [ثلاثاً] فقال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف : ﴿ قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٢٤) ﴾ [يوسف] قال : فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥٨/٥) .

(٢) قال ابن هشام في سيرة النبي ﷺ (٢٧/٤) : أن فضالة بن عميز بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « فضالة ، قال : نعم فضالة يا رسول الله . قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله عز وجل . قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١)

[الإسراء]

زَهُوقٌ صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله ؛ لأن الباطل لو لم يُؤْلَم الناس ويُزعجهم ما تشوّقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكثروا بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق والباطل ، فقال :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٧)

[الرعد]

الحق سبحانه يُمثّل للحق والباطل بشيء حسّي فراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء إلى الأودية بين الجبال حاملاً معه صفار الحصى والرمال والقش ، وهذا هو الزَّبَد الذي يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وحين تهب الرياح تُنَحِّي هذا الزَّبَد جانباً ، ويبقى الماء الرائق الصالح الذي ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذي ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذي لا خير فيه .

أو : يعطينا المثال في صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذي يُوقِد النار على الذهب ليفرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢)

الآية تُعطينا نموذجين لتلقى القرآن : إن تلقاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإن تلقاه الظالم كان عليه خسارة ، والقرآن حُدُّه الظالمين ليُبين أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن ؛ لأن القرآن خير في ذاته وليس خسارة .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مرّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعَل للماء مختلف . كذلك أكل الدُّسم ، فإن أكله الصحيح نفعه ، وزاد في قوته ونشاطه ، وإن أكله السقيم زاده سُقماً وجَرَّ عليه علة فوق عِلته .

وقد سبق أن أوضحنا في قصة إسلام الفاروق عمر - رضى الله عنه - أنه لما تلقى القرآن بروح الكفر والعناد كَرِهه ونَفَرَ منه ، ولما تلقاه بروح العطف والرُّقَّة واللين على أخته التى شجَّ وجهها أعجبه فأمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر فى تلقى القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماء قد ملىء نصفه ، فالمتفائل يُلِفُّ نظره النصف المملوء ، فى حين أن المتشاؤم يُلِفُّ نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتلئ . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقى هذه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَكُنْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا

لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ،
إلا أن العيب في جهاز الاستقبال عنده ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز
الاستقبال عنده لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ ۞ (٨٧) ﴾ [الإسراء] متوقف على سلامة الطبع ،
وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ
من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ،
فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاء القرآن شفاءً معنويًّا لأمراض القلوب وعمل
النفوس ؟ فيخلص المسلم من القلق والحيرة والغيرة ، ويجتث ما في
نفسه من القلِّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ،
أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأى الراجح - بل المؤكد - الذي لا شك فيه أن القرآن شفاء
بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء
للمعنويات ، بدليل ما رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -
وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ،
فأَبَوْا إطعامهم ، وحدث أن لُدِغَ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه
فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعَلٍ^(١) ، وذلك لما رأوه من

(١) الجُعَلُ : ما جمعه له على عمله . وهو الأجر على الشيء فعلاً أو قولاً ، [لسان العرب -
مادة : جمل] .

يُخْلَهُمْ وَعَدَمَ إِكْرَامِهِمْ لَهُمْ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف]

ولما اتفقوا معهم على جَعْلٍ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّيْءِ قَامَ أَحَدُهُمْ بِرَقِيَّةٍ اللَّدِيغِ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ فَبَرِئَ ، فَأَكَلُوا مِنَ الطَّعَامِ وَتَرَكَوا الشَّيْءَ إِلَى أَنْ عَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حِلِّ هَذَا الْجَعْلِ فَقَالَ ﷺ : « وَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّهَا رَقِيَّةٌ » أَيْ : أَنَّهَا رَقِيَّةٌ يَرْقَى بِهَا الْمَرِيضُ فَيَسْبِرُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : « كُلُوا مِنْهَا » وَاجْعَلُوا لِي سَهْمًا مَعَكُمْ ^(١) .

فَشَفَاءُ أَمْرَاضِ الْبَدَنِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ فِي السُّنَّةِ ، وَلَيْسَ عَجَبِيَّةً مِنَ الْعَجَائِبِ ؛ لِأَنَّكَ حِينَ تَقْرَأُ كَلَامَ اللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، يَتَصَرَّفُ فِي كَوْنِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَبِكَلِمَةٍ (كُنْ) يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يُؤَكِّرَ كَلَامَ اللَّهِ فِي الْمَرِيضِ فَيُشْفَى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء ، قَالُوا لَهُ : كَيْفَ يُشْفَى الْمَرِيضُ بِكَلِمَةٍ ؟ هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ ، فَقَالَ الْعَالِمُ لِصَاحِبِهِ : اسْكُتْ أَنْتَ حِمَارٌ !! فَغَضِبَ الرَّجُلُ ، وَهَمَّ بِتَرْكِ الْمَكَانِ وَقَدْ ثَارَتْ ثَوْرَتُهُ ، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ الْعَالِمُ وَقَالَ : أَنْظِرْ مَاذَا فَعَلْتَ بِكَ كَلِمَةً ، فَمَا بِأَنَّكَ بِكَلِمَةٍ ، الْمُتَكَلِّمُ بِهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٧)﴾ [الْإِسْرَاءُ] لِأَنَّهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَاسْتِقْبَالِهِمْ فَيُؤْضَاتُ السَّمَاءَ بِعِلَاقَاتِ سَقِيمَةٍ ، وَأَجْهَازَةٍ مُتَضَارِبَةٍ مُتَعَارِضَةٍ ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا بِرَحْمَاتِ اللَّهِ .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (١٤ / ٢) وَابْنُ خَرَّازٍ فِي مُسَمِّعِهِ (٥٧٢٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بَعَائِدَهُ ۖ

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّسُ ۖ ﴾ (٨٢)

الله تعالى يريد أن يعطى الإنسان صورة عن نفسه ؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطى الطبيب جرعة الطعم أو التحصين الذى يمنع حدوث مرض ما . فها هي طبيعة الإنسان وسيمته الغالبة ، وعليه أن يُخَفَّفَ من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرض .

ولكى تُوضَّح هذه المسألة نُمثِّلُ لها - والله المثل الأعلى - بالوالد الذى يعطى للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتى موعد ما تعود عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوده على أن يعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد فى الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم . فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذى دعاه إلى هذا التصرف ؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإن كان الابن باراً مؤمناً فإنه لا يشقى قَضْلُ والده الذى وفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِّر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإن كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الرب الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ .. ﴾ (٨٢)

أى : أعرض عنا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منتهجنا ، ومن الناس مَنْ يُعْرِضُ عن ذكر الله ، ولكنه يؤدّي منهجه ، ولو أدّى المنهج مع ذكر صاحب المنهج ما نسي المنعم أبداً .

وإذا شغل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكانه يُخطئه المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ۚ ﴾ [العلق]

فلاستغناء هنا ليس ذاتياً في الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهى في يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعم سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ ﴾ [العلق]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى في الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشُّرُوءُ كَانَ بِكُورًا ۚ ﴾ [الاسراء] وهذه صفة مذمومة في الإنسان الذي إذا ما تعرض لشر أو مسه ضرر يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذي يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقت بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبب سبحانه ، وما دُمْتَ في رحاب مسبب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون : « لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبِّ » ، فيجوز لك القنوط إن لم يكن لك رب يتولأك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومن له أب لا يلقى لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه في قضاء حاجاته ، فما بالك بمن له رب يرعاه ويتولاه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه في كل وقت ؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أن يعطينا الأسوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن

أَدُيْتُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا فَاَنْكُرُوهُ ، اَوْ مَعْرُوفًا فَجَحْدُوهُ ، وَكَيْفَ تَحْزَنُ وَهُمْ
يَفْعَلُونَ هَذَا مَعِيَ ، وَاَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فَكَثِيرًا مَّا اُنْعِمَ عَلَيْهِمْ ،
وَيُسيْثُونَ اِلَيَّ ، وَيَكْفُرُونَ بِي وَبِنِعْمَتِي .

وسيدنا موسى - عليه السلام - حينما طلب من ربه تعالى ألا
يُقَال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وَاَنَا لَمْ اَفْعَلْ ذَلِكَ
لنَفْسِي ؟ ! اِنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَيْسَ فِيهِ ، وَيَكْفُرُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ
وَيَنْكُرُونَ اِيجَادَهُ وَنِعْمَهُ ، فَمَنْ يَقْضِبْ لِقَوْلِ الْكَافِرِينَ اَوْ اِيْذَانَهُمْ لَهُ بَعْدَ
هَذَا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويَقْنَط ؟ لانه في حال النعمة اعرض
عن الله ونأى بجانبه : اى ابتعد عن ربه ، لم يَعدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ
إليه اَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ ضَيْقَ الدُّنْيَا .

إِذَنْ : لما اعرض في الاولى يَثْسُ في الثانية . والله تعالى يجيب
مَنْ دَعَاهُ . ولجأ إليه حال الضيق حتى اِنْ كَانَ كَافِرًا ، كما قال تعالى :
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ۖ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ

هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾

أى : اَنْ كل إنسان يعمل على طريقته ، وعلى طبيعته ، وعلى
مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان ، اَوْ من خلايا إيمان اختلطت
بخلايا عصيان ، اَوْ بما عنده من خلايا كفر ، فالناس مختلفون

وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول - إذن - أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإن أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيب ؛ لذلك يقولون : لا تُكَافِئْ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَيُكَ بِمَا كَثُرَ مِنْ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ . وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ (٨٤) [الإسراء] والربُّ : المتولى للتربية ، والمتولى للتربية لا شك يعلم خبايا المرئى ، ويعلم أسرارهِ ونواياه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [المك]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى ^(١) :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥)

(١) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حوث بالمدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بهذا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستبشركم بما تكرمون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت بيدي على جيبتي ، فعرفت أنه ينزل عليه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) [الإسراء] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير في تفسيره (٦٠ / ٣) : « هذا السياق يقتضى فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مخفية ، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل تلك ، أو أنه نزل عليه الرحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، » .

والسؤال يرد في القرآن بمعان متعددة ، ووردت هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في مواضع عدة ، فإن كان السؤال عن شيء نافع يضر الجاهل به أجابهم القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. ﴾ (٢٢٢) [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢١٥) [البقرة]

فإن كان السؤال عن شيء لا يضر الجاهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما في سؤالهم عن الأملّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بديراً ، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم تعرفها إلا حديثاً أمر غير ضروري ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجاهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أميّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأملّة : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

وقد يأتى السؤال ، ويُراد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

(١) أَخْرَجَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْتَهْدٍ (٦٠/٣) عَنْ أَبِي عِيَّاسٍ وَخُصِي لَهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَتْ قَرِيشُ لِيَهُودٍ : أَمْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَقَالُوا : سَلُوا عَنْ الرُّوحِ ، فَقَالَتْ : ﴿ وَسَأَلْتُكَ عَنْ الرُّوحِ فَقُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُرَيْتُمْ مِنْ الظُّلُمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء] .

وقد تُطْلَقُ الروح على الوحى ذاته ، كما فى قوله تعالى :
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٥٧) [الشورى]

وتأتى بمعنى التثبيت والقوة ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ لَكَ
كُتُبٌ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانِ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ .. ﴾ (٢٢) [المجادلة]

وأُطْلِقَتِ الروح على عيسى ابن مريم - عليه السلام - فى قوله
تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِّنْهُ .. ﴾ (١٢١) [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتَعَدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التى بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ فى الإنسان
تعطى مادية الحياة ، ومادية الحياة شيء ، وقيم الحياة شيء آخر ،
فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسميه روحاً ؟ لا ، بل
هو روح الروح : لأن الروح الأولى قصارها الدنيا ، لكن روح المنهج
النازل من السماء فخالدة فى الآخرة ، فأيهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أن تظن أن الحياة هى حياتك
أنت وكونك تُحس وتتحرك وتعيش طالما فىك روح . لا بل هناك روح
أخرى أعظم فى دار أخرى أبقى وأدوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) [العنكبوت]

لأن الروح التى تعيش بها فى الدنيا عُرْضَةٌ لأن تُؤْخَذَ منك ،
وتُسَلَبَ فى أى مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً فى بطن
أمك ، إلى أن تصير شيخاً طاعناً فى السن .. أما روح الآخرة ، وهى
روح القيم وروح المنهج ، فهى الروح الأقوى والأبقى : لأنها
لا يعثرها الموت .

إذن : سُمِّيَ القرآن ، وَسُمِّيَ الملك النازل به روحاً ؛ لأنه سيعطيني حياة أطول من حياة القيم في الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. ﴾ (٨٥) [الإسراء]

أى : أن هذا من خصوصياته هو- سبحانه ، وطالما هي من خصوصياته سبحانه ، فلن يطالع أحداً على سرها . وهل هي جوهر يدخل الجسم فسيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هي مراد (بَكْنُ) من الخالق سبحانه ، فَإِنْ قَالَ لَهَا كُنْ تحيا ، وَإِنْ قَالَ مِتْ تموت ؟

إنَّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٨٥) [الإسراء]

وهل عرف العقل البشرى كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح ؟

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفى : وهل أَحَطْتَ علماً بكل شيء فى الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذى لا تعلم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهلّة قال : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

وهذه هي الفائدة التى تعود علينا والنسب تهمننا من الأهلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التى تمر بها الأهلّة فأمور لا يضر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشىء ليست فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل

الأمى فى ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشىء لا تحتاج معرفة كل شىء عنها ، فيكفيك - إذن - أن تستفيد بها دون أن تدخل نفسك فى مستاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ^(١) مَا نَسَكَكَ يَدِ عِلْمٍ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يوفر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يجدى ، وألا يتعب نفسه ويجهدها فى علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره فى مثل مسألة الروح هذه ، أن ينشغل بعمل ذى فائدة له ولمجتمع . وأى فائدة تعود عليك إن توصلت إلى سر من أسرار الروح ؟ وأى ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مناط الاشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التى تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾ [الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب من بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلت إليه البشرية من علم .

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الاحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

وكانه سبحانه يقول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍ فقد غابت عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ۝ (٥٣) ﴾ [مفصلات]

وهاهم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون النفسي وفي الإنسان ، ولو تابعت ما توصل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالك ما توصلوا إليه من آيات وعجائب في خلق الله تعالى ، لكن هل معنى ذلك أننا عسرفنا كل شيء ؟ إن كلمة ﴿ سَتَرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخطى واسعة ، ففي الماضي كان التقدم يُقاسُ بالقرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد ، وترى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل ؛ لأنها قبل أن تُباع يخرج عليها أحدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ۖ ۝ (٧٤) ﴾ [يونس]

فكل ما نراه من تقدم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كنّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء ، وكنّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال ، فابتكارات الإنسان في الكماليات ، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فإذا ما استنفدت العقول البشرية نشاطاتها ، وبلغت مُنتهى ما لديها من ابتكارات ، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في

زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْنِ ^(١) بِالْأَمْسِ .. ﴾ (٧٤) ﴿

[يونس]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعم في الكون على قدر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى المنعم ذاته لتروا النعيم على حقيقته ، وكلما رأيتم في دنيا الناس ابتكارات واختراعات تسعد الإنسان ، فهذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعد الله الخالق لخلقه ؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرت لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقي عند المنعم سبحانه .

ولو تأملت هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فدور الإنسان أنه يعمل عقله وفكره في المقومات التي خلقها الله ، لكن مهما وصلت هذه الارتقاءات ، ومهما تطورت هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (٨٦) ﴿

(١) أي : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كان لم تقن ، كأن لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٤/٢٢٢] .

الحق سبحانه في هذه الآية يريد أن يُرَبِّي الكفار ويُؤَنِّبهم ، ويريد أن يُبَرِّئ ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبَلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْتَرٍ ، أو أتى بشيء من عنده ، بدليل أنني لو شئتُ لسلبتُ ما أوحيتُ إليه وقرأه عليكم وسمعتوه أنتم وكتبه الصحابة .

فإن سال متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنْزَل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا .. ﴾ (٨٦) [الإسراء] بمعنى : لو شئنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد ببيان إمكانية ذلك ليُبَرِّئ موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شيء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .. ﴾ (١٢٨) [المران] أنها ضد رسول الله ، وقَدَح في شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أن يتحمل عنه ما يمكن أن يفسد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندي أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذي فعل شيئاً ، فيأتي سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذي أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد في قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقداً الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ في الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إِنْ » ، وهي

تستخدم للأمر المشكوك في حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتى للأمر المحقق .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه أنه إن ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلِيًّا وَكَيْلًا ﴾ (٨٦) [الإسراء]
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (٨٧)

قوله تعالى ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴾ (٨٧) [الإسراء] أى : أنك لا تجد لك وكيلاً فى أى شئ إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فضلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨)

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بيته وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، واسمع بها الناس جميعاً : لأن القضية قضية تحد للجميع .

﴿ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ .. ﴾ (٨٨) [الإسراء] وهما الثقلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذى هو مناط التكليف . وقد أرسل النبى ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

القرآن كما استمعت إليه البشر :

﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا ۖ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. (٢) ﴾ [الجن]

والتحدى معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحداهم بشيء لا علم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدى في هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدثت إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدى في محله ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى - عليه السلام - العصا واليد ، وهي من جنس ما نبغ فيه قومه من السحر ، وجاءت معجزة عيسى - عليه السلام - إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا في الطب ، وكانت معجزته ﷺ في البلاغة والفصاحة التي نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صدق رسالته ، لكن الآيات لا تقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذي يختار الآيات التي تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صدق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات في مجالات لا علم لهم بها ، فكيف يتحداهم الله في مجال لا نبوغ لهم فيه ، وليس لهم دراية

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لدن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثت لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردت من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس مَنْ شاهدها ، فتنبوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكونُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يكلمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره ﷺ .

وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوي يُنظّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفك عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشئ آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والابرس ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أن يفسح لهم جبال مكة ، ويوسع عليهم الأرض ، وأن يحيى لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا قَرَأْنَا بِهِ الْجِبَالَ أَوْ قَطَعْنَا بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٣١) [الرعد]

أي : كان في القرآن غناء لكم عن كل هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إن كانت

سُورَةُ الْأَنْشُرَةِ

٨٧٢٩

الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته في البلاغة والفصاحة ليتحدى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول : أولاً : إذا كان العرب الذين ارتاضوا على الملكة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدى ، فغيرهم ممن اتخذ العربية صناعة لا شك أعجز .

ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة في القرآن في فصاحته وبلاغته فقط ؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للامة المتلقية للدعوة الاولى ، هؤلاء الذين سيحملون عبء الدعوة ، وَيَسِيحُونَ بها في شتى بقاع الارض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .

فالغيبيات التي يخبرنا بها ، والكرونيات التي يُعَدِّثُنَا عنها ، والتي لم تكنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنْزَلٌ على نبيٍّ أميٍّ ، وفي أمة أمية غير متقفة ، فهذه كلها نواحي إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زِلْنَا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أن يكشف لنا عن معناها .

وفي الماضي القريب توصل العلم إلى أن الذرة أصغر شيء في الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة في مثل قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]

وبتقدم وسائل البحث توصلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا في الكون ما هو أقل من الذرة ، فظن البعض أن هذه لا ذكْر لها في القرآن ، وظنوا أنهم تصيدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعنوا

النظر في كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمي رصيذاً في كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿وَمَا يَعْزُبُ^(١) عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو قُتِّعَتْ أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيذاً واحتياطاً في كتاب الله ، ألا ترى في ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحداهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] وأدخل الجن في مجال التحدي ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مقوّه ، أو عبقري عنده نبوغ بياني شيطاني يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادي عبقر » ، لذلك لم يكتف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبون إليهم القوة في هذا الامر . ثم يقول تعالى : ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] فالتحدى أن يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أن يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الامر ، فمستحيل أن يأتوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصور في مجال التحدي أن يأتوا بمثله . قلنا قلت : هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شك أن المشبه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقي المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أولى .

فالحق سبحانه في قوله : ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

(١) أي : لا يلجب ولا يباعد عنه أي شيء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ١٨/٢] .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٨٧٣﴾

لا ينقضى عنهم أن يأتوا بقرآن ، بل يمش القرآن ، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل ؟

ثم يقول تعالى زيادة في التحدى : ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) [الإسراء]

والظهير : هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٤) [التحريم]

لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبحانه : بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية ، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جميعاً في سبيل هذا التحدى ، حتى إذا كان في أحدكم نقص أكمله الآخر .

لكن ، هل ظل التحدى قائماً على أن يأتوا بمثل القرآن ؟

المتتبع لهذا الموضوع في القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يبتزل معهم في القدر المطلوب للتحدى ، وهذا التنزل يدل على ارتقاء التحدى ، فبعد أن تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن ، تحداهم بعشر سور^(١) ، ثم تحداهم بسورة واحدة^(٢) ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدى ، فلا شك أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن :

وهذا التنزل الذى يفيد الارتقاء كما تجمع مثلاً بين العتناقضات ،

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ فَلْإِنَّا قَالُوا بِمِثْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُعْتَرِبَاتٍ وَأَدْعُوا مَنَ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لِي وَبِسِمْثَانِ نَزَّاتًا عَلَىٰ غَيْبَاتِنَا قَالُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التزلُّ لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدي ، فليس الهدف منه تهجين القوم ، بل أن تثبت لهم السواسية بين الخلق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هي القضية التي تُزعجهم وتقص مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صدق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبرون لقتله .

ولذلك من غيائهم أن قالوا : ﴿ تَوَلَّوْا قُرْآنَ هَٰذَا الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن في حد ذاته ، بل على محمد الذي نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٥٤) [النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخلق يختلفون أمام رحمة الله في مسائل الدنيا التي لهم فيها أسباب وسعى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذي ليس في أيديهم ؟ كيف يريدون التدخل فيه : ﴿ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴾ (٣٢) [الزخرف]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآني ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ

فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُونَ ﴾ (٨١)

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ،

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعاني مختلفة ، فلا بد أن يصرف الأسلوب ويقلبه على أكثر من وجه ، فالذي لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثلة مختلفة .

ونأخذ مثلاً على ذلك قضية القصة ، وهي الألوهية ووحداية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها في معارض مختلفة هكذا : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ..﴾ (٢١) ﴿[الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفقد العلقة اللغوية التى يتلقى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لفسدتا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة . لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإن كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلا) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..﴾ (١١) ﴿[المؤمنين]

فالحق تبارك وتعالى مُنَزَّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لذهب كل إله بما خلق ، واختص نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء الوجود ، فأيهما يبرزه ؟ إن قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإن لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للالهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأَبْتَرَاءُ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَبِيلًا ۚ ﴾ [الإسراء]

أى : إن كان مع الله آلهة كما يدعى المشركون لذهب هؤلاء الآلهة إلى ذى العرش يعاقبونه أو يؤذّبونه ، أو يعاقبونه ؛ لانه انفرد بالملك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ ۝ (١٨) ﴾ [آل عمران]

ولم يأت من ينافعه هذه المكانة ، أو يدعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتت له هذه القضية إلى أن يوجد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إن لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، والله المثل الأعلى : هب أن جماعة انصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود فى مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هى لى ، أيشك صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصريف أيضاً فى أسلوب القرآن فى مسألة ادعاء أن الله تعالى ولداً ، تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ﴾

الله .. (٣٠) ﴿ [التوبة] فِيرِدُ الْقُرْآنُ هَذَا الزَّعْمَ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿ بِدَيْعِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً .. (١٠١) ﴾ [الأنعام]
وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل]

أى : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أن
تأخذوا أنتم البنين : لأنهم المفضلون حسب زعمكم ، وتتركون له
تعالى البنات : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) ﴾
[النجم] أى : قسمة جائرة .

وهكذا يُصَرِّفُ الْقُرْآنُ أَسْلُوبَهُ ، وَيُحَوِّلُهُ لِيَقْنَعَ بِهِ جَمِيعَ الْعُقُولِ ؛ لِيُنَاسِبَ
كُلَّ الطَّبَاعِ . وَتَمْتَازُ لُغَةُ الْعَرَبِ بِالْمَثَلِ وَالْحِكْمَةِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّصْرِيفِ فِي
أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ اسْتِخْدَامُ الْمَثَلِ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ مُوجِزٌ ، يَحْمِلُ الْمَعْنَى الْكَثِيرَةَ
وَتَتَعَشَّقُ لَفْظُهُ ، وَتَقُولُهُ كَمَا هُوَ دُونَ تَغْيِيرٍ إِذَا جَاءَتْ مَنَاسِبَتُهُ .

فَإِذَا أُرْسِلَتْ أَحَدًا فِي مَهْمَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ ، فَيُمْكِنُكَ حِينَ عَوْدَتِهِمْ تَقُولُ
لَهُمْ مُسْتَقْفِهِمَا : (مَاذَا وَرَاءَكَ يَا عَصَامُ ؟) هَكَذَا بِصِيغَةِ الْمُؤَنَّثَةِ
الْمُفْرَدَةِ . لِأَنَّ الْمَثَلَ قِيلَ هَكَذَا ، حَيْثُ أُرْسِلَ أَحَدُهُمْ أَمْرًا تَسْمَى عَصَامُ
لِتَخْطُبَ لَهُ إِحْدَى النِّسَاءِ وَحِينَئِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ خَاطِبَهَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ .
فَصَارَتْ مَثَلًا^(١) .

وَكَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ الَّذِي يَتَعَالَى عَلَيْكَ : (إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَغَدِ
لَا قِيَتَ إِعْصَارًا) إِنْ : الْمَثَلُ يَمْتَّازُ بِأَنَّهُ يَثْبُتُ عَلَى لَفْظِهِ الْأَوَّلِ
وَلَا يَتَغَيَّرُ عَنْهُ .

أَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ : قَوْلُ شَارِدٍ يَقُولُهُ كُلُّ وَاحِدٍ ، وَهُوَ كَلَامٌ يَقُلُّ
لَفْظُهُ ، وَيَجِلُّ مَعْنَاهُ .

(١) ذكر ابن منظور في لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر ، ثم قال :
« عصام هو اسم حاجب التميمي بن المنذر ، وهو عصام بن شهير الجرمي » ، وقد ذكره
الزوكلي في الأعلام (١ / ٢٣٢) .

كما تقول : « رَبِّ أَخْ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ » .

« لَا تُعْلِمُ الْعَوَانَ الْخِمْرَةَ »^(١) .

« إِنْ الْمُنْبِتُ »^(٢) لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، أَيْ : أَنْ الَّذِي يُجْهَدُ دَابَّتُهُ فِي السَّيْرِ لَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَرِيدُ ؛ لِأَنَّهَا سَتَنْقَطِعُ بِهِ وَلَا تُوصِلُهُ .

وَمِنْ الْحِكْمَةِ هَذِهِ الْآيَاتُ الشَّعْرِيَّةُ الَّتِي صَارَتْ حِكْمَةً مُتَدَاوِلَةً :
وَمَنْ يَكُ ذَا قَمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزَّلَالُ^(٣)
وقوله :

وَأَتَعَسَّ النَّاسُ حَقًّا مَنْ تَكُونُ لَهُ نَفْسُ الْمُلُوكِ وَحَالَاتُ الْمَسَاكِينِ

وَهَبْ أَنْ وَلَدَكَ أَهْمَلُ دُرُوسِهِ طَوَالَ الْعَامِ وَعِنْدَ الْإِمْتِحَانِ أَخَذَ يَجِدُ وَيَجْتَهِدُ وَيُرْمِقُ نَفْسَهُ ، هَذَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَقُولَ لَهُ : (قَبْلَ الرَّمَاءِ تُمْلَأُ الْكِنَانُ) وَالْكِنَانَةُ هِيَ الْمَخْلَاةُ الَّتِي تُوضَعُ بِهَا السَّهَامُ ، وَهَذِهِ لَا يَدُ أَنْ يُعِدَّهَا الصَّيَادُ قَبْلَ صَيْدِهِ لَا وَقْتُ الصَّيْدِ .

إِذَنْ : لِأَهْمِيَّةِ الْمَثَلِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ جَعَلَهُ الْقُرْآنُ لُزُومًا اسْلُوبِيًّا ، وَآدَاءَةً لِلِإِقْنَاعِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ (٢٦) [البقرة]

لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخَاطَبُ بِالْقُرْآنِ عُقُولًا مُخْتَلِفَةً وَطَبَائِعَ مُتَعَدِّدَةً ؛ لِذَلِكَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ الْمَثَلَ بِأَحَقَرِ مَخْلُوقَاتِهِ لِيُقْنِعَ الْجَمِيعَ كُلًّا بِمَا يَنَاسِبُهُ .

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : أَيْ الْمَجْرُبُ عَارِفٌ بِأَمْرِهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَزَوَّجَتْ تُحَسِّنُ الْقِنَاعَ بِالْخَمَارِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : هَوْنٌ] .

(٢) الْإِنْبِتَاتُ : الْإِنْقِطَاعُ . وَالْمُنْبِتُ فِي الْحَدِيثِ : الَّذِي أَتَعَبَ دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ ، فَبَقِيَ مُنْقَطِعًا بِهِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : بَثَتْ] فَلَا هُوَ وَصَلَ إِلَى قَابِلِهِ مِنْ سَفَرِهِ ، وَلَا هُوَ حَافِظٌ عَلَى دَابَّتِهِ .

(٣) الْمَاءُ الزَّلَالُ : سَرِيعُ الذُّزُولِ وَالْمَرُّ فِي الْحَلْقِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمَاءُ الْعَذْبُ الصَّافِي . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : زَلَّ] .

سُؤَالُ الْإِسْرَافِ

○ ٨٧٣٧ ○

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فالعجيب هنا مسألة الصُّغَر ؟

نقول : المراد بما فوقها . أى : فى المعنى المراد ، وهو الصُّغَر .
أى : ما فوقها فى الصُّغَر لا أكبر منها .

ثم يأتى بالمعنى فى صورة أخرى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٧٢)

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١)

إذن : يُصَرِّفُ الله الأمثال ويحولها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتضيه ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطى للجميع . بل يُشَخِّصُ الداءات ويحلُّها ويعالجها بما يناسبها ؛ لذلك يأتى الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث النبوى الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ السؤال الواحد ، وتأتى الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سئل ﷺ كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها »^(١) . وقال لآخر :

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

« بر الوالدين »^(١) وقال لآخر : « أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ هَلْكَ »^(٢) .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أَنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكثشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هي مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩) [الإسراء]

نعرف أن (إِلَّا) أداة استثناء ، تخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبقنا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيداً ، والآية أسلوب عربي فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يرضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرغ أَنْ يسبق بنفى .
ثم يقول الحق سبحانه^(٣) :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا نَهْرًا

أَلَّا تَرْضَىٰ نَبُوءًا ۖ ﴾

(١) قال أبو عمرو الشيباني : أخبرنا صاحب هذه الدار - وأوما بيده إلى دار عبد الله - قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » ، قال : ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .
(٢) عن أبي زر رضى الله عنه قال قال لى النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) .

(٣) سبب نزول الآية : ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٦٨ - ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل وروساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلهوه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعا وهو يظن أنه يدا في أمره يدا ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويمر عليه تمتهم حتى جلس إليهم ، ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأييد نفي الفعل في المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه ، أي : في المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتَقَلِّبٌ بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذي لا يتغير ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطراً عليه حال بعد حال ، فليس له أن يحكم على شيء حكماً قاطعاً في مستقبل هو لا يملكه ، فالذي يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذي لا تتناوله الأغيار .

لذلك : فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟ وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ نَقْصُهُ تَرَقَّبُ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمَّ

والعجيب أن الناس يتطلعون في نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبذا ، لو حدث كذا لَنَمَتْ هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص في النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كُلُّ صَاحِبِ نِعْمَةٍ بِمَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عينٌ حاسد ، أو حقد حاقِد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعِينُهُ على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة في الآخرين ، وأنه التهمة التي تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبي^(١) أن يمدح سيف الدولة^(٢) قال له :

شَخِصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعَدُّ
مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيبٌ وَاحِدٌ

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعمل عملاً سيئاً
واحداً يصد عنك شر أعيُنهم .

إذن : (لَنْ) تفيد تأييد النفس في المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه
إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أما صاحب الأغيار فليس له ذلك ،
والذين آمنوا فيما بعد برسول الله مَنَّ قالوا هذه المقولة : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ
لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (١٠) [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتكم (لَنْ) في الكذب ؛ لأنكم
أبدتُم نفى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفَجِّرْ لكم النبي ينبوعاً
من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبي جهل وقال في الخُذْمَةِ^(٣)

(١) المتنبي : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندي ، ولد (٢٠٢ هـ) بالكوفة في محلة
تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل في البداية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر
صبياً ، تنبأ في يادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ،
توفي ٢٥١ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلي ١/١١٥] .

(٢) هو : علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد في ميفارقين
بديار بكر عام ٢٠٢ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب
وتوفي بها ودفن في ميفارقين عام ٢٥٦ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلي ٤/٣٠٢] .

(٣) الخُذْمَةُ : جبل معروف عند مكة ، قال ابن بري : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم
الخُذْمَةِ ، وكان لقبهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب - مادة :
خُذِمَ] .

وكان عكرمة بن أبي جهل قد قال قبل هذا عن أذن بلال بن رباح للظُّهْرِ فرق ظُهر
الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا
العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٢٨] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٨٧٤١ ﴾

ما قال ، ثم رجع إلى النبي ﷺ مؤمناً معتذراً^(١) وخرج محارباً مع خالد بن الوليد في اليرموك ، وحين طعن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضي عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالِكاً لزامها ، ضامناً لنفسه ألا يتغير ، وألاً تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمُتَدَبِّرُ لاسلوب القرآن في سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

هكذا نفت الآية عبادة كل منهما لإله الآخر في الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة في المستقبل ، إذن : فليس في الآية تكرار ، كما يرى بعض قصار النظر .

ولك الآن أن تسأل : كيف نفى القرآن الحدث في المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذي يملك الأحداث ولا تُغيّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبدى النفي فيه .

(١) قرَّ عكرمة بن أبي جهل لمركب البحر فاصابهم عاصف ، فقال اصحاب السفينة : اخلصوا فإن الهلك لا تنقذ عنكم منها شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى في البحر إلا الإخلاص لا ينجنى في البر غيره » اللهم إن لك على عهدنا إن عافيتني مما أنا فيه أن أتى محمداً حتى أضع يدي في يده فلا جدت عفواً كريماً قال : فجاء فاسلم « [الإصابة في تمييز الصحابة] ٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٢٢ .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء] (٩٠)

وفى آية أخرى قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. ﴾ [القمر] (١٦)

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرج لك الماء من الأرض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ! لأنها تعوض ما أخذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يفيض الماء فيها قليلاً .

أما ينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شك أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ

فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [٩١]

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة)

أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصنفان المشهوران عند العرب ﴿ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [٩١] [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويراصلون تحديهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتَىٰ

بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [٩٢]

الزُّعْم : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطيئة

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَئِن تُؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٣)

البيت : هو المكان المعد للبيتوتة ، والذخرف : أى المزين ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل ذخرف من ذخارف الزينة يطرا عليه ما يُغيّره فبيست لونه ، وينطفئ بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورونقه ؛ فإن كان البيت نفسه من ذخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

وثرى الذين يُحيون أن ينافقوا تفاق الحضارات ، ويتبارون فى زخرفة الصناعات يُصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو تشرة من الذهب ؛ لتظل محتفظة بجمالها ، كما فى الاطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. ﴾ (٩٣) [الإسراء]

أى : يكون لك سلّم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، وراوا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَئِن تُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ .. ﴾ (٩٣) [الإسراء]

وكانهم يُبَيِّتُونَ العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى ،
وكاذبون في الثانية ، ولو نَزَّلَ الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا ،
وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَعَصَوْا عَنْ نَذَارِ اللَّهِ إِذْ أَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَحَسْبُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام]

وانظر إلى رَدَّ القرآن على كل هذا التعتت السابق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي .. ﴾ [الإسراء] وكلمة (سبحان) كلمة التقديس العليا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله : لأنها كلمة لا تُقَالُ إلا لله تعالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أن قالها أحد لأحد ، مع ما في الكون من جبابرة وعُتَاة ، يحرص الناس على منافقتهم وتملقهم ، وهذه كلمة اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان ، لكن لم يجرق أحد على قولها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرُون عليها ، وتحدي المختار في المثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تستطيع أن تفعل ذلك ، ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) ﴾ [المسد]

نزلت هذه الآيات في أبي لهب ، وهو كافر ، ويحتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدري رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرأنا يُتلى

وَيُحْفَظُ وَيُسَجَّلُ ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ،
وأن مصيره النار .

وهنا نقول : أما كان في إمكان أبي لهب أن يُكَذِّبَ هذا القول ،
فيقوم في قومه مُنادياً بـلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله -
ولو نفاقاً - وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟
لكن هذا لم يحدث ! لأن المتكلم هو الله رب العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء
مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة
(الله) ، فهو عَلَّمَ على الذات الإلهية لم يُؤَخَّذْ من صفة من صفاته
تعالى ، فـالقادر والغفور والحي القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة
من صفات ، إنما (الله) عَلَّمَ على الذات الجامعة لكل هذه الصفات

لذلك تحدى الخالق سبحانه جميع الخلق ، وقد أعطاهم الحرية في
اختيار الأسماء أن يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ،
ويعلن هذا التحدى في كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول :
﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجزئ كافراً واحداً على أن يُسمَّى هذا الاسم ليظل هذا
التحدى قائماً إلى قيام الساعة ! لأن الله تعالى حق ، والإيمان به
وبوجوده تعالى متغلغل حتى في نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن
هذه الكلمة كذب ، أو لا وجود لها لأقدموا على التسمية بها دون أن
يُبَالُوا شيئاً ، أما وهم يعلمون أن الله حق فلن يجزئ أحداً ، ويُجرب
هذه التسمية في نفسه ! لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدري ما هي .

لذلك رَدَّ الحق سبحانه على تعنت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ ..﴾ (١٢) [الإسراء] لأن الأمور التي طلبوها أمور بلغت من العجب حداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجب الوحيدة والتي لا تُطلق لسغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غنى عن ذلك في كتاب الله الذي نزل إليهم :

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجب أيضاً ؛ يطلبون هذه الآيات ، ولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناء لهم . . ثم يقول تعالى : ﴿هَلْ كُنتُمْ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) [الإسراء]

هل ادعيتُ لكم أنني إله ؟ ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربي ، وأفعل ما يأمرني به ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ

قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤)

أي : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً . هذه هي القضية التي وقفت في خلوقهم : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) [الإسراء]

والمتمامل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أن تتم إلا
ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقّي عن الله من
وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع
أن يتلقّى عن القوة العليا مباشرة ، فإذن : هناك مراحل : ﴿ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ (٥١) [الشورى]

لكن الرسول البشرى كيف يكلم الله ؟ لا بُدَّ أن تأتي برسول من
الجنس الأعلى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا .. ﴾ (٧٥) [الرح] وهذا
مرحلة ، ثم يصطفى رسولا من البشر يتلقّى عن الملك كى يستطيع
أن يُبلغكم : لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلا - والله المثل الأعلى : أنت إذا أردت إضاءة
لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائى عال ، هل يمكن أن توصّله بهذه
اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فوراً ، إذن : ما الحل ؟ الحل أن تأتي
بجهاز وسيط يُقلّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قدر
حاجتها فتضىء .

كذلك الحق سبحانه يصطفى من الملائكة رسلا يمكنهم التلقّي عن
الله ويصطفى من البشر رسلا يمكنهم التلقّي عن الملائكة ، ثم يبلغ
الرسول المصطفى من البشر بنى جنسه ، إذن : لماذا يُزعجكم فى أن
يكون الرسول بشراً ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهى أمر
طبيعى ؟

يقول تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ .. ﴾ (٦) [يونس]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ^(١) إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ^(٢) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ^(٣) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا..^(٤)﴾ [يس]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح - عليه السلام - ألم يقل له قومه : ﴿فَقَالَ الْعَالُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَأْتِكُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ..^(٥)﴾ [هود]

وقالوا : ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ^(٦)﴾ [المؤمنون]

وقالوا : ﴿أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ^(٧)﴾ [القصص]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر فى السنة المتبعة فى الرسل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ..^(٨)﴾ [النحل]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا رِجَالًا لِيَتِمَّ اللَّقَاءُ بَيْنَكُمْ ، وَإِلَّا فَلَوْ جَاءَ الرَّسُولُ مَلَكًا كَمَا تَقُولُونَ ، هَلْ سَتَرُونَ هَذَا الْمَلَكَ ؟ قالوا : لا هو مُسْتَتَرٌ عَنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أَنْ يَتَصَوَّرَ لَكُمْ الْمَلَكُ فى صورة رجل ليؤدى مهمة البلاغ

(١) قال ابن إسحاق فيما يلقبه عن ابن عباس وكعب الأحبار وروى عن مثبه أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصديق وشلوم فكذبهم ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون أنطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٥٦٦ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا تعود من حيث بدأنا ؛ لأنها الطبيعة التي لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَتَوَّجَعْنَاهُ مَلَكًا لِّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٦) [الأنعام] إذن : لا داعي للتمحُّك والعناد ، ومصادمة الفطرة التي خلقها الله ، والطبيعة التي ارتضاها لخلقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُّونَ مَطْمَئِنِينَ
لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٦٥)

(قُلْ) أى : ردًا عليهم : لو أن الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لنزلنا عليهم ملكًا رسولاً لكي يكون من طبيعتهم ، فلا بد أن يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح في حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين ليُعَلِّم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتي جبريل مجلس رسول الله في صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أن أدَّى مهمته انصرف دون أن يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم ليُعَلِّمكم أمور دينكم »^(١) .

شيء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أُسْوَةٌ سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۖ ۝ (٢١) ﴾ [الأحزاب]

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إن كان الرسول ملكاً ؟

فالرسول عندما يُبلِّغُ منهج الله عليه أن يُطبِّقَ هذا المنهج في نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِتَجَرَّةٍ ، بل هو إمامهم في القول والعمل .
لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبِّقُ القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر - رضي الله عنه - إذا أراد أن يُقننَ قانوناً ويرى أنه سيعتب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهلهم ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذِّرهم من المخالفة : « فوالذي نفسي بيده ، مَنْ خالفني منكم إلى شيء لأجعلنه نكالا للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أطبقه على نفسي » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها في عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قرلته المشهورة : « حكمت ، فعذلت ، فأمنت ، فثمنت يا عمر ، وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحواليه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدى به ، فإن رآوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجزق أحد منهم على المخالفة ، وإن رآوه منحرفاً فاقبوه في المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدما تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دين جهد منه أو تعب^(١) .

ولقد رأينا في واقعنا بعض الحكام الذين قهَمُوا الأسوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقى به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلية الأولياء ١/ ٥٠] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جده ، وكأنه يُلْغِظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أسوة سلوك وقُدوة ، فنراه ﷺ يحثُ الغنى على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإن توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُورثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين^(١) ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا منا أحسنُ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إن جاء ملكاً فإن الأسوة لا تتم به ، فإن أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتسج عليه : كيف وأنت ملكٌ لا شهوة لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسالنه ميراثهن من النبي ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧١١ ، ٢٧١٢) .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

○ ٨٧٥٢ ○

ومن هنا لا بُدَّ أن يكون الرسول بشراً فإنَّ حمل نفسه على منهج
فلا عُدْرٍ لاحد في التخلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى
الاقتداء بسلوكه .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً وقلنا : هَبْ أنك رأيتَ في الغاية أسداً
يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟
إنما لو رأيتَ فارساً على صهوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب
الاعداء ، ألا تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتمَّ القدوة ولا تصح إلا إن كان الرسول بشراً ، ولا
داعي للتمرد على الطبيعة التي خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً ﴾ (٩٦)

(قُلْ) أي : ردّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم
على بشرية الرسول : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴾ [الاسراء]
والشاهد إنما يُطلَب للشهادة في قضية ما ، فما القضية هنا ؟
القضية هي قضية تعنت الكفار مع رسول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه
مّا ليس في وسعه . والرسول لا يعنيه المتعنّتون في شيء ؛ لأن
أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً .. ﴾ (٩٦)

[الاسراء]

فإن كانت شهادة الشاهد في حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً ۖ ۞ (٩٦) ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الأمر : لأنه كان بعباده (خبيراً) يعلم خفاياهم ويطلع على نواياهم من وراء هذا التعتُّ (بصيراً) لا يخفى عليه شيء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِّ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا ۚ وَنُكَلِّمُهُمْ وَصَمًّا ۖ فَأُولَٰئِكَ فِي جَهَنَّمَ ۚ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ۞ (٩٧) ﴾

سبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصة بالمؤمن ، فبعد أن دلَّه الله آمن وصدق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتاحفه الله تعالى بهداية الترفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۖ ۞ (١٧)﴾ [المصمت]

أى : دللناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبوا العمى
والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضحان
هذين النوعين من الهداية ، يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ ۞ (٥٦)﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة : لأنه ﷺ لا يملكها ،
وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَأَنَّكَ لَا تَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٥٢)﴾

[الشورى]

فأثبت له هداية البيان والدلالة : لأن هذه هى مهمته كمبرلج عن
الله ، وهكذا أثبت له الحدث ونفاه عنه : لأن الجهة مُنْفَكَةٌ أى : أن جهة
الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ۞ (٧)﴾ [الروم]

فمرة : نفى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبت لهم العلم . والمراد
أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية
الظاهرة منها . ونحن نكرر مثل هذه القضايا لكى تستقر فى النفس
الإنسانية . وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قولُ الحق سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ رَمَىٰ ۖ ۞ (١٧)﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْيًا ، ونفى عنه رَمْيًا ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنْفَكَةٌ ؛ لأن النبي ﷺ في غزوة بدر أخذ حَفْنَةً من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرَمْي الذي أثبتته الآية ، وقد تولّت القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلّتهم عن القتال ، وهذا هو الرَمْي الذي نفاه الحق عن رسوله ﷺ^(١) .

ولتقريب هذه المسألة : أبك الذي تحمله على المذاكرة وتُرجمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقَلِّبُ فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعت معه ما ذاكر لا تجدّه حصل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ، فتُثبت له الحدث مرة ، وتسفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهdy الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمَنَ بهداية المعونة والترقيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) [الصف] لكن يهدy العادلين .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥٠) [الصف] .. لكن يهدy الطائعين .

(١) قال الراحدي النيسابوري في أسباب النزول (ص ١٢٢) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت في رمى النبي عليه الصلاة والسلام القبض من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين : شامت الوجوه ، ورماهم بثلث القبضة ، فلم يبق حين مشرك إلا دخلها منه شيء » ، وانظر الآثار المروية في هذا في الدر المنثور للسيوطي (٤ / ٤٠ - ٤١) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤) [البقرة] .. لكن يهدي المؤمنين .

إذن : بين الحق سبحانه في أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ أثار الكفر وصمم ألا يؤمن فهو وشائه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠) [الأنعام]

نعود إلى (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ .. (٩٧) [الإسراء] قلنا : إن (مَنْ) اسم موصول بمعنى الذي . واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذي) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذي ، التي ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتي . فنقول : مَنْ جاءك فأكرمه ، وَمَنْ جاءتك فأكرمها ، وَمَنْ جاءاك فأكرمهما ، وَمَنْ جاءتاك فأكرمهما ، وَمَنْ جاءوك فأكرمهم ، وَمَنْ جئتكم فأكرمهن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَنْ) فهي - إذن - صالحة للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) في الآية : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ .. (٩٧) [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر ، وهي في نفس الوقت دالة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث . فنقول : مَنْ يهدي الله فهو المهدى ، وَمَنْ يهديهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره في مجال الهدى ، أما في الضلال فجاءت (مَنْ) دالة على الجمع المذكور ؟

نقول : لانه لاحظ لفظ (مَنْ) فافرد الاولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء]

وهنا ملحظ دقيق يجب تدبره : في الاهتداء جاء الاسلوب بصيغة المفرد : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء] لان للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »^(١) .

أما في الضلال ، فجاء الاسلوب بصيغة الجمع : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴾ (٩٧) [الإسراء] لان طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. ﴾ (١٥٣) [الأنعام]

والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خطاً للصحابه خطاً مستقيماً ، وخطاً حوله خطوطاً متعرجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي »^(٢) .

(١) أخرجه ابن أبي ماصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعفه .
(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴾ (١٥٣) [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) والحاكم في مستدركه (٣١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ - موارد الظمان) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألف مذهب ، وألف منهج ؛
لذلك لو نظرت إلى أهل الضلال لوجدت لهم في ضلالهم مذاهب ،
ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال . فعليك أن تقرأ هذه الآية
بوعي وتأمل وفهم لمراد المتكلم سبحانه ، فلو قرأها غافل لقال : فلن
تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الاداء الإلهي التي
وضعت كل حرف في موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَرَاءَ ومعاونين ومُعِينِينَ (مِنْ دُونِهِ)
أى : من بعده ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ۖ ۞ (٩٧) ﴾ [الإسراء]

الحشر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) هنا
تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على
وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم
على وجوههم » ^(١) .

وما العجب في ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ
أَرْبَعٍ ۖ ۞ (٩٥) ﴾ [التور]

ألم تر الثعالب ، كيف هو سريع في مشيته ، خفيف في حركته ،
فالذي خلق قادر أن يمشي من ضلٍّ في القيامة على بطنه ، لأن

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ :
صَنَفًا مَشَاةً ، وَصَنَفًا رُكْبَانًا ، وَصَنَفًا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَمْشُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . قَالَ : إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَعْدَانِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ »
أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤/٢ ، ٢٦٢) ، والترمذي في سننه (٢٦٦٢) وحسنه .

المسألة إرادة مريد ليوقع بهم غاية الذلة والهوان ، وباليتم تنتهى بهم المهانة والمذلة عند هذا الحد ، بل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى رَبُّكُمْ وَصُماً ۖ ﴾ (٩٧) [الاسراء]

هذا استطراد لوسائل الإهانة ، ففضلاً عن مشيهم على الوجوه فهم عُمًى لا يرون شيئاً ، ولا يهتدون ، وهم صُماً لا يسمعون نداءً . وهم بُكُمْ لا يقدرّون على الكلام ، ولك أن تتصور إنساناً جمعت عليه كل هذه الوسائل ليس في يوم عادي ، بل في يوم البعث والنشور ، فإذا به يُفاجأ بهول البعث ، وقد سُدَّتْ عليه جميع منافذ الإدراك ، فهو في قلب هذا الهول والضجيج ، ولكنه حائر لا يدري شيئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفظة على هذه الآية ، فقد ورد في القرآن كثيراً : صُماً بُكُمْ بهذا الترتيب إلا في هذه الآية جاءت هكذا : (بُكُمْ وَصُماً) ومعلوم أن الصُمم يسبق البُكم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يستطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهي ظاهرة اجتماعية ليست جنساً وليست دماً .

وسبق أن قلنا : إن الولد الإنجليزي إذا تربى في بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . حتى العربي نفسه الذي يعيش في بيئة عربية ، إلا أنه لم يسمع هذه اللفاظ الغربية المتعجّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن في هذه الآية جاء البُكم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهول البعث والحشر كان المفروض أن يسأل أولاً عما يحدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه قُوجيء بالبعث وأمواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عما حوله ، وهكذا سبق البكم الصم في هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومن يجارونهم ممن أسلموا بالسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ ۖ ۝ (٩٧) ﴾ [الإسراء] فينفى عنهم الرؤية ، وفي آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ۖ ۝ (٥٣) ﴾ [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف تجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل في حال هؤلاء المعذبين في موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمِيَآ لِيُتَحَقَّقَ لَهُمُ الْإِذْلَالُ وَالْحَيْرَةُ وَالْإِرْتِيَاكُ ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل في الحالين : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ إِثْنَاهُمْ سَمِيرًا ۖ ۝ (٩٧) ﴾ [الإسراء] ماوَاهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَتْ أَوْ انطَفأت ، لكن ما دام المراء من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفئ ؟ أليس في ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل في الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو في حد ذات

لَوْ أَنَّ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لَأَنَّ اسْتِدَامَةَ الشَّيْءِ يُوطِّنُ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتِدَامَةُ الْعَذَابِ وَاسْتِمْرَارُهُ يُجْعَلُهُمْ فِي إِلْفٍ لَهُ ، فَإِنْ خَبَتْ النَّارُ أَوْ هَدَأَتْ فَتَرَةً فَإِنَّهُمْ سَيُظَنُّونَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ انْتَهَتْ ، ثُمَّ يُفَاجِئُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ جَدِيدٍ ، فَهَذَا أَنْكَى لَهُمْ وَأَلَمٌ فِي تَعْذِيبِهِمْ .

وهذا يُسَمُّوهُ فِي الْبَلَاغَةِ « الْيَأْسُ بَعْدَ الْإِطْمَاعِ » ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

فَاصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَقَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَائِتُهُ قُرُوجُ الْأَصَابِعِ
وَفِي السَّجُونِ وَالْمَعْتَقَلَاتِ يَحْدُثُ مِثْلُ هَذَا ، فَتَرَى السَّجِينَ يَشْتَدُّ بِهِ الْعَطَشُ إِلَى حَدٍّ لَا يَطِيقُهُ ، فَيَصْبِيحُ بِالْحَارِسِ وَيَتَحَنَّنُ إِلَيْهِ وَيَرْجُوهُ كَوَيْلًا مِنَ الْمَاءِ ، فَيَأْتِي لَهُ بِكَوْبِ الْمَاءِ حَتَّى يَكُونَ عَلَى شَفَقَتِهِ ، وَيَطْمَعُ فِي أَنْ يَبْلَّ رِيقَهُ وَيَطْفِئَ غَلَّتَهُ ، فَإِذَا بِالْحَارِسِ يَسْكِبُهُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَذَا أَنْكَى وَأَشَدُّ فِي التَّعْذِيبِ .

وقد عبَّرَ الشَّاعِرُ^(١) عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقْتُ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ^(٢)

أَي : سَاعَةً أَنْ رَأَوْهَا ، وَاسْتَشْرِفُوا فِيهَا الْمَاءَ إِذَا بِهَا تَنْقَشِعُ وَتَتَلَاشَى ، وَتُخَيِّبُ رَجَاءَهُمْ فِيهَا .

(١) هُوَ : كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَاعِيُّ أَبُو سَعْدٍ ، شَاعِرٌ مَتِينٌ مَشْهُورٌ ، مِنْ أَهْلِ الْعِدْبَةِ ، أَكْثَرَ إِقَامَتِهِ بِمَعَصَرٍ ، أَخْبَارُهُ مَعَ عِزَّةٍ بَنَتْ حَمِيلَ الضَّمْرِيَّةِ كَثِيرَةً ، وَكَانَ عَظِيمًا فِي حَبِهِ . تَوَلَّى ١٠٥ هـ (الْأَعْلَامُ لِلزَّيْلَعِيِّ ٢١٩/٥) .

(٢) الْبَيْتُ لَكَثِيرِ عِزَّةٍ . انْظُرْ دِيْوَانَهُ (ص ١٠٧) - دَارُ الثَّقَافَةِ بَبْرُوتَ ١٩٧١ ، تَحْقِيقُ [حَسَنُ] عَبَّاسٍ . وَقَالَ شِهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَلْبِيِّ (ت ٧٢٥ هـ) فِي كِتَابِهِ : « حَسَنُ التَّوَسُّلِ إِلَى مَسَاعِدِ التَّرْسُلِ » تَحْقِيقُ أَكْرَمُ عُثْمَانُ يُونُسُ (ص ١٢١) « فَإِنَّ مَجْرَدَ قَوْلِهِ « أَبْرَقْتُ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً » لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَ الشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ابْتِدَاءَ مَطْمَعٍ أَدَّى إِلَى انْتِهَاءٍ مُؤَيَّسٍ » .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٧٦٣

وكذلك من ألوان العذاب التي قد يظنّها البعض لوّنًا من الراحة في جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبدّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمة بهم بل نكاية فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ ۝٥٦ ﴾ [النساء]

لأن الجلود إذا نضجت وتفصمت امتنع الحس ، وبالتالي امتنعت إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديد الحس ليدورقوا العذاب إذاقة مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحس يأتي من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شيء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بإصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمض عينه قبل أن تلمسه ، وفسّروا ذلك بما يسمونه العكس في النخاع الشوكي ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحس في الإنسان أين هي ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس في الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذت حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومن أخبر بها الرسول ﷺ ؟ إنه لوّن من ألوان الإعجاز القرآني للعرب ولغيرهم . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا
(١)
وَرَفَتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۚ ﴾ [١٨]

(١) رفعت الشيء رفعتاً : جعله رفاتاً ، أي : دفعه وكسّره وجعله قطعاً صغيراً . [القاموس القديم ١/ ٢٧٠] .

(ذَلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعونه أنت
(جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عدلاً لا ظلماً ، فإياك حين تسمع
آيات العذاب هذه أن تأخذك بهم رأفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء
عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجمام
هو تأخير العقاب .

فهناك فرق بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال
يشع فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإن
عاقبت فى هذا الجو كان للعقوبة معنى ، وأحدثت الأثر المرجو منها
وتعاطف الناس مع المظلوم بدل أن يتعاطفوا مع الظالم .

فحين تؤخر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا
شك أن الجريمة ستُنسى وتبرد نارها ، وتقلشى بشاعتها ، ويطويها
النسيان ، فإذا ما عاقبت المجرم فلن يبدو للناس إلا ما يحدث من
عقوبته ، فترى الناس يرافون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا
غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

والى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَيَكْمَأُ وَصُمًا
مَّاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب يعدل الله ، فاحذر أن
تأخذك بهم رحمة ، ففى سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا
رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

ثم يوضح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بَيِّنَاتِنَا .. ﴿٩٨﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيدة لصديق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكُفْرُ بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبروا الحكمة من خلق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يؤمنوا بما جاءت به .

وهذا كله يدل على نقص في العقيدة ، وخلل في الإيمان الفطري الذي خلقه الله فيهم ، وكذلك كذبوا بمعجزات الرسول ، فدل ذلك على خلل في التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أن قالوا : ﴿أَنذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٨﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيب لآيات القرآن التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحَاسِبُونَ ، وهم بهذا القول قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ .. ﴿٩٨﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَرُفَاتًا ومعنى ، وهو : الشيء الجاف الذي تكسّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عِظَامًا وَرُفَاتًا ؛ لأن جسم الإنسان يتحلل وتمتص الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسر هذه العظام ، وتتفتت وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ .. ﴿٩٨﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ في ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أن ينكر البعث ، وعلى قَرُص أنه سيحدث فلأنهم

سيكونون في الآخرة سادة ، كما كانوا سادة في الدنيا ، هؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هي الحركة الحسية التي يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شيء حياة تناسبه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحفريات يقولون : إن الأشياء المطمورة في باطن الأرض تتغير بمرور الزمن ، وتتحول إلى مواد أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قلّ فيها حياة خاصة بها تناسبها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا في الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التي يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحيّ مثلاً له في مظهرية أموره خالقان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته في النوم محكومة بقانون ، وحياته في اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يَرُوق ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً في الموت وقانوناً في البعث فعليك أن تُصدق .

ألم ترَ النائم وهو مُقْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكىها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث واللوان وهو يدرك هذا كله وكأنه في اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذي فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكىها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو في اليقظة لا يرى ؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك في النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة . ألا ترى الرجلين ينامان في فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة

مُحْزَنَةٌ يَصْصِرُ فِيهَا مُكْدَرًا مُحْزُونًا ، وَلَا يَدْرِي الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِأَخِيهِ
وَلَا يَشْعُرُ بِهِ ، لِمَاذَا ؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التي لا يشاركه
فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصاحبك في نصف ساعة ، من حين أن
العلماء توصلوا إلى أن أقصى ما يمكن للذهن متابعته في النوم
لا يتجاوز سبع شوان ، مما يدل على أن الزمن في النوم زمن مُلغى ،
كما أن أدراك الإدراك ملغاة ، إذن : فحياتك في النوم غير حياتك في
اليقظة ، وكذلك في الموت لك حياة ، وفي "سبعث لك حياة" ، ولكل
منهما قانون يحكمها بما يتناسب معه .

وقد يقول قائل عن الرؤى : إنها مجرد تخيلات لا حقيقة لها ،
لكن يَرِدُ هذا القول ما نراه في الواقع من صاحب الرؤيا الذي يحكى
لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طعمه في فمه ، وآخر
ضُرب ، ويُرِيك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم
يتصَبَّبُ عَرَقًا ، وكأنه كان في عراق حقيقى لا مجرد مَظَام .

قالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُوضِّحَ لنا أننا في النوم لنا حياة
خاصة وقانون خاص ، لِنَأْخُذَ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد
الموت .

والعلماء قالوا في هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها :
إذا كانت اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون ألطف وأخف من قانون
اليقظة ، فبالتالى للموت قانون أخف من قانون النوم ، وللبعث قانون
أخف من قانون الموت .

وقد حَسَمَ القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨) [الفصل]

أى : كلُّ ما يُقال له شيء فى الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقي ، والهلاك ضدُّ الحياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٨٧) [الأنفال]

إذن : لكل شيء مهما صَغُرَ فى كَوْنِ الله حياة خاصة تناسبه قبل أن يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن فى علية الكبريت هذه التى نضعها فى جيوبنا قوة تجاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .. أين هذه القوة ؟ إنها موجودة لكننا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون فى معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التى تعلّمناها منذ الصُغُرِ والتى تعتمد على ترتيب الذرات ترتيباً مُعَيَّناً ، ينتج عنه المُوجِبُ والسالب ، فيتَمَّ التجاذب فكانوا يضعون لنا بُرَادَةَ الحديد فى أنبوبة ، ويمرّرون عليها قضيباً مُمَغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك فى نفس اتجاه القضيب .

إذن : فى الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغت من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام والرفات حياة ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أن صِرْتَ رُفَاتاً ، فشيء منك موجود يمكن أن يكون

نَوَآءَ لَخَلْقِكَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبِمَنْطِقِ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ أَيُّهُمَا أَهْوَنُ فِي
الْخَلْقِ : الْخَلْقُ مِنْ شَيْءٍ مُوجُودٍ ، أَمْ الْخَلْقُ ابْتِدَاءً ؟

وَقَدْ رَدُّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُهُ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ
مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝٤ ﴾ [٣]

أَي : فِي عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ عِدَدُ ذَرَاتٍ كُلِّ مِثْلٍ ، وَكَمْ فِي تَكْوِينِهِ مِنْ
مَوَادٍ ، لَا يَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِ هَذِهِ
الذَّرَاتِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَيْسَ أَمْرُهُ تَعَالَى مُتَوَقِّفًا عَلَى الْعِلْمِ فَقَطْ ، بَلْ
عِنْدَهُ كِتَابٌ دَقِيقٌ يَحْفَظُ كُلَّ التَّفَاصِيلِ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ .

وَقَالَ تَعَالَى كَذَلِكَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي
لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٥ ﴾ [٣] أَي : فِي خَلْقٍ وَشَكٍّ وَتَرَدُّدٍ .

وَقَدْ نَاقَشْنَا مَنْ مُنْكَرَى الْبَعْثِ الشَّيْوعِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي أَعْدَائِهِمْ ،
وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ مُعَاقِبَةً لَهُمْ عَلَى مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ ، فَكُنْتُ
أَقُولُ لَهُمْ : فَمَا بِأَلِ الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَلَمْ يَأْخُذُوا حَظَّهُمْ مِنَ
الْعِقَابِ ؟ وَكَيْفَ يَذْهَبُونَ هَكَذَا وَيَقْلَتُونَ بِجَرَائِمِهِمْ ؟ لَقَدْ كَانَ الْأَوَّلَى
بِكُمْ أَنْ تَوَاضَعُوا بِالْآخِرَةِ الَّتِي يُعَاقَبُ فِيهَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْلَتُوا مِنْ عِقَابِ
الدُّنْيَا ، حَتَّى تَتَحَقَّقَ عَدَالَةُ الْإِنْتِقَامِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٦٨ ﴾ [الإسراء]

إِنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ الْبَعْثَ مِنْ جَدِيدٍ : لِذَلِكَ فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
يَجَارِي هَؤُلَاءِ وَيَتَسَامَحُ مَعَهُمْ ، فَيَقُولُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧ ﴾ [الروم]

فَلِإِعَادَةِ شَيْءٍ كَانَ مُوجُودًا أَسْهَلُ وَأَهْوَنُ مِنْ إِيجَادِهِ مِنْ لَاشَيْءٍ ،

والحديث هنا عن بَعَثِ الإنسان ، هذا المخلوق الذي أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تتشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقي المخلوقات وهي أعظم في الخلق من الإنسان ، وأطول منه عمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فَلَا تَسْأَلُهَا الْإِنْسَانَ أَنْ خَلَقَكَ أَهْوَنُ وَأَسْهَلُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٌ هِيَ أَعْظَمُ مِنْكَ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَرَاهَا خَاضِعَةً لِلَّهِ طَائِعَةً ، لَمْ تَعْتَرِضْ يَوْمًا ، وَلَمْ تَنْكَرْ كَمَا أَنْكَرْتَ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

فَمَنْ يَنْكَرُ بَعَثَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ رِفَاتًا عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَمَّلَ مِثْلًا الشَّمْسِ كَيِّفَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ ، وَقَدْ خَلَقَهَا اللَّهُ قَبْلَ خَلْقِ الْإِنْسَانَ ، وَاسْتَظِلَّ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَهِيَ تَعْطِي الضُّوْءَ وَالذِّفَاءَ دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفَ أَوْ تَتَعَطَّلَ ، وَدُونَ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى صَيَانَةٍ أَوْ قِطْعَةٍ غَيْرِ ، وَهِيَ تَسِيرُ بِقُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ مُسْفِرَةً لخدمتك ، مَا تَخَلَّفَتْ يَوْمًا وَلَا اعْتَرَضَتْ ، فَمَاذَا يَكُونُ خَلْقُكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْكَرُ أَمَامَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (١١)﴾

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

٨٧٧١

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفي ، فاعلم أن الهمزة دخلت على شيء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : يقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أى : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد ؛ لأن الخلق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْقٌ جَدِيدٌ مُعَادٌ ، فالمثلية هنا فى أنهم مُعَادُونَ ، أو يكون المراد (مِثْلَهُمْ) أى : ليسوا هم ، بل خَلْقٌ مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا فى الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد فى الآخرة وإن كان مثلهم فى التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شيء لا إرادة له ؛ لأنه الآن فى الآخرة التى سينادى فيها الخالق سبحانه : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر] وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَهُمْ أَجْلاً لَا رَبَّ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ﴾ [الاسراء]

أى : أن القيامة التى كُذِّبوا بها وأنكروها واقعة لا شك فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصْرُونَ على الكفر مهما أتيت لهم بالادلة ، ومهما ضربت لهم الأمثلة ، فإنهم مُصْمَمُونَ على الإنكار ؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدهرته من العظمة ، الإيمان سيُسَوِّى بينهم وبين العبيد ، وسيُقَسِّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تابَّأوا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرضوا لظلم من أحد فى الدنيا ؟ ألم يعْتَدِ عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته ؟ لقد كان أولى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم ممن ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآني إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا ۝١٠٠﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أن يقول لأمته هذا الكلام ، وكان يكفي في البلاغ أن يقول النبي ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي .. لكن النبي هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآني ، ولا يحذف منه شيئاً : لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليل على مدى صدق الرسول في البلاغ عن ربه .

ومعنى (خَزَائِنَ) هي ما يُحفظ بها الشيء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً لا توضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ۝١٠٠ ﴾ [الإسراء] أي : خيرات الدنيا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإن من شيء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر في عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٦ ﴾ [الحجر] أي : أنه موجود في علم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية في السماء والأرض قال : ﴿ قُلْ أَنتُكُمْ لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝١ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ [نصبت]
 نلاحظ أن قوله تعالى (وَبَارَكَ فِيهَا) جاءت بعد ذكر الجبال
 الرواسي ، ثم قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴾ ﴿١٠﴾ [نصبت] كان الجبال
 هي مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت : وهو
 الذي يتم به استبقاء الحياة ، وهذا ناشيء من مزروعات الأرض ، وهذه
 من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقيته إخبار بما سيحدث ، فها
 هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التي تكون
 الإنسان هي نفس عناصر التربة الزراعية التي نأكل منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذي جعله الله في الأرض
 قبل أن يُخْلَقَ الإنسان ؟

نقول : إن الجبال هي أساس التربة التي نزرعها ، فالجبل هذه
 الكتلة الصخرية التي تراها أمامك جامدة هي في الحقيقة ليست
 كذلك : لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ،
 كل هذه عوامل تُفْتَتِ الصخر وتُحدث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتي
 المطر فيحمل هذا الفُتَاتَ إلى الوادئ ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل
 الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل
 مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادي مثلث رأسه إلى
 أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكلُّ ما ينقص من الجبل يزيد في الوادي ، ويُكوِّن التربة
 الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بِالغُرَيْنِ أو الطمي ؛ لذلك حَدَّثُونَا أن
 مدينة دمياط قديماً كانت على شاطئ البحر الأبيض ، ولكن بمرور
 الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغُرَيْنِ أو الطمي الذي حمله النيل
 من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكون

الطمي بدأت المياه تتحت في الشاطئ ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقله تعالى عن بداية خلق الأرض : ﴿ وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ لَهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴾ [١١٠] [تمت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخلق القوت في الأرض ، وأن خزائن الله لا حدود لها ولا نفاد لخيراتنا .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [١١٠] [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملك خزائن خيراتهِ ورحمته للناس ، فأصبح في أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخل وقتر خوف الفقر ؛ لأنه جُبِلَ على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا نفاد لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أن يحدث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإن كان على النفس فهو التقتير ، وهو سبب واضحة ومُخَرِّية ، فقد يقبل أن يضيق الإنسان على الغير ، أما أن يضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوُّره ؛ لذلك يقول الشاعر^(١) في التندر على هؤلاء :

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفُسٌ مِنْ مَنَقَرٍ وَاحِدٍ

(١) هو : الشاعر ابن الرومي . وهو علي بن العباس بن جريج ، أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي ، كان جده من موالي بني العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشأ بها . ومات فيها مسجوماً (٢٨٢ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلي ٢٩٧/٤) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أَنَّ بَيْتَكَ يَا ابْنَ يَوْسُفَ كُنْهٖ اِبْرَ يُضِيقُ بِهَا قَضَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ اِبْرَهٗ لِيَخِيْطَ قَدْ قَمِيصِيْ لَمْ تَفْعَلْ^(١)
فالإنسان يبخل على الناس ويقتتر على نفسه ؛ لأنه جبيل على
البخل مخافة الفقر ، وإن أوتي خزان السموات والارض .
ثم يقول الحق سبحانه :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَبَسَلَ
بَيْتَ اِسْرَءِيْلَ اِذْ جَآءَ هُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
اِنِّىْ لَآظُنُّكَ يٰمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١١﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات
ذُكِرَتْ في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا ۚ ﴾ (١٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا
(١١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَةٌ عَلَيْنَا كَأَلِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ ۚ ﴾ (١٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِوَقَائِكَ
حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤهٗ .. ﴿١٣﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أن يُلْغِثَ نظره أن سابقهم من اليهود آتته
تسع آيات ونزلت عليهم دون أن يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة
كلها تعمّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ .. ﴿١١﴾ [الإسراء] أى : واضحات مشهورات بَلْقَاءِ

(١) البيت لابن الرومي أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرَأَى ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هي الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ ۝ (١٠١) ﴾ [الإسراء] هي الآيات التي أُرسل بها إلى فرعون وقومه وهي : العصا التي انقلبَتْ حية ، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء مثورة ، وأَخَذَ آل فرعون بالسنتين ونَقَصَ من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لَمَسَا كَذِبُوا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ، والجراد ، والقُمَّل^(١) ، والضفادع ، والدم . هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، ونَتَقَ^(٢) الجبل فوقهم كأنه ظِلَّة ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۖ ۝ (١٠٢) ﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى - عليه السلام - وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخَاطِباً بنى إسرائيل

(١) القُمَّل : حشرات الذر والدبى . وهو شيء صنبر له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شيء يقع في الزرع ليس بجراد فيأكل السنبله وهي غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبُل له . [لسان العرب - مادة : قمل] .

(٢) نتق : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم ٢٠٢/٢] .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

٨٧٧٧

المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ^(١) سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكن لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لانه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وجدوا هم ، فكان نجات السابقين نجات للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لانهم هم الأمة التى لها ممارسة مع متهج الله وروحيه ، ولها اتصال بالرسول وبالكتاب المنزلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلة سابقة بوحى السماء ؛ لذلك لما كذبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده علم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم علم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون آبائهم ، بل وأكثر من معرفتهم لابنائهم ، كما قال واحد منهم^(٢) .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤال حجة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أن يظهر لهم عدة آيات - سبق ذكرها - لئلا يؤمنوا به ، فأراد أن ينبههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مر

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظمناً . [لسان العرب - مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام ، قال القرطبي : يروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أنتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجؤا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رآوا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿ وَأَنبَأْنَا ثَمُودَ أَنبَاءَةً مُّبْصِرَةً فظَلَمُوا بِهَا .. ﴾ [الإسراء] ولْيَتَّبِعْهُمْ كَذِبُوا وكفروا بهذه الآية فحَسَبَ ، بل واعتدوا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ .. ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ [الإسراء] وما دام كَذَّبَ بها الاولون فسوف يُكَذَّبُ بها هؤلاء ؛ لان الكفر ملة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليست فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١) ﴾ [الإسراء] أى : بعد أن رأى الآيات كلها : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أن أراه كُلُّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى مسحته غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالا على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [٤٥]

والحجاب يكون ساترا لا مستورا ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستورا مبالغة فى السُّتْر ، كما نبأخ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلا .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٨٧٧٩ ○

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧ ﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظْلَلٌ ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رطباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظْلَل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر في النهاية بحر لطيف مُكَيِّف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحرَ غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذي آلَمَ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿ إِنْ تَنْهَوْنِ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٤٧ ﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذي أكره فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رُدُّه ووضَّحه .

فإن كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟ ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإن كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأبَّى منه حركات وأقوال دون أن تمرَّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خلقه ، فهل عهدكم بمحمد أن كان مَخْبُولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْزَلْنَ الْقُرْآنَ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَذَكِّرْهُمْ بِأَيُّ يَوْمٍ هُمْ فِيهِ شَاكِرُونَ ١٠١ ﴾ [الأنعام] وَأَنْتَ بِمَجْنُونٍ ١٠٢ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ١٠٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ١٠٤ ﴾ [الأنعام]

والمجنون لا يكون على خُلُقٍ أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أن اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الفلقة لموسى ، وخر السحرة ساجدين ، قال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۚ ﴾ (٧١) [طه] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مُشَبَّهًا ﴾ (٧٢)

أى : قال موسى لفرعون ، والتاء فى (عَلِمْتَ) مفتوحة أى : تاء الخطاب ، فهو يُكَلِّمُه مباشرة ويُخَاطِبُه : لَقَدْ عَلِمْتَ يَا فِرْعَوْنُ عِلْمُ اليقين أنتى لست مسحوراً ولا مخبولاً ، وإن ما معى من الآيات مما شاهدته وعايته من الله رب السموات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًا ۚ ﴾ (٧٤)

[النمل]
إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتقرض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿ بِصَآئِرٍ ۚ ﴾ (٧٢) [الإسراء] أى : أنزل هذه الآيات بصائر تبصر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيقبلوا على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما تبع فيه قومه .

ثم لم يفت موسى - عليه السلام - وقد ثبتت قدمه ، وأرسي قواعد دعوته أمام الجميع أن يُكَلِّمَ فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مُشَبَّهًا ﴾ (٧٢) [الإسراء] فقد سبق أن قال فرعون : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ (١٠١) [الإسراء] فواحدة بواحدة ، والبادئ أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كل خير ، وكان الله تعالى
أطلع موسى على مصير فرعون ، وأنه هالك عن قريب . وعلى هذا
يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإن فقد
نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ،
لأنك لو تأملت حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء
دون أن يتعرض له أحد أو يحاسبه أحد ، وهذا مُنتهى ما يتمناه
السلطين والحكام وأهل الجبروت في الأرض ، فعماذا ينتظر القادة
والأمراء إلا أن تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مطاعاً ؟ وهذا كله ينعم
به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قيد
الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذي يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدري أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا
أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيها العاقل لتمنيت أن تُجنَّ !! ألا
تراه يسير بين الناس ويفعل ما يخلو له دون أن يعترضه أحد ،
أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم في وجهه ، ثم بعد ذلك
لا يحاسب في الآخرة ، فأى عز أعظم من هذا ؟

إذن : سلب أي نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه
ولا يستشبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فلمايك أن تظن أنك
أفضل منه عند الله ، لا ليس منّا من هو ابن الله ، وليس منّا من بينه
وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذي حرم
نعمة البصر عرّض عنها في حواس أخرى ، يفوقك فيها - أنت أيها
المبصر - بحيث تكون الكفة في النهاية مُستوية .

واسمع إلى أحد العَمِيَانِ يقول :

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالدَّكَّاءُ مِنَ الْعَمَى
وَعَابَ ضِيَاءُ الْعَيْنِ لِلْقَلْبِ رَافِدًا لِعِلْمٍ إِذَا مَا ضَمِيعُ النَّاسِ حَصَلًا^(١)

فحدث عن ذكاء هؤلاء وفطنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كلُّ مَنْ عاشِر أعمى ، وهكذا تجد كلُّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص في تكوينهم يُعوضهم عنه في شيء آخر عزاءً لهم عما فاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يَدْرِكُه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقص ما يحاولون تعويضه ويتفوقون في نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويحدثوا توازناً في حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية في مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألماني (شاخْت) وقد أصيب بقصر في إحدى ساقَيْهِ أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأنقذ ذلك في نفسه قصصاً أَنْ يَكُونَ شيئاً ، وَأَنْ يَخْدُمَ بلده في ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخطّة

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَأَنَّ مَكَارَ النَّفْعِ قَوْقٌ وَوُوسِنَا وَكَسَيَانَا لَيْلٌ تُهَارِي كُرْكِبَةً

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يُقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء . فيتوفر جسده وتذكر قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين ، الاغانى لأبي الفرج الأصفهاني (٢٧٦/١) .

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنساني وخلق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطى نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس مآكينة كالتي تصنع الاكواب مثلاً ، وتعطينا قطعاً متساوية ، بل لا بُدَّ من الشذوذ في الخلق لحكمة ؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الاولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين في اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

إنها قدرة في الخلق لا نهاية لها ، وإبداع لا مثيل له فيما يفعل
البشر .

فَالْإِنْسَانُ كَثِيرًا مَا تُطْغِيهِ النِّعْمَةُ ، وَيَغْفُلُ عَنِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ ،
فَإِذَا مَا رَأَى أَصْحَابَ الْإِبْتِلَاءِ أَنْتَبَهَ وَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَرَبَّمَا تَجَدَّدَ
الْمُبْصِرُ لَا يَشْعُرُ بِنِعْمَةِ الْبَصَرِ وَلَا يَذْكُرُهَا إِلَّا إِذَا رَأَى أَعْمَى يَتَخَبَّطُ
فِي الطَّرِيقِ ، سَاعَتَهَا فَقَطْ يَذْكُرُ نِعْمَةَ الْبَصَرِ فَيَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

إِنَّ : هذه العاهات ليست لأن أصحابها أقل منا ، أو أنهم أمون

على الله .. لا ، بل هي ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين
لِنَلْفِتَهُمْ إِلَى نِعْمَةِ اللَّهِ .

لكن الأفة في هذه المسألة أن ترى بعض أصحاب العاهات
والابتلاءات لا يستر بَلَوَاهُ على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول
لهم : انظروا ماذا فعل الله بي ، ويتخذ من عَجْزِهِ وعاهته وسيلة
للتكسب والترزق ، بل وابتزاز أموال الناس وأخذها دون وَجْهٍ حق .
وفي الحديث الشريف : « إِذَا بُلِيتُمْ فَاسْتَتَرُوا »^(١) .

والذي يعرض بَلَوَاهُ على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخلق ،
ورأه لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساق له
رزقه على باب بيته . والأدنى من ذلك أن يتصنع الناس العاهات
ويدعوها ويُوهموا الناس بها لِيُوقِعُوهم ، وليبتزوا أموالهم بسيف
الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لتستبطن منها بعض الآيات
والعجائب ، وأول ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذي رُبِّي موسى
منذ أن كان وليداً ، وفي وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ،
لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد
وضع محبة موسى في قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قَرِئْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا .. (١) ﴾

[القصص]

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢١١) بلفظ : « إِذَا بُلِيتُمْ بِالْمَعَاصِي فَاسْتَتَرُوا » وقد
أخرج الحاكم في مستدركه (٢٤٤/٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام
بعد أن رجم الأسلمي فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها ، فمن ألم فليستر
بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يُدِّ لنا صَفَحَتَهُ يُقِمَّ عليه كتاب الله ، قال الحاكم :
« صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

فأين ذهبت عداوته وبُغضه للأطفال ؟ ولماذا أحب هذا الطفل بالذات ؟ ألم يكن من البدهي أن يطراً على ذهن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله في اليم لينجو من القتل ؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البدمية على ذهنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴾ (٢٤)

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه ليبيّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عناية العربي الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنِيكَ عِنَايَةً فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمُؤْمِلُ
فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ ﴾

وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣﴾

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ) كلمة : استفرّ ، سبق الكلام عنها فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَفِرُّ مِنْ اسْتِظْفَافِ مِنْهُمْ بِصُورِكَ .. ﴾ [الاسراء] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقوم المتأذى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصيحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى فى لعبة الكراتيه مثلاً ليُزعج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغل الخصم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقلّ تركيزه ، فيمكن التغلّب عليه ، ومن الاستفزاز قول أحدهما لابنه المتكاسل : فِرْ . أى : انهض وخفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أن يستفزهم ويخدعهم خديعة تُخرجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليل على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا لياخذ بنى إسرائيل ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ فَأَتَاهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

[الشعراء]

فكان غباء فرعون أعان القدر الذى جاء به موسى - عليه السلام - ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بنى إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أخذٌ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أن يُنفذ ما أراد .

كما يقولون فى الأمثال عند أهل الريف للذى هدد جاره بأن يحرق غلته وهى فى الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أى : يعاجله الموت قبل تُضجّ الغلة التى هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومنّ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ

وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٨﴾ ﴾

لكن كلمة (الأرض) هنا جاءت مجردة عن الوصف (اسكنوا الأرض) دون أن يُقيدَها بوصف . كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردت أن تُسكنَ إنساناً وتوطنه نقول : اسكن أي : استقر وتوطن في القاهرة أو الاسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ،

(٢) ذكر كثير من المفسرين هنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم مروج بن عتق بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع ، وهذا شيء يستحي من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق يتفنن حتى الآن » قاله ابن كثير في تفسيره (٢٨/٢) .

كيف وأنا موجود في الأرض بالفعل ١٩ لا بد أن تُخصَّص لي مكاناً
أسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسْكُنُوا الْأَرْضَ) هكذا دون تقييد
بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمت عليهم بالتفرُّق في
جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال
تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا ۖ ۞ (١٦٨) ﴾ [الاعراف]

والواقع يؤيد هذا ، حيث نراهم مُتَفَرِّقِينَ في شتى البلاد ، إلا أنهم
ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمعون فيها ، ولا يذوبون في
الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها
لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۞ (١٠٤) ﴾ [الإسراء]
والمراد بوعد الآخرة : هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل ، حيث
قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ (١) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ (٥) ﴾ [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم في المدينة ، وفي بني
قريظة وبني قينقاع ، وبني النضير ، وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ،
ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفساد الثانية لبني إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوِّرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّوْا ^(١) مَا عَلَوْا تَتَبَرًّا ۝ (٧) ﴾ [الإسراء]

(١) تَبَرَّه : دمره وأهلكه . مُتَبَرِّ : اسم مفعول أى عُدَّ مَهْلِك . [القاموس القويم ٩٧/١] .

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدد الان ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْدُ الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضوا على اليهود وهم في شتيت الارض ؟ لا بد أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أخذهم لم يفلتوا ، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١١٤ ﴾ [الإسراء] أى : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١١٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. ۝١١٥ ﴾ [الإسراء]

الحق من حق الشيء . أى : ثبت ، فالحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو متغير متلون لأنه زهوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١١٧ ﴾

[الرعد]

فإن رأيت في عصر من العصور خوراً يصيب أهل الحق ، وعُلواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو علو الزبد الذي يعلو صفحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تلقى به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المقيدة ، أما الزبد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكن في الارض الماء الصافى الذى ينتفع الناس به فى الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتَغَيِّرٌ مُتَقَلِّبٌ لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لانه مَظْهَرِيَّةٌ من مَظْهَرِيَّاتِ الحق الاعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الاعلى الذى لا تتناوله الاغيار .

وقوله : ﴿ اُنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب فى ﴿ اُنزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدم عليه شيء يوضح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعرف المعارف ، لكن لا بد له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يسبق الضمير بشيء ، كما سبق بمرجع فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ اَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير فى (يَمِثُّهُ) إلى القرآن الذى سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه ، فلا بد أن يكون مرجعه مُتَعَيَّنًا لا يختلف فيه اثنان ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لانه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يختلف عليه .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ اُنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : القرآن ؛ لانه شيء ثابت مُتَعَيَّنٌ لا يختلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكان الحق سبحانه كان كلامه - وهو القرآن - محفوظاً فى اللوح المحفوظ ، إلى أن يأتى زمان مباشرة القرآن لمهمته .

ثم يقول تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء] الاولى كانت :
﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حق لا ريب فيه ولا شك ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥)﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حق ثابت ؛ لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهج ، معجزة حق لأنه تحدى الفُصَحَاءَ والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شيء فى منهج القرآن أنه تكلم عن العقائد التى هى الأصل الأصيل لكل دين ، فقبل أن أقول لك : قال الله ، وأمر الله لا بد أن تعرف أولاً من هو الله ، ومن الرسول الذى بلغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السلوكيات .

إذن : تعرض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرض للعلائكة والنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كل هذا فى العقائد ؛ لأن الإسلام حرص أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربى فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يلقى زمام حركته إلا لمن يثق به ، فلا بد إذن من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكام وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة]

شُكْرُ الْإِسْرَاءِ

○ ٨٧٩٣ ○

إذن : نزل القرآن بما هو حقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حقٌّ ثابت لا شكُّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنْ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنْ اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفي ما نزل الحق الثابت الذي لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ إِنَّا نَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذي لا يتغير على مرَّ العصور ، ففي ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف في استعمال الحق ، وظنوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حقٌّ ويتعسف في استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويس للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذي ادعوا سبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذي تدعونه لأنفسكم قانون إسلامي ثابت وموجود في سنة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذي شكى إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل في بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول في هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حقٌّ في النخلة ، فهي ملكٌ له لكنه تعسف في استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملة ، فالفروض ألا يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تغليظها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَّ له هذه النخلة ، وإما أن تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذي سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس ؟

أضفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات في معنى : (وَيَأْتِىُ نَزْلُ) أى : وعلى الحق الذي هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويشترط في التبشير والإنذار أن تُعطى للمُبَشِّر أو للمُنْذِر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبَشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار في مُتَسَّع من الوقت ليمكن هذا من العمل للجنة ، ويمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبَشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل في مُتَسَّع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحْمَل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَمًا بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦) [الكهف]

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٨٧٩ ○

أى : مُهْلِكُهَا حُزْناً عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى قَالَ : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

فَكَانَ سَبْحَانَهُ يُخَفِّفُ الْعِبَاءَ عَنْ رَسُولِهِ ، وَيَدْعُوهُ أَلَّا يُتْعَبَ نَفْسَهُ فِي دَعْوَتِهِمْ ، فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَعَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْهُدَايَةُ لِلْإِيمَانِ .

لَكِنْ حَرَّضَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ نَابِعٌ مِنْ قَضِيَّةٍ تَحْكُمُهُ وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهِ لَخُصَّاصُهَا فِي قَوْلِهِ : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ » ^(١) .

فَالنَّبِيُّ ﷺ كَامِلُ الْإِيمَانِ ، وَيَحِبُّ لِقَوْمِهِ أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ ، حَتَّى أَعْدَاؤُهُ الَّذِينَ وَقَفُوا فِي وَجْهِ دَعْوَتِهِ كَانَ إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي الصَّرَاحِ يَرْجُو لَهُمُ الْإِيمَانَ وَالنَّجَاةَ : لِذَلِكَ لَمَّا مَكَّنْهُمْ لِمَ يَعَاجِلُهُمُ بِالْعُقُوبَةِ ، بَلْ قَالَ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » ^(٢) .

وَفِعْلاً صَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَجَاءَ مِنْ ذُرِّيَّاتِ هَؤُلَاءِ مَنْ حَمَلُوا رَايَةَ

(١) حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١٢) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٤١) كِتَابُ الْإِيمَانِ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِلَفْظٍ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يُؤْمِنُ عَيْدٌ حَتَّى يَحِبَّ لِبَارِهِ - أَوْ قَالَ : لِأَخِيهِ - مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

(٢) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٢١ ، ٧٢٨٩) عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ : وَمَا وَدَّاهُ عَلَيْكَ . وَقَدْ يَعِثُ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِقَائِهِ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَتَأْتِيهِ مَلَكَ الْجِبَالِ فَيَسْلَمُ عَلَيْكَ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قتل هؤلاء حال كفرهم في معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يمكّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقرء أنا فرقته لنقرأه على الناس على مكث ونزلته نزيلاً ﴾ (٤٣)

معنى (فرقناه) أى : فصلناه ، أو أنزلناه مُفرقاً مُنجِماً حسب الأحداث (على مكث) على تمهل وتؤدة وتأن .

وقد جاءت هذه الآية للرد على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ ﴾ (٤٢) [الفرقان]

وأول ما نلاحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هم فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن ؟ وما هم الآن يُقرّون بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا يدخل له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولى الحق سبحانه الرد عليهم فى هذا الاقتراح ، ويبيّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ ﴾ (٤٢) [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : أنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل
مُفْرَقًا مُتَجَمًّا حَسَبَ الْأَحْدَاثِ ﴿لُتَبَيَّنَ بِهِ فُرَادُكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] لأن
رسول الله ﷺ سيستعرض لكثير من تعنتات الكفار ، وسيقف مواقف
مُحْرِجَةٍ من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من
هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحي عليه يوماً بعد يوم ، وحسب الأحداث ما يُخَفِّفُ
عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب وشقاى الدعوة ،
وفى استدامة الوحي ما يصله دائماً بمن بعثه وأرسله ، أما لو نزل
القرآن جملة واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولفقد رسول الله
جانب الصلة المباشرة بالوحي ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية
برسول الله .

٢ - ﴿وَرَوَّيْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] أى : نزلناه مُرْتَلًا مُفْرَقًا آية
بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشئ . كما نقول : رتل من
السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه
الطريقة فى التنزيل تُيسِّرُ للصحابة حفظ القرآن وقهْمه والعمل به ،
فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القدر من الآيات ويعملون بها ،
وبذلك تيسر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميزة خاصة
بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجْزِئُ القرآن
للحفظه ، ونجعله الواحاً ، يحفظ اللوح تلى الآخر .

٣ - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾

[الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لعنهج الله الذين

سيَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَحَاوِلُونَ أَنْ يَسْتَدْرِكُوا عَلَيْهِ أُمُورًا ، وَأَنْ يَتَّهِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَإِبْطَالِ حُجَجِهِمْ فِي وَقْتِهَا الْمُنَاسِبِ ، وَلَا يَتَأْتِي ذَلِكَ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .

(وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ) أَيْ : بِشَيْءٍ عَجِيبٍ يَسْتَدْرِكُونَ بِهِ عَلَيْكَ (إِلَّا جِئْتَاكَ بِالْحَقِّ) أَيْ : رَدَّا عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا جِدَالَ فِيهِ .

وَالْيَكِ امْتِلَاءُ لِرَدِّ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ رَدًّا حَيًّا مُبَاشَرًا .

فَلَمَّا اتَّهِمُوا رَسُولَ اللَّهِ وَقَالُوا : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا ﴾ [الْإِسْرَاءُ] رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) [الْقَلَمِ] وَالْمَسْحُورُ لَا يَكُونُ أَبَدًا عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

وَلَمَّا قَالُوا : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ (٥) [الْفِرْقَانِ] يَرُدُّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ (٦) [الْفِرْقَانِ]

فَلَيْسَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَدْعًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَهُوَ كَفَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ عُرِفَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الصِّفَاتُ ، وَفِي هَذَا مَا يُوَكِّدُ سَلَامَةَ الْأَسْوَاقِ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ، إِنَّمَا لَوْ كَانَتْ فِي مُحَمَّدٍ خَاصِيَّةٌ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ رَبَّمَا اعْتَرَضُوا عَلَيْهَا وَاحْتَجُّوا بِهَا .

لِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَدَبِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ رَبِّهِ وَمَعَ صَحَابَتِهِ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يَرُدُّ عَلَى - أَيْ بِالْوَحْيِ - فَأَقُولُ : أَنَا لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ ، وَيُؤْخَذُ مِنِّي فَأَقُولُ : مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ » .

فانتظر إلى أيّ حدّ كان تواضعه ﷺ ؟

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿الْفَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ
جَنَّةٌ..﴾ (٨١) [سيا] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ۖ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ (٨٢) [سود]

ثم يتنذّل معهم في هذا التحدى ، ويتّرفّ بهم : ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ..﴾ (٨٣) [البقرة]

ثم يناقشهم في هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والتموذج العالى
للحوار : ﴿قُلْ إِنْ الْفَرَىٰ لَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ ۖ أَمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٨٤) [مودة]
وفي آية أخرى يقول : ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ..﴾ (٨٥) [سيا]

فانتظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدث عن نفسه يقول
(أُجْرِمْنَا) وحين يتحدث عن أعدائه لا يتسب إليهم الإجمام ، بل
يقول : (وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذي جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات
القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملة واحدة ، أكان من الممكن الردّ على
هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثبّروته من قضايا ؟

وإن كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرّته ساحته في
مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالاحكام والتشريع ،
فالقرآن نزل بالمعقائد والاحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، وإن يُنسخ منه حرف واحد كما حدث في الكتب السابقة عليه .

فإن نظرت إلى العقائد وجدت الكلام فيها قاطعاً لا هوادة فيه ، يأتي هكذا قولاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن العلاقة والبعث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف في الحديث عن العادات التي ألفها الناس في حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطف وتدرج ، ولا يناسبها القصر والقطع . ألم تدر إلى المشرع سبحانه حينما أراد أن يحرم الخمر ، كيف تدرج في تحريمها على عدة مراحل حتى يجتث هذه العادة التي تحكمت في نفوس الناس وتمسكتهم ، إكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لغت أنظار القوم بلطف إلى أن في الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ^(١) وَرِزْقاً حَسِناً . . (٦٧) ﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكان الله يبييت للخمر شيئاً . لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السكر فلم يصفه بالحسن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً في الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويفسدها على أصحابها .

ثم يحول هذه المسألة إلى عظة وإرشاد ، فيقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . . (٢١٩) ﴾ [البقرة]

(١) السكر : كل ما يسكر أي الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذي لم تمسه النار وهو غير مسكر . والسكر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١ / ٣٢٠] .

وهكذا قرّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالامر ما زال عظة ونصيحة لا تشريعاً ملزماً ، إلا أنه مهد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلى وهو مخمور لا يدري ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه من بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى^(١) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٢)﴾ [النساء]

وبذلك أطل مدة الامتناع عن شرب الخمر ، فالصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة ، فإذا لا بد من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عودهم الامتناع وتربهم على الصبر عن هذه الآفة التي تمكنت منهم . ثم يتحسّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم في مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبت الخمر بالعقول تشاجروا حتى سألت دماؤهم ، وعندها ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه^(٢) :

(١) عن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن حوف طعاماً فقدمنا وسقانا من الخمر فآخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلانا فقرا : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعيد ما تعبدون ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٢)﴾ [النساء] أورده ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٠٠) ، ثم قال : « هكذا رواه ابن أبي حاتم وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكي به ، وقال : حسن صحيح » .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا من الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى .. (٤٢)﴾ [النساء] ، فكان متدبى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادي : لا يقربن الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. (٥٦)﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَرُونَ (٥٦)﴾ [المائدة] ، قال عمر : انتهينا . . أورده الواحدي التيسيري في أسباب النزول (ص ١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا في الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحي على رسول الله بالحكم القاطع : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبُوهُ .. ﴾ (٩٠) [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التي تمكثت من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى ينزل القرآن مُفَرَّقًا مُنْجِماً حَسَبَ الْأَحْدَاثِ ، كأنه يُجْرِي مشاركة بين آيات التنزيل والمتفعلين بها الذين يُصِرُّونَ عَلَى تَنْفِيذِ مَطْلُوبَاتِهَا ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ فَتَسْأَلُوا .. ﴾ (١٠١) [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴾ (٢١٩) [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ .. ﴾ (٢١٩) [البقرة]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ .. ﴾ (١٨٩) [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴾ (١٥٥) [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفَرَّقًا مُنْجِماً حِكْمٌ بِالْفِعْلِ يجب تدبرها ، هذه الحِكْمُ ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلْنَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٠٧) [الإسراء] آمِنُوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نهى . والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أن تطلب من الأدنى ألا يفعل ، فإن كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإن كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحى العبارة ؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٠٧) [الإسراء] أنها للتخيير ، فإن آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إن لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لايتك حسين تلاحظ عليه الإعمال : ذاكروا أو لا تذكروا ، أنت حر ؛ لا شك أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثه على المذاكرة .

فَقُولْ : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا .. ﴾ (١٧) [الإسراء] للتسوية ،
كما قال : ﴿ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذي يفعل الأمر أو النهي يكون طائعاً ،
بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق
سبحانه جعل في ذلك عزاءً لرسوله ﷺ في إيمان أهل الكتاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ (١٧) [الإسراء] أى : اليهود
والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوراة
والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن ، فهؤلاء
شاهدون بأن الرسول حقٌ بما عندهم من بشارة به في التوراة
والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم
يعلمون علم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام^(١) ، وكان من علماء اليهود ، وكان
يعلم أوصاف رسول الله وزمن بعثته ؛ لذلك قال : لقد عرفتُه حين
رأيتُه كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد^(٢) .

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي ، أسلم عند قدوم
النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه « المصين » فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع
عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٣ هـ . (الإعلام للزركلي
٩٠/٤) .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ يَحْكُمُونَهُ كَمَا حُكِّمُوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكُفِّرُنَّ الْحَقُّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] . قال القرطبي : ويروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن
سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على
الأمين في الأرض بشعته لمعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه . ذكره ابن كثير في
تفسيره (١٩٤/١) .

ولما اختتم الإسلام في نفسه ذهب إلى رسول الله وصارجه بما
نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت^(١)
فإن أعلنت إسلامي الآن قالوا في ما ليس في ، فاسألهم عنى وأنا ما
زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسالهم رسول الله : ما تقولون
في ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير
الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد
قالوا في ما قالوا فاشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فإذا بهم
يذمونه ويتهمونه بأخس الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أقل لك
إنهم قوم بُهت^(٢) .

إذن : ففي إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى
الذين عرفوا رسول الله بأوصافه في كتبهم وعرفوا مرعد بعثته وإنه
حق ، في إيمان هؤلاء عَزَاءَ لرسول الله حين كفر به قومه وكذبوه ؛
لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ونحن مكشوفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ،
صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التي تلقوها ، فحينما بشرت بمحمد
ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يحرقوها ، بل كانوا يسارعون
إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبي الجديد الذي سيظهر فيها ، لقد كانوا
يقولون لكفار مكة : لقد أظلم زمان نبي جديد تتبعه قبلكم ، ونقتلكم
به قتل عاد وإرم .

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب - مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٢٨) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢)

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سُورَةُ الْاِنْتِزَارِ

٨٨-٦٥

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) [البقرة]
إلا أن الله أبقى للحق خلية ؛ وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ،
وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (١٠٧) [الإسراء] أى : القرآن
﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (١٠٧) [الإسراء]

كلمة (يَخِرُّونَ) توحى بانهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها
عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرف ، فبمجرد سماع
القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لانهم تفاعلوا معه ، واختمر
الإيمان في نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون (لِلْأَذْقَانِ)
جمع ذَقْن ، وهى أسفل الفك السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على
الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع
والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٠٨)

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وفى بوعدده فى
التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم معه القرآن ، سبحانه حقيق
لنا وعده وأدركناه وآمنا به ، وكان هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٠٩)

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لانهم أدركوا القرآن الذى

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفِهِ وَصْفًا يُعْرَفُ بِهِ . كما يحدث أن يَأْلَفَ شخص أن يسمى أولاده جميعاً : محمد . فالتسمية في هذه الحالة لا تُشَخِّصُ ولا تُعَيِّنُ الْمُسَمَّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير . محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطْلِقَ الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنَّا نحن نُسَمِّي أولادنا ؛ فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التي قال عنها : الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وكلمة (حُسْنَى) أفعال تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَفَ أَسْمَاءَهُ تَعَالَى بِالْحُسْنَى ؟

الاسم يُبَيِّنُ الْمُسَمَّى ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على الْمُسَمَّى الَّذِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ ، فقد نُسَمِّي شخصاً « سعيد » وهو شقي ، أو نسمى شخصاً « ذكي » وهو غبي . وهذا ليس بحسن في الْأَسْمَاءِ ، الْحَسَنُ فِي الْأِسْمِ أَنْ يَطَابِقَ الْأِسْمَ الْمُسَمَّى ، ويتوفر في الشخص الصفة التي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ ، فيكون الشخص الذي سميانه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الْحُسْنَ الْأَعْلَى ؛ لأن الْحُسْنَ الْأَعْلَى لَأَسْمَاءِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّى بِهَا نَفْسَهُ ، فله الكمال المطلق .

فهذه - إذن - لا تتأتى في تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ بَعْدَ الشُّرْكِ مَنْزِلَةٌ أَنْ يَظْلَمَ اسْمٌ مُسَمًّى ضِدَّهُ جُعِلَا
فَشَارِعَ كِمَامَادِ الدِّينِ تَسْمِيَةٌ لِكِنَّهُ لِعِمَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلَا
فالاسم قد يظلم المسمى كما حدث أن سَمَّوْا الشَّارِعَ (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان في الماضي بُورَة للفِسْقِ والفجور ، وما أبعدہ سابقاً عن هذه التسمية .

لفظ الجلالة (الله) عَمَّ على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنَا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز في قومه ، فلان الرحيم بمن معه ، فلان النافع لمن يتصل به ، إنما لو قُلْتُ : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك : حُلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطْلِقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فاسمَاءُ الله الحُسْنَى هي في الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزیز مثلاً اسم ذات فلا نقول في مقابله الدليل ، والحي اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعز صفة فعل يعنى يُعزِّ غيرہ ، ومقابلها المذل ، والضار مقابلها النافع ، والمحيي مقابلها المميت وهكذا .. إن وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسم لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السُّتَّار وهي صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول القُضَّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أن يتخلَّق خلقه بهذه الصفة ، وأن يُربِّب صفة السُّتَّار عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا في كل ما يأتي من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة في الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يُعصِي ويحب أن يُسْتَرَّ على عبده العاصي ؛ لكي يستمر دولا ب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبي ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر عَيْبِ خَلْقِهِ عن خلقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابنُ أغْيَارٍ ، وقلبه سريعاً ما يتقلب ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيّرتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيتنا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلُّ مَنْ بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتُم ما تدافتُم ، أي : لو تكشفتُ الاسرار ، وعرف كُلُّ منكم عَيْبَ أَخِيهِ ما دفنتُم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ .. ﴾ (١١٠) [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَمَ على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُّ على صفة معينة ، لكنه يحمل في طياته كل صفات الكمال فيه ، فإن كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر في القدرة ، والحكيم في الحكمة ، والقابض في القبض ، والعزیز في العِزَّة ، فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك في الحديث النبوي الشريف : « كُلُّ شَيْءٍ لَا يُبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ »^(١) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله

ﷺ : « كل كلام أو أمر ذي بطل لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدم على أى فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ؛ إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تُقل : يا حكيماً يا قادراً يا عليم ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفى أن تقولَ فى الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكل صفات الكمال .

﴿أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ۖ ۝ (١١٠)﴾ [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهر هذه الصفة لعباده حتى فى أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خُدم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف الله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكانه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ۖ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۖ ۝ (١٧٩)﴾ [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيقتل انتهى عن القتل . وفى الأثر : « القتل أنقى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذى يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرنى ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويحقق لهم السعادة فى

حركة الحياة ، فيتكامل الخلق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهي في دنيا الناس أن يعيش المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هي الغالبة في كل التشريع ، وهي السمة العامة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن]

فالقُرآن الذي نزل لينظم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿قَبَائِرِ آلٍ رَبَّكَمَا تَكْذِبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن] والآء هي النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ۝٢٥﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التي تدل على النعمة ؟

ولو تدبر القوم ما اعترضوا ؛ لأن في النار والتحذير منها والتخويف بها نعمة ، كأن القرآن يقول لك : إياك أن تفعل ما يوجب النار والشواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إن لم يُقدّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ۝٥٦﴾ [الفرقان]

أى : بعد أن خلق الخلق كله بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش ؛ لأن الاستواء على العرش يعنى أن كل شيء تم له سبحانه خلقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أن يستتب لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعنى أنه الأرحم الذي لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه يُبَيِّنُنا بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ۖ﴾ (٥٩) [الفرقان] واختار صفة الرحمة ليوحى لنا أن قعوده على العرش لا يعنى القهر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمة بكم ، قعد على العرش لينظّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة ، فالاستواء هنا لا استواء قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفى آية أخرى قال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥٠) [طه] وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش فى سبعة مواضع فى كتاب الله ، نلخصها النظم فى قوله :

وَذَكَرُ اسْتِواءِ اللهِ فى كَلِماتِهِ	على العرشِ فى سَبْعِ مواضعٍ قاعداً
وفى سُورَةِ الْأَعْرَافِ ثَمَّةِ يُونُسَ	وفى الرَّعْدِ مع طِه فَكَلَعَدُ أَكَدُ
وفى سُورَةِ الْفُرْقَانِ ثَمَّةِ سَجْدَةَ	كَذَّا فى الحَدِيدِ أَفْهَمُوا فَهَمَ مُؤَيَّدُ

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هى فى خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّفُ عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا فى المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله فى الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهى - إذن - الرحمانية المسترئية والسمة العامة لمنهج الله فى الدنيا والآخرة .

وفي الحديث « في آخر ليلة من رمضان يستجلى الجبار بالمغفرة... »^(١) ولم يقل : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا أثر صفة الجبار في مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُرحى بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلّبت صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لك أيتها الصفة ، لكن تستسمحك في أن تشفع في هؤلاء ، فكان صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين^(٢) فعند من سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمي في شهر رمضان خمسين لم يعطهن نبي قبلي ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذب أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهي ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلي العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم » قال المنذرى في الترغيب والترهيب (٦٥/٢) : « رواه البيهقي وأسناده مقارب » .

(٢) من أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَ عليّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرين بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون . ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجيء النبي ومعه المصابة ، والنبي ومعه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أنزلوا جنّتي من كان لا يشرك بي شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤/١) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧٤/١٠) والسيوطي في « البدور السافرة في أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .. ﴾ [الإسراء: ١١٠] فأي اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حسنى ، لكن ليكون عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإن أردت علماً فقل : يا عالم علمنى ، وإن كنت ضعيفاً فقل : يا قوى قوئى ، وإن أردت العزة فقل : يا عزيز أعزنى وهكذا .. فإن أردت الاختصار فقل : يا الله . تكفيك كل شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ^(١) بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ١١٠] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (ولا تجهر) فالجهر منهى عنه ، وكذلك (ولا تخافت) أى : لا تسرها بحيث لا يسمعك من خلفك ، وهذا منهى عنه أيضاً ، فكلاً الطرفين مذموم ، وخير الأمور الوسط .

ونوضح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أولى ، فلا يليق أبداً رفع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تسببه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الاعراف: ٢٠٤]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة فى الميكروفون تلزم الناس بالإصغاء ، وتوقعهم فى الإثم والحرَج ، أو تعطل مصالحهم ،

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفعه . وخافت بقرائه أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسَبِّح أو يصلى ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك ؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حرٌ فيما يتنقل به ، ولا تكن من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كأذى يُشعل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ فى إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعى للناس حرمة . فمتى يفيق المسلمون ؟ ومتى يتنبهون إلى هذه اليد التى تُشوش على الناس وتُفسد عليهم عبادتهم ؟

أما إن كان رَفَعَ الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكسب شخص ، وإن نجعل الأمر مَعْرُضاً للأصوات ، ومِضْماراً للسباق ، إن كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد دخل صاحبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التى جاء بها الشرع ، وتأس برسول الله ﷺ حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً ، فوجد أبا بكر - رضى الله عنه - يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سألته . قال : يا رسول الله ، أناجى ربي وهو عالم بى ، فلما ذهب إلى عمر - رضى الله عنه - وجده يقرأ بصوت عال ، فلما سألته قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان ، عندها أمر ﷺ أبا بكر أن يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً⁽¹⁾ .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أمرًا بها حتى في الدعاء : كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ۚ ﴾ (٢٠٥)

فكلمة : ﴿بَيْنَ ذَلِكَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع في كل أحكام الدين ؛ لأن القرآن جاء لامة وَسَطَ بالأمور الوسط في كل شئون الحياة ، ففي قمة المسائل وهي الأمور العَقْدِيَّة مثلا يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنْكِرُونَ وجود الإله وَمَنْ يقول بأكلة متعددة ، فينتفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريك له . وفي الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (١٦٧)﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لاهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة ،
وَيَرْقِي بِحَيَاةِ الْفَرْدِ . وقد لَخَّصَ هَذَا الْمَنْهَجَ (الاقتصادي) فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَُا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ
مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) ﴿[الإسراء]

فالممسك المقتر الذي يقبض يده عن الإنفاق يتسبب في ركود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفي التبذير خطر على الفرد حيث يتفق كل ما معه ، ولا يبقى على شيء

(۱) قال محمد بن سيرين : ثبت أن أبا بكر كان إذا صلى قفراً خفض صوته ، وأن صر كان يرفع صوته ، فثقل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي عز وجل وقد علم حاجتي ، فثقل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : ألهو الشيطان وأوقط الرسلان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ نِجْوَاتِكَ سُبْحًا ﴾ [الإسراء] قيل لأبي بكر : أرفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير في تفسيره ۲/ ۶۹) .

يرتقى به في الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذي فوت عليك فرصة الترقى مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ سُولٌ مِّنَ الدَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾

فما المحمود عليه في الآية ؟

الحق سبحانه يقول : ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا .. ۝١١١ ﴾ [الإسراء]

فكونه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أن يحمده عليها ، فإن كان له ولد فسوف يخصه برعايته دون باقي الخلق ، فقد تنزه سبحانه عن الولد ، وجعل الخلق جميعهم عياله ، وكلهم عنده سواء ، فليس من بينهم من هو ابن لله أو من بينه وبين الله قرابة ، وأحبهم إليه تعالى أنقام له ، وهكذا ينفرد الخلق بكل حنان ربهم وبكل رحمة .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذكر ، خاصة لأمريين : أن يكون الولد ذكراً وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

* أَبْنَى يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضَى *

والحق سبحانه وتعالى باق دائماً ، فلا يحتاج لمن يُخلد ذكره ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعزوة والمكاشرة والتقوى به من ضعف ، والحق سبحانه وتعالى هو الغالب القهار ، فلا يحتاج إلى عزوة أو كثرة ، لذلك يأمرنا سبحانه أن نُمجِّده لأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، والمتأمل في حال الملوك والسلاطين يجد أكثر قسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..﴾ [الإسراء]

وهذا أيضاً من النعم التي تستوجب الحمد ، ولك أن تتصور لو أن الله تعالى شريكاً في الملك ، كم تكون حيرة العباد ، فأيهما تطيع وأيهما تُرضى ؟

لقد أوضح لنا الحق سبحانه هذه المسألة في هذا المثل الذي ضربه لنا : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ..﴾ [الزمر]

لذلك ، ففي أعراف الناس وأمثالهم يقولون : (المركب التي بها ريسين تفرق) وكونه سبحانه واحداً لا شريك له يجعلك مطمئن إلى أمره ونهيه فتطيعه وأنت مطمئن ، فأوامره سبحانه نافذة لا معقب لها ، ولا معترض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

وأيضاً فإن الحق سبحانه يقول : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدِّينِ ..﴾ [الإسراء]

الوليّ : هو الذي يليك ، وأنت لا تجعل أمرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نفعاً ، أو يدفع عنك ضرراً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يقوّي

ضعفك ، فإذا لم يكنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ،
وتحتفى برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له وليٌ يلجأ إليه ليعزه ؛ لأنه سبحانه العزيز
المعزُّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١١١)

[الإسراء]

لأن عظمة الحق سبحانه في نفس المؤمن أكبر من كل شيء ،
وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جعلت (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ،
فلا بد أن تكبر الله ، وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار ، فإن ناداك
وانت في أي عمل فقل : الله أكبر من عملي ، وإن ناداك وانت في
حضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أي عظيم ، كبره تكبيراً بأن تقدم
أوامره ونواهيه على كل أمر ، وعلى كل نهى .

ولا تنس أنك إن كبرت الحق سبحانه وتعالى أعزّت نفسك بعزة
الله التي لا يعطيها إلا لمن يخلص العبودية له سبحانه ، فضلاً عن أن
العبودية لله شرف للعبد ، وبها يأخذ العبد خير سيده ، أما العبودية
للبشر فهي مذمومة مكروهة ، وهي مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد
خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسَبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَقِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أَحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت في مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ،
أما في مقابلة رب العزة سبحانه ، فبمجرد أن آمنت به أصبح الزمام

فى يدك تلقاه متى شئت ، وفى أى مكان أردت ، وتحدثه فى أى أمر أحببت ، فأى عزة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، : حيث قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَبِئْسَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ﴾ (١) [الإسراء]

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألا ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الَّذِى تَجْتَوِيهِ مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبر الله تكبيراً وعظماً ، والتجىء إليه ، فمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كيد الآخرين وقهرهم . وسبق أن ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذى يعتدى عليه أقرانه إن سار وحده ، فإن كان فى يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك - إذن - أن تكون دائماً فى معية ربك تأمن كيد الكائدين ومكر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشيء فكانما يقول له : ابتليتك بنعمتى لتأخذ من ذاتى ، لأن الصحيح المعافى إن كان فى معية نعمة الله ، فالمبتلى فى معية الله ذاته .

ألم يقل الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول :

أما علمت أن عبيدي فلاناً مرض فلم تعدّه ، أما علمت أنك لو عدتّه لوجدتني عنده ^(١) .

فالمريض الذي يأنس بذاثريه ويسعد بهم ويرى في زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له في شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان في جواره وكلاءته ، والله الذي لا إله إلا هو لا يشعر بوخز المرض أبداً ، ويستحي أن يتأوه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن : كبره تكبيراً . أى : اجعل أمره ونهيه فوق كل شيء ، وقل : الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . ألا ترى قول رابعة العدوية ^(٢) :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَكَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ وَيَرْوْنَ النِّجَاجَ حَطًّا جَزِيلاً
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الْجَنَانَ فَيَحْطُوا بِقُصُورٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسَبِيلاً
لَيْسَ لِي بِالْجَنَانِ وَالنَّارِ حَظٌّ أَنَا لَا أُبْنِئِي بِحُبِّي بَدِيلاً

وفى الحديث القدسي : « أولو لم أخلق جنة ونارا ، أما كنت أهلاً لأن أعبد ؟ » .

فإنه تعالى بذاته سبحانه أكبر من أي شيء ، حتى إن كانت الجنة ، ففي آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) هي : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولداً بها ، لها أخبار في العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٢٥ هـ (الإلهام للزركلي ١٠/٢) .

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴿الكهف﴾

فَلَمْ يَقُلْ : مَنْ كَانَ يَرْجُو جِزَاءَ رَبِّهِ ، أَوْ جَنَّةَ رَبِّهِ ، أَوْ نَعِيمَ رَبِّهِ ،
إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى النَّعِيمِ ، بَلْ يَطْمَعُ فِي لِقَاءِ الْمُنْعَمِ
سُبْحَانَهُ ، وَهَذَا غَايَةُ أَمَانَتِهِ .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِلْمَلَائِكَةِ : «أَمَّا رَأَيْتُمْ عِبَادِي ،
أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ بِكَذَا وَكَذَا ، وَأَسْلَبْتُ عَنْهُمْ نِعْمَتِي وَيَحْبُونَنِي » .

وَبِهَذِهِ الْآيَةِ خُتِمَتْ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ ، فَجَعَلْنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ نَخْتُمُهَا
بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الثَّلَاثِ ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ كُلُّ نِعْمِ اللَّهِ
عَلَيْنَا ، بَلْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا نِعَمٌ لَا تُحَدُّ وَلَا تُحْصَى ، لَكِنْ هَذِهِ الثَّلَاثُ
هِيَ نِعْمَةُ النِّعَمِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ أَنْ نَحْمَدَهُ عَلَيْهَا .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَهُوَ وَاحِدٌ
أَحَدٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ شَرِيكًا لِأَنَّهُ وَاحِدٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ لِأَنَّهُ الْقَاهِرُ الْعَزِيزُ الْمُعَزِّزُ ، وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ
تُكَبَّرَ هَذَا الْإِلَهُ تَكْبِيرًا فِي كُلِّ نِعْمَةٍ نَسْتَقْبِلُهَا مِنْهُ سُبْحَانَهُ .

شُرُكُؤُا الْكُفَرَاءِ

سورة الكهف^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْجِزَاتِهِ

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذي أطلقه رسول الله ﷺ في خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بدئت بها سورة الإسراء ، والحمد لله بدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا في الذات ، ولا في الأفعال ، ولا في الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقلنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه في المعنى العام : ثناء وشكر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإن تقاربت في المعنى العام فكلٌ منها معناه الخاص ،

(١) سورة الكهف هي السورة رقم (١٨) في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية وتقع في الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف . وهي سورة مكية في قول جميع المفسرين . قال القرطبي في تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جَزَاءً ﴾ والاول أصبح » .

وقد روي في فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

- من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف حُصِمَ من الدجال . أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبي أنس رضي الله عنه . قال النووي في شرحه لمسلم : « وفي رواية « من أجز الكهف » قيل : سبب ذلك ما في أولها من المعاجز والآيات فمن تدبرها لم يفتن بالدجال وكذا في آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَمٍ عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقعة الحمد أوسع من رُقعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فَقَوْلُ الخق : (الحمد لله) بالالف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إن حمدك لأى إنسان قدّم لك جميلاً فهو - إذا سَلَسَلْتَهُ - حَمْدُ الله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سَلَسَلْتَ الحمد لأى إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ لِلَّهِ) هذه هى الصيغة التى علمنا الله أن نحمده بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخلق فى الحمد حسب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحسب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الادائية أفصح من العيى والأمى . فتحمل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعيى يقولها ، والأمى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويثنى عليه : « سبحانك لا تحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فإن أردنا أن نُخصي الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مدها إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أن نقول ما علمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً في الحمد لله نعمة كبرى في ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله ، والحمد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعنا الحمد لوجدته سلسلة لا تنتهي ، حمد على حمد على حمد على حمد ، فيظل الله محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خمس سور من القرآن :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة]
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الانعام]
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . ﴾ [الكهف]
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ . . ﴾ [سبا]
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَعَةٍ . . ﴾ [فاطر]

ولكن ، لكل حمد في كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد في الأولى

لأن الله ربُّ العالمين ، وربُّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدُّ من عدم ، وتولى تربية عباده ، فهو ربُّ لكلِّ العالمين ؛ لذلك يجب أن نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونعم من نعمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور من نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فللظلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للنسعى والحركة ، ولا يمكن لسكّاح أن يسعى ويجدَّ فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افتتحها الحق سبحانه بـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) - التى نحن بصددِها - أراد الحق سبحانه أن يوضح أنه لم يُربِّ الخلق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيّمة ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخلق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأن يعمل حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ۚ ۝ (١) ﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزال الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أن يخلق الخلق وضع له النماذج التي تُصلح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن]

فتعليم القرآن جاء قبل خلق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المتكامل لحياتهم قبل أن يخلقهم ، لعلهم سببته في خلقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذي يعلم مهمتها ويُحدد قانون صيانتها ، فالكتاب الذي نزل على محمد ﷺ هو المهمة الأساسية ، فيجب أن تُوطن عليها نفسك ، وتعلم أنه المنظم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿عَلَى عَبْدِهِ ۝﴾ [الكهف] كما قلنا : في سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرُفعة في الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : ﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۝﴾ [الإسراء]

فالعبودية رفعتَه إلى حضرة تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحق ، وهذا يعني إزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفت لربه لفتة أراد أن يلفت بها سواء ، فأخلص هو أولاً في العبودية ، وتحمل ما تحمّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة قُصْرَج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزل بها إلى الخلق ليرفع بها صوته إلى المقام الذي سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبي تناول ليناوِل ، وتناول لأنه أخلص العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقي بالله ، فليدخل في الصلاة .

و ﴿الْكِتَابَ ١﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أى : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلق ويُرادُّ به بعضه ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَرَأَا قُرْآنَهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ ١٨﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمى قرآناً ، والسورة تُسمى قرآناً ، والكل يُسمى قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزله بعد ذلك مُتَجَمِّعاً حَسَبَ الرِّقَاقِ ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١﴾ [الكهف] أى : جعله مستقيماً ، لا عِوَجَ فيه ، كما قال فى آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ٢٨﴾ [الزمر] والاعوجاج ، أن يأخذ الشيء امتداداً مُنْحَنِيّاً ملتوياً ، أما الاستقامة فهي الامتداد فى نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس فى الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم فى حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخلق متكاملين ، فكلُّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقوم بذاته أو يستغنى عن مواهب غيره ، فلا بدُّ أن يتواجه الناس فى الحياة ، وأن يتكاملوا .

هذا التواجه إن لم يُنظَّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوى كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلُّ منَّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهي هو الطريق المستقيم الذي يضمن سلامة الحركة في الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه]

أى : أرضاً مستوية خالية من أى شيء ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا (١٠٧) ﴾ [طه] أى : مستقيمة ﴿ وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه]

أى : مُستوية لا يوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما يُسميه رجال المرور (العقبة) .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم :

﴿ قِيمًا لِّنُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِّمَن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴾

قوله : (قِيمًا) أى : القرآن ، وقالوا : قِيمَ بمعنى مستقيم ، كأنها

(١) الصنف : الأرض المساء المستوية ، أى : أن الجبال تزول لملا يكون لها اثر .
[القاموس القويم ٢٧٩/١]

(٢) الأمت : التلال الصغار ، والأمت : الوعدة بين كل نشزين . وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] أى : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [لسان العرب مادة : أمت] .

تأكيد لقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة ، والتي تراها للوحة الأولى مستقيمة تمامًا ومستوية ، فإذا ما نزل المطر قُضِح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب : لذلك أكد الاستقامة بقوله ﴿قِيَمًا ۝٢﴾ [الكهف]

ومن معاني القِيَم : المهيمن على ما نوته ، كما تقول : فلان قِيَم على فلان أى : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن - إذن - لا عِوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۝١٨﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ ۝١٢﴾ [الروم] أى : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ۝٣﴾ [الكهف]

وهذه هي العلة في الإنزال .

والإنذار : التخويف بشراً قادم ، والمُنذَر هنا هم الكفار : لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملكة العربية وللذهن أن يعمل ، وأن يستقبل القرآن بفكر مُفتتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآن كل شيء هكذا على طرف النمام أى قريباً سهل التناول .

ثم صَحَّح العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك فقط بل ﴿مِّن لَّدُنَّا ۝٤﴾ ،

والعذاب يتناسب مع المعذب وقوته ، فإن كان العذاب من الله فلا طاقة لأحد به ، ولا مهرب لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ ۝٢٠ ﴾ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، وتلاحظ أنه في البشارة ذكر الميشرح (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدما :

مَكِينٌ فِيهِ أَبَدًا ۝٢١

أى : ياقين فيه بقاء أبدى ، وكان لابد أن يوصف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ما كثثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المتعم سبحانه في الآخرة ، لقد ألف الناس الأجر على أنه جعل على عمل ، فعلى قدر ما تعمل يكون أجرك ، فإن لم تعمل فلا أجر لك .

أما أجر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإن ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصف المتفضل ، وإن انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذت من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أن تتركه ، وإما أن يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٢٢

والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرم الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كان لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا ^(١) إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴿ [مريم]

إنها قمة المعاصي أن نخوض في ذات الله تعالى بمقولة تنفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتهتد لهولها الجبال .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾

فهذه القضية التي ادعوها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله ، من أين أتوا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعوها ولا علم لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. ۝ ﴾ [الكهف]

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكنب الفاحش ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾ (٨٨) ﴿ [مريم] . أي : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس المبرور ١٢/١] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيء موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجود له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أى : عَظُمَتْ وتناهتْ فى الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرَتْ أَنْ تَخْرُجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مفرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو فى ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطْلَق ويُرَاد بها الكلام ، فالآية عَبَّرَتْ عن قولهم ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤) [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبَةً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٦٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] فسَمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَسْأَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [آل عمران] فسَمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرَتْ لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرج منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمَن حينما أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدون بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاطم أن نقولها - أى :

لا تقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »^(١) .

إن : المصيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القبيح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغت من السوء وكنتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكن .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴾ (٥) ﴿ [الكهف] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألا يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعقل قبل أن يتكلم يدير الكلام على ذهنه ويعرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذهنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهد محمد ، وهذه تسمى نسبة ذهنية ، فإن قلت : محمد مجتهد أصبحت نسبة كلامية ، فإن وجد شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحت نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإن كانت النسبة الكلامية لا واقع لها كان لا يوجد شخص اسمه محمد أو وجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الصدق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قلت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل ؛ لذلك لا يوصف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٢) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي رواية : « تلك محض الإيمان » قال النووي في شرحه لمسلم (١ / ٢١٢) : « إن استغنام هذا وحده الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً مطلقاً وانتفتت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمى يقول : الصدق الحقيقى أن تطابق النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدت شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخبر .

وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [١]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقت معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله بأنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادى . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أن يُرَاطب القلب اللسان ، وهم شهدوا بالسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لما قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهي نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿ إِنْ يَقْرَأُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [٥]

ثم يُسَلَّى الحق سبحانه رسوله ﷺ لِيُخَفِّفَ عَنْهُ مَا يَلَاقِي مِنْ مَتَاعِبٍ وَعَنَادٍ وَسَفَهٍ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ ، فيقول تعالى :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [٦]

ومعنى : ﴿ بِنَجْعِ نَفْسِكَ .. ﴾ [٦] [الكهف] أى : تجهد نفسك فى دعوة قومك إجهاداً يهلكها ، وفى الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه

حَمَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ هِدَايَةِ قَوْمِهِ مَا لَا يَحْمِلُهُ اللَّهُ وَيُلْزِمُ مَا لَا يُلْزِمُهُ ،
فَقَدْ كَانَ ﷺ يَدْعُو قَوْمَهُ فَيُعْرِضُوا وَيَتَوَلَّوْا عَنْهُ فَيُشِيعُ أَثَارَهُم بِالْأَسْفِ
وَالْحُزْنِ ، كَمَا يَسَافِرُ عَنْكَ حَبِيبٌ أَوْ عَزِيزٌ ، فَتُسِيرُ عَلَى أَثَرِهِ تَمْلُوكُ
مِرَارَةَ الْأَسَى وَالْفِرَاقِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ لِحُبِّهِ لِقَوْمِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى
هُدَايَتِهِمْ يَكَادُ يَهْلِكُ نَفْسُهُ (أَسْفًا) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
﴿ يَأْسُفُنِي عَلَى يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤) [يوسف] وقوله تعالى عَنْ مُوسَى لَمَّا
رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ غَاضِبًا مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
غَضَبًا أَسْفًا .. ﴾ (٨٦) [طه]

وقد حَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَهْمَةَ الرُّسُولِ وَهِيَ الْبَلَاغُ ، وَجَعَلَهُ بِشِيرًا
وَنَذِيرًا ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ مَا لَا يَطِيقُ ، فَفِي الْآيَةِ مَظْهَرٌ مِنْ
مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِرَسُولِهِ ﷺ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧)

وَكَانَ هَذِهِ الْآيَةُ تَعْقِيبَ عَلَى سَابِقَتِهَا ، وَإِشَارَةً لِرَسُولِ اللَّهِ بِأَنَّ
الدُّنْيَا قَصِيرَةٌ ، فَالْمَسْأَلَةُ - إِذَنْ - قَرِيبَةٌ فَلَا دَاعِيَ لَأَنْ يَهْلِكَ نَفْسُهُ
حُزْنًا عَلَى عَنَادِ قَوْمِهِ ، فَالدُّنْيَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَدَّةُ بَقَائِهِ بِهَا وَعَيْشُهُ فِيهَا ،
وَلَا دَخَلَ لَهُ بِعَمَرِهَا الْحَقِيقِيُّ ؛ لِأَنَّ حَيَاةَ غَيْرِهِ لَا تَعُودُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ،
وَعَلَى هَذَا فَمَا أَقْصَرَ الدُّنْيَا ، وَمَا أَسْرَعَ انْتِهَائُهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْنَا
فَنُجَازِيهِمْ بِمَا عَمَلُوا ، فَلَا تَحْزَنُ وَلَا تَيَاسُ ، وَلَا تَكْذُرُ نَفْسُكَ ، لِأَنَّهُمْ
لَمْ يُؤْمِنُوا .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا .. ﴾ (٧) [الكهف]

أى : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يبرق أمام الأعين فيقربها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَمَآةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَرَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَطَطَ بِهِ نَبَاتٌ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(١) تَذَرُوهُ الرِّيحُ ۚ ۝ (٤٥)﴾ [الكهف]

فإياك أن يأخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زهر سرعان ما يذبل ويصير حطامًا .

وقوله : ﴿لِيَبْلُوَهُمْ ۚ ۝ (٧)﴾ [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفق فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسبقًا ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن تلقى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهدًا واقعيًا على مَنْ يخفق .

إن : معنى : ﴿لِيَبْلُوَهُمْ ۚ ۝ (٧)﴾ [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

(١) الهشيم : الحطب أو الخشب المعطم . وهشم الشيء اليابس : كسره . وهشم الخبز : كسره ولثه . [القاموس القويم : ٢/٢٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض ، ولا نبات فيها و ﴿ جُرُزًا ﴾ هي الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جاشحة أهلكته ، يقول تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السجدة]

وما نام الأمر كذلك والفتية زُخُوف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدعهم لي أختبرهم ، وأجازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا

مِّنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

وقد وردت قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أن يُحَرِّجُوا رسول الله ، ويُرَوِّى أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا رَجُلَيْنِ مِنْهُمَا : النَّضْرَ ابْنَ الْحَارِثِ وَعَقِيَّةَ بْنَ أَبِي مَعِيْطٍ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَدِينَةِ لِيَسْأَلُوهُمْ عَنْ صَدِّيقِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَا خَبَرَهُ عَنْهُمْ ، وَمَا وَرَدَ عَنْهُ فِي كِتَابِهِمْ .

(١) اختلف الناس في الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبي في تفسيره :

- الرقيم : واد . قاله مجاهد .
- الرقيم : الحفرة التي كانت على الكهف . قاله السدي .
- الرقيم : كتبهم . قاله أنس بن مالك والشعبي .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسمائهم وأسابيهم ودينهم ومن مريروا . قاله ابن عباس والفراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره (٤٠٨٦/٥ - ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبي الجديد ، يقولون : لقد أطل زمان نبي فتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وادم ؛ لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إن أردتم معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟^(١)

وفعلوا ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتهم عنه غداً »^(٢) وجاء غداً وبعد غد وممرت خمسة عشر يوماً دون أن يوحى لرسول الله شيء من أمر هذه الأسئلة ، فشق ذلك على رسول الله وكبر في نفسه أن يعطي وعداً ولا يتجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتهم عنه غداً » ولم يقل : إن شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وهذه الآية في حد ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

(١) ذكره الخطيب في تفسيره (٤٠٧٦/٥) وعزاه لابن إسحاق

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام في السيرة

(٢٢٦/١ - ٢٢٢) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سيحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ،
وحتى لا يستنكف أحد إذا استدرك عليه شيء ، فهذا هو محمد رسول
الله يستدرك عليه ربه ويُعَدِّلُ له .

فكان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٧٤) إلا
أن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٧٥) ﴿ [الكهف] تربية للامة في شخصية رسولها حتى
لا يستنكف العربي من توجيه المربي ، ما دام الهدف هو الوصول
إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأي على رأي حتى وإن
كان من الخلق ، فما بالك إن كان الاستدراك من الخالق سبحانه ،
والتعديل والتربية من ناحيته ؟

واليك مثال لادب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد
ورد هذا الدرس في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ^(١) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكَأَنَّ لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧٨) [الانبياء]
فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أن يأخذ صاحب
الزرع الغنم التي أكلت زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك
عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب
الغنم الزرع يصلحه حتى يعود إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى
صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴾ (٧٩) [الانبياء]
ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. ﴾ (٧٩) [الانبياء]
ونلاحظ هنا أن الاستدراك لم يأت من الاب للابن ، فيكون أمراً

(١) النَفَسُ : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فتزعي من غير علم راعيها [لسان العرب -
مادة : نفث] . ونفست الغنم : انتشرت في المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس
القديم ٢/ ٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للاب ليؤكد على أنه لا غشاضة أن يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، وثبى الله سليمان في هذه المسألة لم يفض الطرف عن هذا القصور في حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به : لأن الحق أعز من أى صلة حتى لو كانت صلة الأبوّة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخلق على الخلق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعن القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يره .

ولنا هنا وقفة مع أمانته ﷺ في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكانه أمين حتى على نفسه ، فالرسول هو الذى بلغنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) [الكهف] وهو الذى بلغنا : ﴿ يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴾ (٦) [التحریم]

وهو الذى بلغنا في شأن غزوة بدر : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴾ (١٣) [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٢٤) [التكوير]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) [الحاقة]

[إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يخفى شيئاً .

ألم يكن جديراً بالقوم أن يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ،
ويتفكروا في صدقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ،
وكان من المنتظر أن يُخفيها عنهم ؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على
صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا
أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرم عبده ويحميه حتى لا يُوصَفَ
بالكذب إذا لم يُحقق ما وعد به ، وليس في قولنا : إن شاء الله حَجَرٌ
على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعي البعض أن قول إن
شاء الله يلغى التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطَط كما تريد ، ودبر من أمرك ما شئت ، واصنع من
المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إن قرنت هذا
كله بمشيئة الله ، وهي في حَدد ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإن
أخفقت لقد جعلت لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت خير كاذب ،
والحق تبارك وتعالى لم يشأ بعد أن تلجأ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمّنه أحد
إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعلّق الفعل على مشيئة الله ،
فإن قلتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكله في كذا ، فهل تملك أنت من
عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنت أن تعيش إلى غد ؟ أضمنت حياة فلان هذا إلى الغد ؟
أضمنت أن موضوع المقابلة باق لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه
طارئ ؟ إذن : فكيف تقطع بالشّول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن
شاء الله ، وأخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التي نحن بضددها فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف]
 ﴿أَمْ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عما قبله
 وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْقَى
 الْأَعْمَى الْمُبِينُ أَمْ هَلْ تَسْقَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ..﴾ [الزمر]
 فالمراد : إنَّ سالك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها
 معضلة يريدون إخراجك بها ، فدعك من كلامهم ، ودعك من سوء
 نيّتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجبة الوحيدة لدينا ،
 فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿الْكَهْفِ﴾ : الفجوة في الجبل و (الرقيم) الشيء المرقوم
 أى : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب
 الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ
 مُرْقُومٌ﴾ [المطففين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف] أى : ليست هذه هي
 العجبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم نأخذ الآيات في تفصيل هذه العجبة ، فيقول تعالى :

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ

رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرٍ نَارِشِدَا﴾

(أوى) من المأوى ، وهو المكان الذي يأوى إليه الإنسان
 ويلجأ إليه (الفتية) جمع فتى ، وهو الشاب في مقتبل العمر ،
 والشباب هم معقّد الأمال في حمل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالتفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخْلِفين وراءهم أمورهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أي مُقَوِّم من مُقَوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوِّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ ۝١٠ ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقَوِّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من للبشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَفَيْئًا لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١١ ﴾ [الكهف] أى : يَسِّرْ لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنتين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّعَ عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ قُلُّوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا ۖ ۝٤٣ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ

سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾

يُقَالُ : ضَرَبَ الفسْطَاطَ عَلَى الأرضِ يَعْنِي الخِيَمَةَ ، أَيْ : غَطَّيْتُ الأرضَ بِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فُضَاءً ، وَالضَّرْبُ : أَنْ تَلْمَسَ شَيْئًا بِشَيْءٍ بِشَدَّةِ شَرِيطَةٍ أَنْ يَكُونَ الْمَضْرُوبُ بِهِ أَقْوَى مِنَ الْمَضْرُوبِ ، وَإِلَّا كَانَ الْمَضْرُوبُ ضَارِبًا لِنَفْسِهِ .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيَا هَازِلًا مِنْ صُنُوفِ الْقَدَرِ بِنَفْسِكَ تُعْنَفُ لَا بِالقَدَرِ
وَيَا ضَارِبًا صَخْرَةً بِالْعَصَا ضَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ .. ﴾ (١١) [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى . والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب واجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن يتام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الآلام ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مكثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعَكِّرُ صَفْوَةَ شَيْءٍ ، والنوم هو الراحة التامة التى تطفى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إدراك تؤدى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨) [النحل]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعت أصيبت أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرخت في أذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يشوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأووا إلى الكهف ، وهو فجوة في جبل في صحراء وهي غُرْضَة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تززع النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لازعجتهم هذه الأصوات وأقلقَتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه العدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أي : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يعدُّ لأنه معروف ، فإن ذكر العدد فاعلم أنه للشئ الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عدداً ونقداً .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَرَبَّعَتْهُمْ لَيْعَارُ أَيُّ الْهَيْزَلِينَ ۝ ١١ ﴾
﴿ أَحْصَى لِمَا لَبَسُوا عَمَدًا ۝ ١٢ ﴾

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة ومسلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [القاموس القويم - مادة : حزب] ، قال القرطبي في تفسيره (٤٠٩٤/٥) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا ليثهم قليلاً . والحزب الثاني من أهل المدينة الذين بُعثت الفتية على صهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمير الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

(يَمَعْنَاهُمْ) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً . إلا أنهم لما طُلت مدة نومهم شبهها بالموت : ﴿ لَعَلَّكُمْ أَيْ الْحَزِينِينَ .. (١٢) ﴾ [الكهف] أى : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم . أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختطفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا (١٣) ﴾ [الكهف] أى : لنرى أى الفريقين سيُقدر مدتهم تقديراً صائباً . والامد : هى القدة وعدد السنين .

والمتمامل فى الآيات السابقة يجد فيها ملخصاً للقصة وموجزاً لها ، وكأنها بريقة سريعة بما حدث ، فاهل الكهف فتية مؤمنون قرؤوا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم من يحصى مدة نومهم ، وهذه البريقة بالطبع لم تُعطنا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا

بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٤) ﴾

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يُقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاص غير الله لترقنع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لهوى فى نفسه ، إنما إن جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (١٥) ﴾ [يوسف]

إذن : هناك قصص ليس بالحسن ، وهى القصص غير الدقيق .

فالقِصَصُ القرآنيّ يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ، ويُصوِّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قِصَص تدلُّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصِّ الأثر أي : تتبُّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نُبَاهُمْ) الدنيا : هو الخير العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١٣)

هذا هو تفصيل القصة بعد أن لخصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة ، وكان الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناس هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغيِّر فيها ، لكن قُصْنَا لها هو القِصَصُ الحق الذي لا كذب فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضحَّروا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولَّاهم ونور بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧)

وما أشبه هذه المسألة بالمعلم الذي يلمح أمارات النجاة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيؤليه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضحَّروا بكلِّ شيء وفروا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنة الانشغال بالدنيا والحرص على مُتعتها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صغرهم ليكونوا قدوة ومثلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاء في أهل الكهف : فتاء إيمان ولقاء عقيدة .

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُنِ دُونِهِ إِلَهًا
لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا ﴿١٦﴾

(١) المشط : الجوز وتجاوز الحد في كل شيء . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ فُتِنَا إِذَا قَطَعْنَا ﴾ [الكهف] . أي : قولا جائزا مجاوزا للحد . [القاموس القويم ٢١٩/١] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطًا للشعور يحكم تصرفاتها فتأتى سليمة مُبَشَّيَّة مع الخطة المرادة ...

ومن هنا تأمر الغاضب الذى تغلى الدماء فى عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويكجم جماح غضبه الذى لا تُحمد عقباه ، ألا ترى التوجيه النبوى فى حال الغضب ؛ إنه ينصح بتغيير الوضع الذى أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَفِيدَتْهُمُ هَوَاءَ ﴾ (١٣) [إبراهيم] أى : فارغة خالية . ليس فيها شيء ؛ لأن الشيء إذا قُرِغَتْ من مُحْتَوَاهِ امتلأ بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه فى أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (١٤) [الكهف] لنظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذى أخبرت به الآية السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١٥) [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم فى وجهه ، وأن الباطل أفرغهم فهبوا للتصدى له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١٥) [الكهف] ولا يَدُّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرضوا فى دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى صورة لفريقين : فريق الكفر الذى ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذى يعلنها مدوية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١٥) [الكهف]

وَأَنْ كَانَ فَرِيقَ الْكُفْرِ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ فَرِيقَ
الْإِيمَانِ يَقُولُ : ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف] فَإِنْ ادَّعَيْنَا إِلَهًا
مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف] أَيْ : فَقَدْ تَجَاوَزْنَا
الْحَدَّ ، وَبَعُدْنَا عَنِ الصَّوَابِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا
من دُونِ اللَّهِ آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجَّة واضحة
على صِدْقِ ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف] فانظروا الظلم
واقبحه أَنْ تَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ﴾ [١٦] . [القائ]

ثم يقول الحق سبحانه :

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَوَاعِدْتُمُوهُمْ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَلَى
الْكُهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ
مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٧﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : مَا دُمْنَا اعْتَزَلْنَا أَهْلَ الْكُفْرِ ،
وَنَائِيًا عَنْ طَرِيقِهِمْ ، وَسَلَكْنَا مَسْلَكَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الَّذِي يَسِّرُهُ اللهُ لَنَا ،
فَهِيََا بَنَا إِلَى الْكَهْفِ نَلْجَأُ إِلَيْهِ وَنَحْتَمِي فِيهِ فِرَارًا بِدِينِنَا ، وَمَخَافَةَ أَنْ
يَفْتِنَنَا الْقَوْمُ عَنْ دِينِنَا .

وَيَلْفِتُنَا هُنَا إِلَى أَنْ فِرَارَ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةِ لَيْسَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ فِيهِ مُتَسَعٌ
لِلْحَيَاةِ ، بَلْ إِلَى كَهْفٍ ضَيِّقٍ فِي جَبَلٍ فِي صَحْرَاءَ ، وَلَيْسَ بِهِ مَقُومٌ
مِنْ مَقُومَاتِ الْحَيَاةِ ؛ لِذَلِكَ يَنْبَغِي الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : إِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ
الْكَهْفَ ضَيِّقٌ ، وَكَيْفَ يَعِيشُونَ فِيهِ ؟ لَأَنَّهُمْ مُهَاجِرُونَ إِلَى اللهِ لَا جُنُودَ
إِلَيْهِ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ .

لِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ .. (٦٣) ﴾ [الْكَهْفِ] فَالضَّيِّقُ يَقَابِلُهُ
الْبَسَاطَةُ وَالسَّعَةُ ، لَقَدْ قَالُوا هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي رَحْمَةِ اللهِ
مَعْتَقِدُونَ أَنَّ الَّذِي هَاجَرُوا إِلَيْهِ لَنْ يُسَلِّمَهُمْ وَلَنْ يَخْذِلَهُمْ ، وَسَوْفَ
يُوسِّعُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ هَذَا الضَّيِّقُ ، وَقَدْ وَسَّعَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فَعَلَاءَ حِينٍ
أَنَامَهُمْ ، أَلَا تَرَى النَّائِمَ يَرِيحُ فِي الدُّنْيَا هُنَا وَهَنَا لَا تَحُدُّهُ حُدُودٌ ؟

وَمِنْ هَذِهِ السَّعَةِ مَا حَدَّثَ فِي قِصَّةِ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى - عَلَيْهِ وَعَلَى
نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حِينَما تَبِعَهُ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ حَتَّى قَالَ أَتْبَاعُهُ :
﴿ إِنَّا لَمُعَذَّرُونَ (٦٤) ﴾ [الشُّعَرَاءُ] ، فَقَدْ ضَاقَ عَلَيْهِمُ الْخُنَاقُ حَيْثُ الْبَحْرُ
مِنْ أَمَامِهِمْ ، وَالْعَدُوُّ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَلَا مَسْهَبَ لِهِمْ فِيمَا يَرُونَ مِنْ وَاقِعِ
الْأَمْرِ . فَمَاذَا قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ ؟ قَالَ بِمَلَأَ فِيهِ قَوْلُهُ
الْوَائِقُ مَنْ نَصَرَ اللهُ : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٥) ﴾ [الشُّعَرَاءُ]

فَجَاءَهُ التَّأْيِيدُ مِنْ رَبِّهِ فِي التَّوَرِّ وَاللَّحْظَةِ ، وَلُفِّرَجَ عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

8867

مَا يُلَاقُونَ مِنْ ضِيقٍ مُخْرَجٍ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ : ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْبَحْرَ .. ﴾ (٦٢)

كَذَلِكَ هُنَا : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .. ﴾ (١٦) [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ (١٦) [الكهف]
والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهى مقومات الحياة التى لا يستغنى
عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لانهم إن
ظلوا فى حال اليقظة فلا بُدَّ أَنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهَا ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (١٧)

بعد أن ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الاصوات التى
تزعجهم وتقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت
الايحاث خطر الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظلمة مهمة ، فيها
تهدا الاعصاب وترتاح الاعضاء ، والشمس خلق من خلق الله ، لها
مَدَارٌ ثابت وقانون لا يتخلف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴾ (٣٣) [الأنبياء]

(١) تزاور عنه : مال وتحنى وانحرف . أى : أن الشمس تميل وتتحرف عنهم لكلا تؤذيهم .
[القاموس القويم ٢٩٧/١] .

(٢) قرص المكان : تركه وتجاوزته . أى : تتركهم الشمس وتتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم
الشمس بحرماً . [القاموس القويم ١١٣/٢] .

وَلَكِنَّ الْخَالِقَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَرَقَ لَهُمْ نِظَامَ الشَّمْسِ حَتَّى لَا يَزْعَجَهُمْ ضَوْؤُهَا فَجَعَلَهَا (تَزَاوُر) أَيْ : تَمِيلُ عِنْدَ طُلُوعِهَا عَنِ الْكَهْفِ ، وَمِنْهُ الزُّورُ : أَيْ الْمِيلُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالزُّورُ عَنِ الشَّيْءِ أَيْ : مَا لَيْسَ بِهِ . فَكَانَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَمِيلُ عَنِ الْكَهْفِ جِهَةَ الْيَمِينِ .

﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبَهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الكهف] والقَرْض - كما هو معلوم - أَنْ تُعْطَى غَيْرَكَ شَيْئاً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَكَانَ الشَّمْسُ تَقَرَّبَهُمْ وَتَسَلَّفَهُمْ ، كَوْنُهَا لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ غُرُوبِهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِمْ ، فَكَانَهَا تَقَرَّبَهُمْ إِيَّاهُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ الَّتِي تُصْنَعُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ .

ونلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل للأفعال للشَّمْسِ فِي تَزَاوُرٍ وَتَقَرُّبِهِمْ ، وَكَانَهَا تَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهَا بِعَدْوٍ أَنْ تُضَيِّطَ اللَّهُ تَعَالَى حَرَكَتَهَا عَلَى هَذِهِ الْأَفْعَالِ كَمَا تُضَيِّطُ الْأَلَّةَ الْيَوْمَ .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي لَجْوَةٍ مِّنْهُ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الكهف] أَيْ : فِي الْكَهْفِ ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشَّمْسِ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَمُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ تَعَالَى ، فَلَيْسَ أَنْ تَقَرَّبَ : كَيْفَ تَمِيلُ الشَّمْسُ ؟ وَكَيْفَ تُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا ؟ لِأَنَّ الْخَالِقَ سَبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ ، وَأَعْطَى لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَانُونَهُ الَّذِي يَسِيرُ بِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتْرَكْ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ أَنْ يَقْعِلَ بِقَانُونِهِ مَا يَرِيدُ ، بَلْ لَهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِيُومِيَّةٌ عَلَى الْقَانُونِ ، تَبْطُلُهُ إِنْ شَاءَ ، وَتَحْرِكُهُ إِنْ شَاءَ .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال تدور هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمُضِل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذته المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وأمتت ؟ إن اقتصرارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل للمؤمن فقط ، بل يدل للمؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفساق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۖ ﴾ (١٨)

أى : لو أتيت لك النظر إليهم لخشيت إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين
ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم
أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يُقَلِّبُهُمْ في نومهم مرة ناحية
اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظل أجسامهم على حالها ، لا تأكلها
الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّرَ له أن ينام فترة طويلة على سرير
المرض يُصاب بمرض آخر يُسمونه قرحة الفراش ، نتيجةً لنومه
المستمر على جانب واحد - عافانا الله وإياكم - وقد جعل لهم هذا
التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۖ ﴾ (١٨) [الكهف] ويبدو
أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس ماذا ذراعَيْهِ بفناء
الكهف أو على بابهِ ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُغْبًا ۖ ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام
تقليبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت
فرقة : إنما قَلَّبُوا في التسع الأواخر ، وأما في الثمانيات فلا . وظاهر كلام المفسرين أن
التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبي ٥ / ٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتيته . [القاموس القويم ٢ / ٢٢٩] .

الناس ، فإذا ما أطلع عليهم إنسان خاف ورأى هارباً يملؤه الرعب ؛
لأن هيبتهم تُوحى بذلك ، حيث يتقلبون يمينا وشمالاً ، ومع ذلك
لا يصحّر منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِيسَاءِ لَوَائِيْنِهِمْ قَالِ قَائِلٌ
مِّنْهُمْ كَمَ لَبِئْسَ قَالُوا الْبِنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْسْتُمْ فَاِْبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ^(١)
هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ
بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل
الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت ، فقال (بَعَثْنَاهُمْ) ،
والبعث هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أن يسأل بعضهم بعضاً عن
مدة لبثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين
الفريق الاول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمَ لَبِئْسَ ۝١٩﴾ [الكهف]

فردّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ،
فقال : ﴿ قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۝١٩﴾ [الكهف] فالإنسان
لا يستطيع تقدير مدة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون
كذلك يوماً أو بعض يوم .

(١) الورق : الدراهم المخرورية ، والورق : يكسر الراء : الفضة ، [نسان العرب - مادة :
ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدل على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيئاً لقدرُوا الزمن المناسب لهذا الشيء .

وهذه وقفة المشدود حين يُسأل عن زمن لا يدري مدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ^(١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

لقد حكم على مدة لبثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدا لم يتغير منه شيء ، فكيف يتأتى الصدق من الحق سبحانه في قوله (مائة عام) والصدق في قول العزير بيوم أو بعض يوم ؟

لا شك أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق

(١) سته الطعام يسته : تغير بعد مضي زمن عليه . وتسنه الطعام : تغير . [القاموس القويم ٢٢٢/١] .

القولين : ففي طعام العُزَيْرِ الذي ظلُّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفي حماره الذي رآه عظيماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الله الذي يجمع الشيء وضده في آنٍ واحد .

ثم يقول تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .. (١٩) ﴾ [الكهف] وهو قول الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التي لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا تنتهي فيه إلى شيء ، ونحولهُ للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (٢٠) ﴾ [الكهف]

والورق يعني العملة من الفضة ، فأرادوا أن يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام . لكن نلاحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أطيبه وأطهره ، وابتعده عن الحرام .

وكذلك لم يفتهم أن يكونوا على حذر من قومهم ، فمن سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خلصة ، وأن يتلطف في الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم . ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التي ناموا عليها ، وما زالوا على حذر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسعون للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ (٢٠)

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التي قرأوا بها . فإن يردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَأَيْتُمْ أُخْلِمَ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ (٢١)

في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴾ (٢١) [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فما أنتم ما زلتم على قيد الحياة وفي سعة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النومة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عثر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ﴾ (٢٢) فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا

(١) أمثله على الأمر : أظلمه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴾ (٢١) [الكهف] . أي : جعلنا الناس يظلمون عليهم ويعرفون كهفهم وقصبتهم . [القاموس القويم ٧/٢] .
(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٧٧/٣) .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

﴿٢١﴾ ٨٨٦

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. ﴿٢١﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على مسحة من الدين ، فأرادوا أن يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصح أنهم بمجرد أن عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرَّخ لها ، وأن نتخذ ؛ لذلك جعلوها مثلاً شرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الغبية الذين ضُفُّوا في سبيل عقيدتهم وقُروا بديهم من سعة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى يتصر أهلُه ويدافع عنهم ويُخلد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا .. ﴿٢١﴾﴾ [الكهف] أى : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ^(١) غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ^(٢) عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلق بهم من تفاصيل هي في حقيقتها علم لا ينفع وجهل لا يضر ، فقال تعالى :

(١) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير في تفسيره (٧٨/٢) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والتفوذ » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فانتهاج المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من انتهى عنه ممنوع لا يجوز . وروى المسيحيان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة وأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمِلُوا فِيهِمُ الْإِمْرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلق الحق سبحانه على هذا القول بأنه - (رجماً بالغيب) ؛ لأنه قول بلا علم ، مما يدلنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامتهم كلبهم ، ولم يعلق القرآن على هذا الرأي مما يدل على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتي القول الفصل في هذه المسألة : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .. (٢٢)﴾ [الكهف] فلم يبين لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقي ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث في أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من وراءه ، فالمهم أن يثبت أصل القصة وهو : الفتنة الأشداء في دينهم والذين قرأوا به وضحوها في سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آية وعبرة ومثلاً وقُدوة .

(١) قيل : المراد بهم النصارى ، فإن قوماً منهم حضروا النبي ﷺ من تجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليهودية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامتهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبي في تفسيره (٤١١٢/٥) .

أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [الكهف] أى : لا تجادل فى أمرهم .

ثم يأتى فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا فى اسمه . وهذه كلها أمور ثانوية لا تنفع فى القصة ولا تضر ، ويجب هنا أن نعلم أن القصص القرآنى حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملت إبهام الأشخاص فى قصة أهل الكهف لوجدته عيّن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأى .

ولو حدد زمانهم لقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتحقيق الفائدة المرجوة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف فى الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع فى الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عيّن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ ۝

هكذا (رَجُلٌ مُؤْمِنٌ) دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالهمهم أن الرجولة في الإيمان ، أيًا كان هذا المؤمن في أي زمان ، وفي أي مكان ، وبأي اسم ، وبأي صفة .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ﴾ (١٠) [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالهمهم والمراد من الآية بيان أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبي المرسل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حرية عقديّة مُطلقة .

و كذلك في قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ﴾ (١١) [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هي ، ولم يُشخصها ؛ لأن تعيينها لا يُقدِّم ولا يؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذي ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أن يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصي قلبي ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وما هي امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿ رَبِّ أَنِّي لِي عَبْدُكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) [التحريم]

أما في قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ .. ﴾ (١٢) [التحريم] فشخصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذي ستتعرض له حَدَثٌ فريد وشيء خاص بها لن يتكرر في غيرها ؛ لذلك عيّنها الله وعرفها ، أما الأمر العام الذي يتكرر ، فمن الحكمة أن يظلَّ مُبهمًا غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما في قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣)

وتتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبيب محمد ﷺ فلم يرد سبحانه وتعالى أن يصدد رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف ، ثم في النهاية ذكره بهذه المخالفة في أسلوب وعظ رقيق : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ [الكهف]

وقد سبق أن ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غدا ولم يقل : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعقاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفت نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٤) [التوبة]

فقدّم العفو أولاً وقرّره : لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عوناً أو مساعدة ، وقد سبق أن أساء إليك ، فمن اللياقة ألاّ تصدّقه بأمر الإساءة ، وتذكره به أولاً ، بل اقض له حاجته ، ثم ذكره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشِيدًا ۚ﴾ (٢٥)

أى : على قَرَضِ أنك نسيت المشيئة ساعة البدء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الامر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف] أى : يهدينى ويعيننى ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذكره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبدأ عملاً إلا بقول : إن شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ
وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴾

وهذه الآية تعطينا لقطة من المذكرات التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدد عدد السنين التى قضاهم الفتية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلى بحساب الشمس .

لذلك : فالحق سبحانه لم يقل ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشرقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذي يظهر هلالاً في أول كل شهر ،
وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. ﴾ (٢٦) [التوبة]

فلو حسبت الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة
سنة وتسعاً ، إذن : هي في حسابكم الشمسي ثلاثمائة سنة ، وفي
حسابنا القمري ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن
الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً في كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيعات في الإسلام
بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت
الشمسي في طقس واحد لا يتغير ، فإن جاء الحج في الشتاء يظل
هكذا في كل عام ، وكم في هذا من مشقة على من لا يناسبهم الحج
في فصل الشتاء . والامر كذلك في الصيام .

أما في التوقيت القمري فإن هذه العبادات تدور بمدار السعام ،
فتأتي هذه العبادات مرة في الصيف ، ومرة في الخريف ، ومرة في
الشتاء ، ومرة في الربيع ، فيؤدي كل إنسان هذه العبادة في الوقت
الذي يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمعامل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من
الآيات والعجائب ، فلو تتبعنا مثلاً الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة
لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من
ملك الله تعالى ، وفي الوقت الذي تنادي فيه « الله أكبر » يُنادي آخر
« أشهد ألا إله إلا الله » وينادي آخر « أشهد أن محمداً رسول الله »
وهكذا دواليك في منظومة لا تتوقف .

وكذلك في الصلاة ، ففي الوقت الذي تصلي أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلُّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلُّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله في لحظة من اللحظات من قائم أو راكم أو ساجد ، إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة في كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلِّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦)

الاسلوب في قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴾ (٢٦) [الكهف] أسلوب تعجب أي : ما أشدَّ بصره ، وما أشدَّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكل شيء بلا قانون^(١) .

وقوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) [الكهف] كان الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حق لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد لا شريك له يمكن أن يُغيَّر كلامه .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤١١٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أي : برحيه وأرشده هناك وحجيك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لتبیه محمد ﷺ :

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧)

أى بعد هذه الأسطة التى سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها
فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلى عنك ولا يتركك
لكيدهم ، فإن أرادوا أن يصنعوا لك مازقاً أخرجك الله منه ، وإياك أن
تظن أن العقبات التى يقيمها خصومك ستؤثر فى أمر دعوتك .

وإن أبطأت نُصرة الله لك فاعلم أن الله يريد أن يُحصن جنود
الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى
ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمر
بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا من هو
مأمون على حمل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ..﴾ (٢٧) [الكهف] لأن كلمات الله
لا يستطيع أحد أن يبدلها إلا أن يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام
هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى
لا يبدل ولا يغير ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) [الكهف] أى : ملجأ
تذهب إليه ؛ لأن حسبك الله وهو نعم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

[العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

نزلت هذه الآية في : أهل الصفة^(١) ، وهم جماعة من أهل الله
انقطعوا للعبادة فتناولتهم السنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا
لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون بكمالي الناس ؟ بل وذهبوا إلى
رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وإن تترك هؤلاء
المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ ..﴾ (٢٨) [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نسميهم المجاذيب الذين
انقطعوا لعبادة الله أن لا نحقرهم ، ولا نُقلل من شأنهم أو نتهمهم ؛
لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ
عبيدة بن حصن والأقرع بن حابس وذكروهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست في
صدر المجلس ونهيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يهتدون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ،
وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرنا جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا منك ،
فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَنْتَ مَا أَرْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ بِكَ لَا مَبْدَأَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا
(٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..﴾ (٢٨) [الكهف] . حتى
بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا ..﴾ (٢٩) [الكهف] . يتهودهم بالنار . فقام النبي ﷺ يلتصقهم
حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذي لم يستنى حتى
أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمي . معكم السحيا ومعكم الممات ، أخرجه الواحدى
التيسابورى في « أسباب النزول » ص ١٧١ . وكذا الفرطى في تفسيره (٤١٢١/٥) .

الدنيا الذي انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْيَاه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إن أصابه مكروه أو نزلت به نازلة يُهرَّع إلى هذا الشيخ يُقْبِل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجانِب ليرد بهم جماع أهل الدنيا المنهمكين في دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا في خِدْمَةِ هؤلاء العباد ، ففي يوم من الأيام قُمْنَا لصلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخْرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهاً ، فأتى العامل بالمبلغ في صورة جنيهاً من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بدُّ من جنيهاً من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت في نفسي : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد في مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ۖ ..﴾ (٢٨) [الكهف] أي : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدَدَ النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف] لأنك إن فعلت ذلك وانصرفت عنهم ، فكانت تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بإلزامة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقْوِي هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دِينَهُمْ وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قَلَّة ، فى كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أَسْوَةً تُذَكِّرُ الناس وتكبح جماح تطلعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدعى حال هؤلاء ، ويؤمِّم الناس أنه مجذوب ، وأنه وكى نصيباً واحتيالاً ، والشئ لا يدعى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدعى الطب أو يدعى العلم لما رأى من مميزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المعجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءت إليهم تدق أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتهما ، فضلاً عما لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا - إذن - لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا يتعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدعية التى استمرأت حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. ﴾ (٧٨) [الكهف] لأنه لا يأمر بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَنْ اطمأن قلبه إلى ذكرنا وذائق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبي ﷺ الموقف من الدنيا في قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خَدَمَنِي فَأَخْدَمِيه ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَعْدِيهِ... »^(١) فالدنيا بأهلها في خدمة المؤمن الذي يعمر الإيمان قلبه ، وليس في بآله إلا الله في كل ما يأتي أو يَدْعُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. ﴾ (٧٨) [الكهف] أي : أن هذا الذي يَحْرُضُكَ على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه قلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به »^(٢) .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كَانَ هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١) [المؤمنون]

(١) أورده الشوكاني في « الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٢٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود ، وفي إسناده : الحسين بن داود البجلي » . والحديث موضوع . « قال الكناي في « تنزيه الشريعة » (٢٠٢/٢) : « تعقب بأن له شاهداً من حديث النعمان بن بشير ، أخرجه البيهقي في الشعب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل » قال الخطيب في تاريخ بغداد (٤٤/٨) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب المنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦) وضعفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۖ ﴾ (٢٨) [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكانه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۖ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ^(١) وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ۚ ﴾ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : قل الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يقل من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٨٧) [الزخرف]

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٢٥) [لقمان]

فمعنى : ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم ورباكم وتعهدكم هو الذى نزل لكم هذا الحق و ﴿ رَبِّكُمْ ۖ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : ليس ربي وحدي ، بل ربكم ورب الناس جميعاً .

(١) السرادق : الشيعة وكل ما أحاط بالشيء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فكلما أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [المقاسوس القويم ٢٠٩/١] .

(٢) قال ابن عباس : المهمل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القبيح والدم . وقال الضحاک : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورماس وثعاس ، فتموج بالفلين ، فذلك المهمل . [تفسير القرطبي ١١٢٤/٥] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مدعى الاعمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعرض من الدنيا ، فيفتنون الناس بتحليل ما حرّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والذين وإن كان فطرياً في النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخَفِّفُ عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويصدقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّبُ نفسه أنه على دين يريعه ، ويفعل في ظله ما يريد .

إذن : ما دُئِمَ مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول في المثل : (إلى يأكل لقمتي يسمع كلمتي) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قل لهم : لا جبر في الإيمان ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء في الحديث القدسي^(١) : « إنكم لن تملكوا نفسي فتتفعوني ، ولن تملكوا ضري فتضروني ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحبيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحبيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كل مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يقرن إبرة إذا

(١) أخرجه الترمذي في سننه وشعوه (٢٤٩٥) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٥ ، ١٧٧) من حديث أبي زر رضي الله عنه .

غمسها أحدكم في بحر ، وذلك أني جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له كُنْ فيكون .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. ﴾ (٤٦) [فصلت] لكني أحب لخلقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأننا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴾ (٢٨) [الكهف] .

وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وفدًا ، قالوا : يا محمد إننا بعثنا إليك لتُعذَرَ فبك ، لقد أدخلت على قومك ما لم يُدْخَلْه أحد قبلك ، شتمت آلهتنا وسفّهت أحلامنا وسببت ديننا ، فإن كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا . وإن كنت تريد جاهاً سودناك علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ، ولكن ربي أرسلنى بالحق إليكم ، فإن أنتم أطعتم فيها ، وإلا فإن الله ناصرى عليكم » ^(١) .

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٥/١ - ٢٩٧) ، أنه قد اجتمع ١٥ من كبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محمد ﷺ ليكلموه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع من الجن ، فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه حطى أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سرّاً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيَتَهُمْ قالوا : نترسل إليك بمن يحب ، فربما خجل أن يقبل منا ونحن خصومه ، فلترسل إليه من يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب ، فلما كلمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله ، أؤاخذك دونه »^(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتوه من ناحية ثالثة ، فقالوا : تنتهي إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دعك من هؤلاء الفقراء ، واصرف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ .. ﴾ (٢٨) [الكهف]

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذي أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أنزل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أرسل ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأن يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] لأن بعثني بالحق رسولا إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإن كنتم تريدون

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبي طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له : فأبى علي وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخي ، قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

توجيهي حسب أهوائكم فقد انقلبت المسألة ، ودعوتكم لي أن أنصرف
عن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي وأتوجه إليكم ، فهذا
دليل على عدم صدق إيمانكم ، وأنكم لستم جادين في اتباعي ؛ لذلك
فلا حاجة بي إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]
أي : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حق ينزل من الله ،
لا أن أخذ الحق منكم ، ثم أردته إليكم ، بل الحق الذي أرسلني الله به
إليكم ، وعلى هذا مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .

والامر في هذه الآية سبق أن أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً
بغير مطلوب فلنلزمهم أن الأمر استعمل في غير موضعه ، كما يقول
الوالد لولده الممهل : العيب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب
بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا في : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]
والا لو أخذت الآية على إطلاقها لكان مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿ فَمَنْ
شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] والعاصي أيضاً مطيع للأمر : ﴿ وَمَنْ شَاءَ
فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف] فكلاهما - إذن - مطيع ، فكيف تُعذَّب واحد
دون الآخر ؟

فالامر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أي :
سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار في هذه المسألة ؛ لأن
الإيمان حصيلة بائدة إليكم ، فإله سبحانه غني عنكم وعن إيمانكم ،
وكذلك خلق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء
الله عنكم مستحوب على استغناء الرسول ، وسرف ينتصر محمد
وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة في مكة ويجهر بها في أنثى صناديد الكفر وعُتاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانة وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأت نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقليل ؛ إنهم أَلْفُوا النصر وأَلْفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصبوا لواحد منهم لیسودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۖ ﴾ (٢٩)

[الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهَوَّل الآية وتُفخَّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتقظيحه والإنذار به لا ليوقع الناس في موجبات العقاب ، بل لينتبهوا عن الجريمة ؛ وينأوا عن أسبابها ، إذن : فتقظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْفَ العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أَعْتَدْنَا) أى : أَعَدَدْنَا ، فالمسألة منتهية مُسَبِّقًا ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعَدَّة ومُجَهَّزَة ، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل ، وقد أَعَدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأَعَدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخلق إن آمنوا ، وأَعَدَّ النار لتتسع لكل الخلق إن كفروا ، فإن آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذى آمن وقَرَّ مكانه فى النار ، والذى كفر وقَرَّ مكانه فى الجنة .

لذلك قال تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٢)

[الزخرف]

إذن : فخلّق الله تعالى للجنة والنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكل مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿لِلظَّالِمِينَ ۖ (٢٩)﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإضرار بالله ، لأنك تأخذ حقّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قدر ظلمه ، إلا أن يكون مشركاً ، فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتر عنه ، فإن ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعَذَّب به ، ثم يُدْخِلُهُ الله الجنة ، إن لم يشب ، وإن لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۖ (٣٠)﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة ، ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكان الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خال من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خال من النار قد توحى إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أن يؤيسهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صرخة ألم من متالم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ۖ (٣٢)﴾ [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذهن أنهم يُغَاثُونَ بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ .. لَا ﴿يُقَاتِلُوا بِمَاءِ كَالْمُهْلِ ..﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَيْ : فَإِنْ طَلَبُوا الْقَوْتُ بِمَاءٍ بَارِدٍ يَخَفِّفُ عَنْهُمْ أَلَمَ النَّارِ ، فَإِذَا بِهِمْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .

وَالْمُهْلُ هُوَ عُكَّارَةُ الزَّيْتِ الْمَغْلَى الَّتِي يَسْمُونَهُ الدُّرْدِيُّ ، أَوْ هُوَ الْمَذَابُ مِنَ الْمَعَادِنِ كَالرَّصَاصِ وَنَحْوِهِ ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى حَرَارَةٍ أَعْلَى مِنْ غَلَى الْمَاءِ ، وَهَكَذَا يَزْدَادُونَ حَرَارَةً فَوْقَ حَرَارَةِ النَّارِ ، وَيُعَذِّبُونَ مَنْ حَيْثُ يَنْتَظِرُونَ الرَّحْمَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا : (يُقَاتِلُوا) اسْلُوبٌ تَهْكِمِي ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ فِي الْأَسَالِيبِ اللَّغَوِيَّةِ أَنْ تَخَاطِبَ الْمُخَاطَبَ عَلَى مَقْتَضَى حَالِهِ ، فَتَهْنِئَهُ حَالِ فَرَحِهِ ، وَتُعْزِيهِ حَالِ حُزْنِهِ بِكَلَامٍ مُوَافِقٍ لِمَقْتَضَى الْحَالِ ، فَإِنْ أُخْرِجَتْ الْمَقْتَضَى عَنْ الْحَالِ الَّتِي يَطْلُبُ ، فَهَذَا يَنَافِي الْبَلَاغَةَ إِلَّا إِنْ أُرِدَتْ التَّهْكُمُ أَوْ الْأَسْتَهْزَاءُ .

إِذَنْ : فَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْكَافَرِ : ﴿وَأِنْ يَسْتَفِيتُوا يُقَاتِلُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ..﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] تَهْكِمُ بِهِمْ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ خَرَجَ عَنْ مَقْتَضَى الْحَالِ ، كَمَا يَقُولُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ الَّذِي أَخْفَقَ فِي الْإِمْتِحَانِ : مَبَارَكٌ عَلَيْكَ السَّقُوطُ .

وَمَعْنَى : ﴿يَشْرَبُ الْوُجُوهَ ..﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَنَّ الْمَاءَ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ يَشْوِي وَجُوهَهُمْ ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ أَجْوَافَهُمْ : ﴿يَشْرَبُ الشَّرَابُ ..﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] أَيْ : الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩) ﴿[الكهف] الْمُرْتَفَقُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَضَعُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِرْفَقَهُ لِيَجْلِسَ مُسْتَرِيحًا ، لَكِنْ بِإِلَهِ هَلْ هُنَاكَ رَاحَةٌ فِي جَهَنَّمَ ؟

إِذَنْ : فَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ التَّهْكِمِ بِهِمْ وَتَبْكِيَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزتها وأصحاب العظمة فيها ممن عصوا الله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩) [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم في هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة (النُّزْلُ) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (١٠٧) [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ (٣١) نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٢) [فصلت]

فالذي أعَدُّ هذا النُّزْلُ وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذي يُعد نُزُلًا لضييفه يُعده على قَدَرِ غِنَاهُ وبَسْطَةِ كَرَمِهِ ، فما بالك بنزل أعده الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيل الآية بقوله : ﴿ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٢) [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو هم بها ، وكان الحق سبحانه يقول : إياك أن تذكر ما كان منك وأنت في هذا النُّزْلِ الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزْلِ هنا في الجنة ، فهي محل الإكرام والضيافة ، فإن استخدم في النار فهو للتهكم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ (٩٢) فَنُزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ (٩٣) [الراعدة] فقد استخدم النُّزْلُ في غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ..﴾ (٢٩) [الكهف] أراد سبحانه أن يُبين حكم كل من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللف والنشر^(١) ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورد أحكامها حسب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مشوشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللف والنشر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٧٣) [الفصل] أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي

هذه أربع مخبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي رَاضٍ وَبَاكِ شَاكِرٌ وَغَفُورٌ

فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ،

وخالقي غفور .

ومرة ، يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقة بأن : نبأه السامع سترد كل شيء إلى أصله^(٢) كما في الآية التي نحن

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئين أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يأتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفرض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتيان في علوم القرآن ٢/٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْعِثُ جُودَةً وَنَسُودُ وَجُودَةً فَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَرَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْثَرُهُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَادْرَأُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٤٥) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٦) [آل عمران] .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٨٨٨٩

بصددھا ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ۞ (٣٠) ﴾ [الكهف] وليكن في الاعتبار أن المعتكف رب حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجح أن يكون الإيمان أولاً وأن يسبق الكفر ، أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أن « ذرّة المفسدة مُقدّم على جلب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ۞ (٣٠) ﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي يتبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أن تُوثق الأمر أو النهي إلى الله الذي أمنت به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملُ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا يدُّ لكثير من المتاعب والمشاق التي تحتاج إلى التواصي بالصبر والتواصي بالحق ، ولنا أسوة في هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحملوا عبء الدعوة وصبروا على الأذى في سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ؛ لذلك لم يقل سبحانه : إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ الْإِيمَانَ ؛ لأن العامل الذي يُحسِّن العمل قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقه ، بل يعطيه حظه من الجزاء في الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن في علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجل له في الدنيا وتنتهي المسألة حيث لا حظ له في الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ مَبَاءً مُّثَوْرًا ۖ ﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ^(١) عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۖ ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَرَفَاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴾ [النور]

(١) العاجلة : الدنيا . والأجلة : الآخرة [لسان العرب - مادة : هجل] .

فهؤلاء قد استوفوا أجرهم ، وأخذوا حظهم في الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِدَتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتي في الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجيء بوجود إله لم يكن يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره ممن عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية والمجتمع وللشهرة ، وقد نالوا هذا كله في الدنيا ، ولم يبقَ لهم شيء في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ حَزْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ ^(١) وَاسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مَرْفَقًا ۖ

(أُولَٰئِكَ) أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. (٢١)﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة في الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعى : فهو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدّها الله تعالى لثواب المؤمنين في الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهو المكان الذى فيه زرع وثمار وأشجار تُرارى من سار فيها وتستريح ؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجنة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدثنا عن شيء غيبى يُحدثنا بما يوجد في لغتنا من ألفاظ ، واللغة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

(١) السندس : وقيل النيباج . وهو الحرير الذى يتكون ألواناً . [القاموس القويم ٢٣١/١] .
والاستبرق : النيباج الفليظ وهو من الحرير الطيبى ، ويصلح للثياب لأنه مدفره والملابس الخارجية . [القاموس القويم ١٨/١] .

ثم يُوَجِّدُ اللفظ الدالَّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنَّ نُطْقَ اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التي يُحَدِّثُنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

إذن : فمن أين نأتى بالالفاظ الدالة على هذه المعاني ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعَبِّرُ عنها الحق سبحانه بالشبيه لها في لغتنا . لكن يعطيها الوصف الذي يُمَيِّزُها عن جنة الدنيا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. ﴾ (١٥) [محمد]

ونحن نعرف التهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. ﴾ (١٥) [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربيها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تفتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاه اسم الخمر لنعرفها مِيْزَها بأنها لذة ، وخمر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التي سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فيها ما لا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول - صفحة ٦٩ - ٨٥ .

عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذى رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذى رأيته والذى رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسّع دائرة ما فى الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. ﴾ (١٥) [محمد]

ونحن نعرف العسل فميزه هنا بأنه مُصَفًّى . ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلق به الحصى والرمل ؛ لذلك ميّز عسل الجنة بأنه مُصَفًّى .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿ سِدْرٌ مَخْضُودٍ ﴾ (٢٨) [الواقعة] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سدر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه ، ولا يذمى يدك كسدر الدنيا .

وهنا ميّز الله الجنة فى الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴾ (٢١) [الكهف] أى : إقامة دائمة لا تنتهى ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهبّ أن واحداً يتمتع فى الدنيا بالدور والقصور فى الحدائق والبساتين التى هى جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عظّم نعيمها ، إما أن تفوتك ، وإما أن تفوتها .

والعدن اسم للجنة ، فهناك فرق بين المسكن والمسكن فى الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن فى الجنة له مسكن خاص فى جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٢) [محمد] ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠) [التوبة]

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففي قوله : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنع أحد عنك أن يَسُدَّهُ دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجري (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنع أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المباني عليها ، حُدَّ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الرياح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوَجَدَتْ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أن نقيم المساكن الكافية لسُكْنَى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخُضرة والزرع ولِقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتُ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : فى الآية لفتة يمكن أن تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ .. (٢١)﴾
 [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التي يتحلّى بها
 الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن في طموحات الإنسان
 في زخرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمى (بالانسيال)
 وكذلك أساور الذهب في الأجرة زينة وزخرف ، وفي آية أخرى ،
 يقول تعالى : ﴿وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ .. (٢٢)﴾ [الإنسان]
 ومرة أخرى يقول : ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
 وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا خَرِيرٌ (٢٣)﴾ [طاهر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه
 الحلية في الآخرة أنها تبلغ ما يبلغه الوضوء عند المؤمن^(١) .

ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ..
 (٢١)﴾ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء
 الفعل (يُحَلِّوْنَ) أى : حلّاهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم
 بعدها عن الملابس ، وهو من الضروريات قال :

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم
 بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قدم الفضل على
 العمل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ
 لَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٢) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٠) ، والبيهقي في سننه
 (٩٢/١) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه
 حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لي : يا بني قَرُوحُ أَنْتُمْ
 هَامَنَا ، لَرُ عِلَّتْ أَنْكُمْ هَا هُنَا مَا تَوْضَأُ هَذَا الْوَضُوءُ ، سمعت خليلي ﷺ يقول : « تبلغ
 حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

أى : إياك أن تقول هذا بعملى ، بل بفضل الله وبرحمته ؛ لذلك نرى الرسول ﷺ يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » (١) .

ذلك لأنك لو نظرت إلى عملك لو جدته بعد تكليفك الذى كلفت به فى سن البلوغ ، وقد عشت طوال هذه العدة ترتع فى نعم الله ورزقه دون أن يكلفك بشيء ؛ لذلك مهما قدمت لله تعالى من طاعات ، فلن تقى بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذت حقك سابقاً ومقدماً فى الدنيا ، لكن قسم هنا فقال : ﴿ يَلْبِسُونَ .. ﴾ (٢٦) [الكهف] أى : بما عملوا ، أما فى الزينة والتحلية فقال : (يُحَلِّوْنَ) كالرجل الذى يُجهِّز أهنته للزواج ، فيأتى لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزخرف الحياة من تجف أو سجاد أو خلافة .

واللباس من ضروريات الحياة التى امتنَّ الله بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا .. ﴾ (٢٦) [الأعراف] والريش : هو الكماليات التى يتخذها الناس للفخفة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات ، والسُّدُس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

(١) حديث مطلق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) . ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس.. وهي كلمات فارسية الاصل ، أو كلمة (آمين) التي نتخذها شعاراً في الصلاة وأصلها يمني أو حبشي . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الالفاظ ، وهو قرآن عربي ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الالفاظ في لغة العرب ساعة نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت الفاظاً عربية دارت على الألسنة ، وجرت مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التي دخلت العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخف في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرها مجمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبل لو أن القرآن جاء بهذه الالفاظ مجيئاً أولاً ، وأدخلها في اللغة ولم تكن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الالفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جزءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ .. ﴾ (٣١) [الكهف] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يريحه ، والأرائك : هي السُرر التي لها حلية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نَعَمْ الْقَوَابُ .. ﴾ (٣١) [الكهف] كلام منطقي : ﴿ وَحَسِّنْتَ تَرْفَعًا ﴾ (٣١) [الكهف] أي : أن هذا هو مقتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَاءَتْ تَرْفَعًا ﴾ (٣١) [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّنْ رِّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَّفْنَاهُمَا بِتَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَوْعًا ۝٣٢﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسمين : قسم متكبر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاه له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراد آياته استطراداً يشمل الجميع ، ويسوّى بينهم .

لذلك : أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً موجوداً في الحياة ، ففي الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، عليك أن تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّنْ رِّجُلَيْنِ ۝٣٢ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بد أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربت بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربت نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) سبب نزول الآية : ورد في نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

- نزلت في أخوين من أهل مكة مغزومين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٢ آلاف دينار ، فانفق أحدهما ماله في سبيل الله ، وطلب أخاه شيئاً فقال ما قال . قاله الكلبي وذكره الثعلبي والقشيري .

- وقيل : هو مثل لميعة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن وأسمه يهوذا . في قول ابن عباس ، وقال مقاتل : اسمه تليخا . والآخر كافر وأسمه قراطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل للقرطبي في تفسيره (٤١٢٩/٥ ، ٤١٣٠) .

وَضُرْبُ الْمِثْلِ يَكُونُ لِإِثَارَةِ الْإِنْتِبَاهِ وَالْإِحْسَاسِ ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ
حَالَةٍ إِلَى أُخْرَى ، كَذَلِكَ الْمَثَلُ : الشَّيْءُ الْغَامِضُ الَّذِي لَا تَفْهَمُهُ
وَلَا تَعِيهِ ، فَيُضْرَبُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَهُ مَثَلًا يُوَضِّحُهُ وَيُنَبِّهُكَ إِلَيْهِ ؛ لِذَلِكَ
قَالَ : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ۖ ﴾ (٢٢) [الكهف]

إِقْدَامُ عَقْرٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاكِ إِيَّاسٍ

وَسَيَّبَهُ الْمَدَاحُ فِي الْبَاسِ وَالْفَنَى بِمَنْ لَوْ رَأَى كَانَ أَصْفَرُ خَادِمٍ

فَقِي جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفًا كَعَثْرَ رَأْسِي خُزَانَ الْفُحَّانِمِ

(١) هو : حبيب بن كوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائله ، تولى عام ٢٢١ هـ من ٢٩ عاماً .

فَالْهَمَهُ اللَّهُ الرُّدُّ عَلَيْهِمْ ، عَلَى نَفْسِ الْوِزْنِ وَنَفْسِ الْقَافِيَةِ ، فَقَالَ :
لَا تُتَكَبَّرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا^(١) فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَلَ لِذَوْرِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ^(٢)
إِذَنْ : فَاَلْمَثَلُ يَأْتِي لِيُنَبِّهَ النَّاسَ ، وَلِيُوضَّحَ الْقَضِيَّةُ غَيْرِ
الْمَفْهُومَةِ ، وَالْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَرَقَهَا .. ﴾ (٢٦) [البقرة]

ثُمَّ يَعْطِينَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَمْثَالًا كَثِيرَةً لِتَوْضِيحِ قَضَايَا مَعِينَةٍ ، كَمَا فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) [العنكبوت]
وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ نَقْضِ الْوَعْدِ وَعَدَمِ الْوَقَاءِ بِهِ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا .. ﴾ (٦٢) [النحل]

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا
حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) [البقرة]

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى مُصَوِّرًا حَالِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ :
﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(٣) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (٤٥) [الكهف]

(١) المثل الشهود : إلخارج من المألوف والعادة ، والندى : السخاء والكرم ، والبأس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج ، والمشكاة : كوة في جدار البيت ليست ينفذة ، وتُعرف في قرأتنا بـ « الحافّة » مع تعلق الحاف ههنا .

(٣) الهشيم : الحطب والخشب المسحط الذي تكسر ، والهشيم : التفت البابس المتكسر . وتهشم الشجر تهشماً إذا تكسر من يسهه - [لسان العرب - مادة : هشم] .

فالمثل يوضح لك الخفى بشيء جلى ، يعرفه كل من سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر^(١) الذى أراد أن يصف لنا الأحذب فيصوره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ^(٢) وَغَاصَ قَدَّالُهُ^(٣) فَكَانَهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يَصِفْعَا
وَكَاثِمًا صَفِيعَتِ قَفَاءٍ مَرَّةً وَأَحْسَنُ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجْمَعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقير إذا رضى بالإيمان .

وقوله : ﴿رَجُلَيْنِ ۖ (٢٢)﴾ [الكهف] أى : هما محل المثل : ﴿جَعَلْنَا
لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٢٣)﴾ [الكهف] .

لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فعلى فى التاريخ^(٤) ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقصراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمعتبى ، رومى الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢٩ هـ وتلقا بها ، ومات فيها مسجوراً عام ٢٨٢ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/١] .

(٢) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القدال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب - مادة : قذال] .

(٤) ذكر الماوردي فيما نقله عنه القرطبي فى تفسيره (٤١٣١/٥) : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس يخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبي : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أن يصدق بنصيبه ، وأن يشتري به أرضاً في الجنة وقصراً في الجنة وفضل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولدائها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك التعمّة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرة جهدك وعملك ، ونتيجة سعيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ ﴾ [القصص] فتركه الله لعلمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ۚ ﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بفناؤه ، ومؤمن قنوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف]

فقد علّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يحمي الهواء والمواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري ، كما ذكر من قبل الاساور من ذهب ، وهي للزينة قبل الثياب ، وهي من الضروريّات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ ۚ ﴾ [الكهف] تراها إلى الآن فيمن يريد أن

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أن يضرب لنا المثل في مضاعفة
الاجر ، قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ
سَعْيَ سَابِلٍ فِي كُلِّ سَبَّةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ۖ ﴾ (٢٦١) [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق
الأرض ؟ لا شك أن عطائه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَاللَّهُ
يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١) [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أن تعطيك على قدر
تعبك وكذلك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر
لك هذا المجهود ، والنبي ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشقت يداه
من العمل قال : « هذه يَدَّ يحبها الله ورسوله »^(١) .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قدر حاجتها ، بل
على أكثر من حاجتها ، عملت لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كلُّ عامل
على قدر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أن يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي
العاجزين عن العمل ، وهبُ أنك لن تتصدق بشيء للمحتاج ، لكنك
ستبيع الفائض عنك ، وهذا في حدِّ ذاته نوعٌ من التيسير على الناس
والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تُجزِّل لك العطاء

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالأ
من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال الهيثمي في المجمع (٦٢/٤) : « رواه الطبراني في
الأوسط وفيه جماعة لم أهرقهم » وعزاه السيوطي في الدرر المنتثرة (من ٢٨٨) لابن
صباكر ، وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

إِنْ بَرَرْتَ بِهَا ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإن كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألا تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرمتموها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أمنا على وجه التشبيه ، بل هي أمنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تسحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إن مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ مُحِب وكل قريب ، في حين تحتضنه الأرض ، وتمتص كل ما فيه ، وتستتره في يوم هو أحوج ما يكون إلى السُّتُر .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٢] ذلك لأن الماء هو أصل الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

أى : لم يقتصر الأمر على أن كان له جنتان فيهما النخيل والاعناب والزروع الذى يُؤتى أكله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أى : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة آية ، وسرف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاوراة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٤) [الكهف]

دليل على أن ما تقدم ذكره من أمر الجنتين وما فيهما من نعم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول (لِصَاحِبِهِ) ، والصاحب هو : مَنْ يَصَاحِبُكَ ولو لم تكن تحبه (يُحَاوِرُهُ) أى : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا .. ﴾ (٣٤) [الكهف] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٤) [الكهف] داخلة فى قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ (٣٤) [الكهف] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ

مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٥)

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] ؟ نقول : لأن الإنسان إن كان له جنتان فلن يدخلهما معاً فى وقت واحد ، بل حال دخوله سوف يواجه جنة واحدة ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يرخى لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتتهات أخرى ، ويقوّت عليها ما هو أبغى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه : لأن النفس لها جانبان : نفس تشتهى ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة - إذن - جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، فإن قلت : كيف وأنا ونفسي شيء واحد ؟ لو تأملت لو وجدت أنك ساعة تحدث نفسك بشيء ثم تكوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحرارية شهوانية ، فإن مالت النفس الشهوانية أو انحرقت قومتها النفس الفطرية وعدلت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عمّت المعصية في الناس ، ولم يعد هناك من ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولا يرشدهم ويذكّرهم ، إلا في أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حملهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم من يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكانه سبحانه يطمئنا إلى أن الفساد لن يعم ، فإن وجد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساس يقوم عليه المجتمع الإسلامي .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف]

فهو معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنته يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حدث نفسه به حال دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالفنن ، والقرور بالنعمة ، فقال : ما أظن أن تبعد هذه النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا فقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإن قبِلَتْ منه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبْدَ هُنَا أَبَدًا ﴾ ﴿٣٥﴾ [الكهف] فلا يُقبل منه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴾ ﴿٣٦﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة هَزَّتْهُ الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴾ ﴿٣٦﴾ [الكهف] أى : على كل حال إن رُودْتُ إلى ربى فى القيامة ، فسوف يكون لى أكثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعد له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قول هذا الجاحد المستعلى بنعمة الله عليه المفتون بها : ﴿ وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴾ ﴿٣٦﴾ [الكهف] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإن كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً ، لا تُناقض نفسك ، فما حدث منك من استعلاء وغرور وشك فى قيام الساعة يتناقض وقولك (ربى) ولا يناسبه .

و (منقلباً) أى : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ

تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد . [القاموس القويم ٢٧١/٢] .
والنطفة : أنثى من الماء . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : نطف] : • • وبه سُمِّيَ المني نطفة للثقل .

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمنُ مُحاوراً ومُجادلاً ليُجِلِّيَ له وَجْهَ الصوابِ : ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ۖ ﴾ [الكهف] (٢٧) أى : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذى هو أصلُ خَلْقِكَ ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ۖ ﴾ [الكهف] (٢٧) وهى أصلُ التناسل ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ [الكهف] (٢٧) أى : كاملاً مُستَوياً (ملو هدومك) .

و ﴿ سَوَّاهُ ۖ ﴾ [الكهف] (٢٧) التسمية: هى إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته فى الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّوَّى مستقيم ، والخطاف فى نهايته أعوج ، والاعوجاج فى الخطاف هو عَيْنُ استقامته واستواء مهمته : لأن مهمته أن يُخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة فى ﴿ أَكْفَرْتَ ۖ ﴾ [الكهف] (٢٧) ليست للاستفهام ، بل هى استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْرٍ ونسيانٍ لحقيقة أمره وبداية خَلْقِهِ .

والتراب هو أصلُ الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقِهِ : لأن الله تعالى ذكر فى خلق الإنسان مرة (من ماء) ^(١) ومرة (من تراب) ^(٢) ومرة (من حمأ مسنون) ^(٣) ومرة (من صلصال كالفخار) ^(٤) .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة فى خلق الإنسان ، والحقيقة أنها شىء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإن أضيفَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطت العين بعضه ببعض

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة] .
 (٢) ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ خَلَقَ مِن تَرَابٍ ﴾ [ال عمران] .
 وقوله : ﴿ وَمِنْ آمَنِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ۖ ﴾ [الروم] .
 (٣) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [المجد] .
 (٤) يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن] .

صار حملاً^(١) مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صكّصلاً ، إذن : فهي مرحليات لشيء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨)

قوله : ﴿لَكِنَّا ..﴾ (٢٨) [الكهف] أى : لكن أنا ، فصذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون - ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لست مثلك فيما تذهب إليه ، فإن كنت قد كفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً ، فإنا لم أكفر بمنّ خلقنى ، فقولى واعتقادى الذى أؤمن به : ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي ..﴾ (٢٨) [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يقل : الله ربى ، إنما جاءت ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرق كبير بين القولين : لأن الربّ هو الخالق المتولّى للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف ؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول : ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨) [الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أياّن لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أن يُعدّى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أن أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يعلم

(١) الحملا والحملة : الطين الأسود ، والمستون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مَصْرُور بصورة إنسان أو طين كاللخار صالح للتصوير والصفل ، [القاموس القويم ٢٢١/١] .

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدي الكافر ؛ لأن المؤمن صُحَّح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصَحَّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أن تدعو على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وما هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

﴿ إِنَّ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٣٩)

يريد أن يعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأن يرد النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التي يتقلب فيها الإنسان لا فضلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحقائق والبساتين كيف أتت أكلها ؟ إنها الأرض التي خلقها الله لك ، وعندما حرثتها حرثتها ياك من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دخل لك فيه ، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلب منك في أي وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيء .

إذن : حينما تنظر إلى كل هذه المسائل تجدها منتهية إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خذُ هذا المقعد الذي تجلس عليه مستريحاً وهو في غاية الأناقة وإبداع الصُّنعة ، من أين أتى الصُّنَّاع بمادته ؟ لو تشبعت هذا لوجدته

قطعة خشب من إحدى الغابات ، ولو سألت الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتك : من الله .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلست بجوارها تنميتها وتشدها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوسعك أن تُطوعها لهذا العمل لولا أن سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك : كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حُلّت أيُّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويؤثر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفة أو تحل به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدما : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُفْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا^(١) مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَمَسُّونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القصم]

(١) ليصرمها : أي : حلفوا فيما بينهم ليحذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتفرغ ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء . [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٦] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (٦٨) أَأَنْتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ [الواقعة]

هذا الماء الذي تشربونه عذباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل ؟
هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو ؟ وكيف ينعقد
سحاباً تسوقه الرياح ؟ هل دريتم بهذه العملية ؟ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أُجْحَاً ۖ ﴾ (٧٠) [الواقعة]

أى : ملحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتن الله على عبده بأى نعمة يذكرهم بما يتلقونها ، لهنى من ميسر س
ليست من سألهم ، وعليهم أن يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم
ولا تزول ، وإلا فليحافظوا عليها هم إن كانت من صنع أيديهم !

وكذلك في مسألة خلق الإنسان يوضح سبحانه وتعالى أنه
يمنح الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ (٥٨)
أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَادِرُونَ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمُسْبِقِينَ ﴿٦٠﴾ [الواقعة]

فإن كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت ،
فذكر سبحانه النعمة في الخلق ، وما ينقض النعمة في أصل الخلق .

أما في خلق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى :
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ [الواقعة]

(١) أورى القاذح زنده : أخرج منه النار ، [القاموس الترويم ٢٢٢/٢] . قال ابن كثير في
تفسيره (٢٩٦/٤) : « أى : قدحون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها » .

فذكر سبحانه قدرته في خلق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقل : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خلق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخلق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخلق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا في النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريد بها مشتعلة مضطربة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ (٧٣) [الواقعة]

كما نقف في هذه الآيات على ملمح من سلامح الإعجاز ودقة الأداء القرآني ؛ لأن المتكلم رباً يتحدث عن كل شيء بما يناسبه ، ففي الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرث والبذر والسقي وغيره - تراه يؤكد الفعل الذي ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً .. ﴾ (٦٥) [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما في الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل في تكوينه - فلا حاجة إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً .. ﴾ (٧٠) [الواقعة] دون تأكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً في هذا الماء الذي ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذي ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلمه كيف

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك - يعني بالمقوين المساكين ، واختاره ابن جرير - وقال : ومنه قولهم : ألوت النار إذا رحل أهلها - وقال مجاهد : يعني المستعنين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٧/٤) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غنى وفقر ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاح والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (٣٩) [الكهف] (لَوْلَا) بمعنى : هلاً وهى للحث والتحريض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه فى مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه فى المرأة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفى الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت »^(١) .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألا تُلهيك النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أى : أن هذا كله ليس بقوتى وحيلتى ، بل فضل من الله فتزد النعمة إلى خالقها ومُسدِّها ، وما دُمْتَ قد رددت النعمة إلى خالقها فقد استأمنتها عليها واستحفظته إياها ، وضمنت بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق - رضى الله عنه - كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعترِبها من تقلُّبات تعكر عليها صفو الحياة من خوف أو قلق أو هم أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضى الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول فى الخوف : « عَجِبْتُ لِمَنْ خَافَ وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿حَسْبَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٢) [آل عمران] قِرَائِي سَمِعْتُ اللَّهَ بِعَقْبِهَا يَقُولُ : ﴿فَانْقَلَبُوا^(٢) نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلًا لِّمَنْ يَشَاءُ سِوَهُ (١٧١) ﴾ [آل عمران]

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فى أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/١٤٠) وقال : « رواه الطبرانى فى المعجم والأوسط ولله عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : وجعوا . قال ابن منظور فى اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقاً » . [لسان العرب - مادة : قلب] .

وعجبت لمن اغتم - لأن الغم انسداد القلب وبلبلة خاطر من شيء لا يعرف سببه - وعجبت لمن اغتم ولم يفرع إلى قول الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء] قرأني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ..﴾ (٨٨) [الأنبياء] ليس هذا فقط ، بل : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الأنبياء] وكانها (وصيفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبي الله يونس عليه السلام .

فقول المؤمن الذي أصابه الغم : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ..﴾ (٨٧) [الأنبياء] أي : لا مفرج لي سواك ، ولا ملجأ لي غيرك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ..﴾ (٨٧) [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصير ، فعل ما وقعت فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسي هو سبب هذا الغم الذي أعانيه .

وعجبت لمن مكر به ، كيف لا يفرع إلى قول الله تعالى : ﴿وَأَقْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ..﴾ (٤٤) [غافر] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا ..﴾ (٤٥) [غافر] قاله تبارك وتعالى هو الذي سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٥٤) [آل عمران]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها - صاحب الطموحات في الدنيا المتطلع إلى زخرفها - كيف لا يفرع إلى قول الله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٣٩) [الكهف] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ..﴾ (٤٠) [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حفظت وتمت ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذي لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذي يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير في الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيبين لصاحبه ما غيره به من أنه فقير وهو غني ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَا لَأَوْلَدًا ﴾ [الكهف]

ثم ذكره بأن الله تعالى قادر على أن يبدل هذا الحال ، فقال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ

فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤١﴾

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شك فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قلت عليه : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعتزقت بنعمة الله عليك ورددت الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧ ﴾ [إبراهيم] .

فقلوه : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ۝٤١ ﴾ [الكهف] أي : ينقل مسألة الغنى والفقر ويحولها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرة لك على جلبها من البداية ، إذن : يمكن أن يعطيني ربي نعمة مثل نعمتك ، في حين تظل نعمتك كما هي ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلب نعمتك ويزيلها :

﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ ﴾ [الكهف] هذه النعمة التي تعتز بها وتفخر بزمهرتها وتتعالى بها على خلق الله يمكن أن يرسل الله عليها حُسْبَانًا .

والْحُسْبَان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقة وبحساب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّعَاتِ ۖ وَالْحِسَابَ ۝ ﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة على نظام دقيق لا يختل ، مثل الساعة لا تستطيع أن تعرف بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حُسْبَانًا لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشَأً على حُسْبَان .

وَحَسِب حُسْبَانًا مثل غفر غفرانًا ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التي اغتر بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقَدَّرَةٌ على قَدَر هذه الجنة لا تتعداها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتني كما أصابت غيري .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَصِحَّ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والشمار ، المليئة بالنخيل والاعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحت صَعِيدًا أى : جدياء يعلوها التراب ، ومنه قوله تعالى في التيمم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ۝ ﴾ [النساء] ليس هذا ونفقط ، بل ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ﴾ [الكهف] أى : ترابًا مُبَلَّلًا تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشى عليه .

﴿أَوْ يَصْبِحَ مَاؤُهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١)

(غُورًا) أى : غائراً فى الأرض ، فإن قلت : يمكن أن يكون الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله فى أى حيلة يفكر فيها : ﴿فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١) [الكهف] أى : لن تصل إليه بأى وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٤٢) [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ (٤٣) [الكهف] رجاء لم يحدث بعد ، ولم يصل إلى إيقاعات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْتَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٤)

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكان الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ (٤٤) [الكهف] أحيط : كان جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [برس]

وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ (٤٤) [الكهف] ولم يقل مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله : لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشد ، والثمر هو الغاية والمحصلة النهائية للزرع .

ثم يُصَوِّرُ الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأُسْفَه عليها : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفًّا عَلَى مَا آتَقَى فِيهَا﴾ [الكهف] أى : يضرب كَفًّا بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوثاً لا يدري ما يقول ، فيضرب كَفًّا بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفِيْق من هَوْل هذه المفاجأة ودهشتها .

وَيُقَلِّبُ كَفُّهُ عَلَى أَى شَيْءٍ ؟ يُقَلِّبُ كَفُّهُ نَدَمًا عَلَى مَا آتَقَى فِيهَا ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الكهف] خاوية : أى خربة جرداء جَذْبَاء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دَكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدمت عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ بَلِّغْتِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴾ [الكهف] بعد أن ألجمته الدهشة عن الكلام ، فراح يضرب كَفًّا بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القولى الفورى : ﴿بَلِّغْتِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [١٢]

أى : ليس لديه أعوان وُنُصْرَاء يدفعون عنه هذا الذى حلَّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغي له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (٤٤)

هنالك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقت أن نزلت الصاعقة من السماء ، فأتت على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هنالك تذكر المنعم وتمنى لو لم يشرك بالله ، فقلوه : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكد والكدر .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ جاءت فى القرآن فى الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا - عليه السلام - لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقا : ﴿ قَالَ يَمْرِمُ أَنِّي لَأَكِلُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وكان زكريا - عليه السلام - هو المتكفل بها ، الذى يحضر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعا من الطعام لم يأت بها سألها من أين ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فاطمع هذا القول زكريا فى فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقرا فقال تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ (٢٨) [آل عمران]

و(الولاية) أن يكون لك وكى ينصرك ، قالولى هو الذى يليك ، ويدافع عنك وقت الشدة ، وفى قراءة أخرى ^(١) : (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ) بكسر الواو يعنى الملك ، كما فى قوله : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٦٦) [غافر] وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا .. ﴾ (٤٤) [الكهف] لأنه سيجازى على العمل

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤١٤٢/٥) : « قرأ الأعشى وحمزة والكسائي « الولاية » بكسر الواو ، والباقيون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرخصة والرخصة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالة ، وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق » .

الصالح بشواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ [الكهف]
أي : خير العاقبة بالرزق الطيب في جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنى الكافر ،
والفقير المؤمن ، وبين لنا أن الإنسان يجب ألا تخدعه النعمة ولا يغرّه
النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعم سبحانه دائماً
على بالك ، كي يحافظ لك على نعمتك وإلا لكنت مثل هذا الجاحد الذي
استعلى واعتز بنعمة الله فكانت عاقبته كما رايت .

وهذا مثل في الأمر الجزئي الذي يتعلق بالمكلف الواحد ،
ولو نظرت إليه لوجدته يعم الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصَفَّرٌ لحال الحياة
الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئي إلى المثل العام ،
فقال تعالى :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَالْعَاءِ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١٥)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يوضح المجهول لنا بما علم
لدينا . وأهل البلاغة يقولون : في هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه
سبحانه شبه حال الدنيا في قصرها وسرعة زوالها بالعاء الذي نزل
من السماء ، فارتوت به الأرض ، وأنبست ألواناً من الزروع والثمار ،

(١) تذروه الرياح : تفرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان :

تنهب به وتجره . وقال ابن عباس : تديره . قال القرطبي في تفسيره (٤١٤٢/٥)

والمعنى متقارب . .

ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيمًا مُتَفَتَّتًا تذهب به الريح .

وهذه صورة - كما يقولون - منتزعة من مُتَعَدِّد . أى : أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً ، بل عدَّةُ أشياء ، فإن كان التشبيه مُركَّباً من أشياء متعددة فهو مُثَلٌّ ، وإن كان تشبيه شيء مفرد بشيء مفرد يُسمُّونه مُثَلٌّ . نقول : هذا مُثَلٌّ هذا ، لذلك قال تعالى ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٢٧) ﴾ [النحل] : لأنَّ الله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهرة مُثمرة حلوة نضرة ، ونسجاة لا تجد في يدك منها شيئاً ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيَا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فإي وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيَا .

وكان الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : كما ضربتُ لهم مُثَلَّ الرِّبَايِن وما آل اليه أمرهما (ضرب لهم مُثَلَّ الحياة الدنيا وأنها تتقلب بأهلها ، وتتبدل بهم ، واضرب لهم مُثَلًّا للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿ فَاخْتَلَطَ بِدَبَابِ الْأَرْضِ (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : اختلط بسببه نبات الأرض ، وتداخل بعضه في بعض ، وتشابكت أغصانه ولروعه ، وهذه صورة النبات في الأرض الخصبة ، أما إن كانت الأرض مالحة غير خصبة فإنها تُخْرِجُ النبات مفرداً ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النبات على حال خضارته ونضارته ؟ لا . بل سرعان ما جفَّ وتكسَّر وصار هشيمًا تطيح به الريح وتذروه . هذا مُثَلٌّ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتزِين ، كما قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا نَبْلًا أَوْ نَهَارًا . (٢٩) ﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضده ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفك عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعز وأذل ، وقبض وبسط ، وضرب ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذي اغتر بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ۝٤٦﴾

تلك هي العناصر الأساسية في فتنة الناس في الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعز أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام في المخاطب على خلاف البنين ، فكل إنسان لديه المال وإن قل ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس من حرم منها .

كما أن البنين لا تأتي إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكي يتناسل ويتجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يفتنى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب - مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ۝٤٦ ﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يَرزُقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كدراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عزوة وعزّة ، وربما يُرزق الولد ويرى الذلّ على يديه ، وكَم من المشاكل تُثار فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السلب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوٰرَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيْمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الشورى]

إذن : فالعقم فى ذاته نعمة وهبة من الله لو قبلها الإنسان من ربه مُعْرِضاً الله عن عَقْمه بأن يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينتظرون إليه ويعاملونه كأنه أبّ لهم . فيذوق من خلالهم لذّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل همّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ ﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عزوة وعزرة ، ونسى أن عزة المؤمن بالله لا بغيره ، ونقول : والله لو استقبلت اليتيم بالفرح والرضا على أنها هبة من الله لكانت سبباً في أن يأتي لها زوج أبر بك من ولدك ، ثم قد تأتي هي لك بالولد الذي يكون أعز عندك من ولدك .

إذن : المال والبنون من زينة الحياة وزخرفها ، وليساً من الضروريات ، وقد حدد لنا النبي ﷺ الدنيا ، فقال : « من أصبح معافى في بدنه ، آمناً في سربه - أي : لا يهدد أمته أحد - وعنده قوت يومه ، فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ^(١)

فما زاد عن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسان - إذن - يستطيع أن يعيش دون مال أو ولد ، يعيش بقيم تعطى له الخير ، ورضاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ (٤٦) ﴿ [الكهف]

لأن المال والبنين لن يدخلن معك القبر ، ولن يمنعاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات ، والنبي ﷺ حينما أهديت إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف ^(٢) ؛ لأنه لحم رقيق خفيف ؛ لذلك احتفظت

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢٤٦) ، وابن ماجه في سننه (٤١٤١) والحميدي في مسنده (٤٢٩) من حديث عبيد الله بن حصن الأنصاري وكانت له مصيبة ، قال الترمذي : « هذا حديث حسن قريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي » (ص ٢٠١) وأورده السيوطي في « الجامع الصغير » (٨٥/٥) وعزاه لأبي نعيم عن ابن عباس ، وأشار إليه بالضعف ، وأخرجه البخاري (٤٧١٢) بشواه من أبي هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكف وتصدقت بالباقي ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعت في الشاة » ؟ قالت : ذهبتُ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »^(١).

وفي حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفقت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت »^(٢).

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. ﴾ (٤٦) [الكهف]

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن : إذا لم يكن المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات في الحياة إذن ؟ الضروريات في الحياة هي كل ما يجعل الدنيا مزرعة للأخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهي أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهي النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هي الدين ومنهج الله والقيم التي تنظم حركة الحياة على وفق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ ﴾ (٤٦) [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكن من الباقيات بل هو زائل يزوال الدنيا ، ثم وصلها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التي يخلدون بها في النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴾ (٤٦) [الكهف] خير عند من ؟ لأن كل مضاف إليه يأتي على قوة المضاف إليه ، فخيرك غير خير من هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها . قال للترمذي : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤ ، ٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٢٤٢) وصححه .

﴿ .. خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٤٦) [الكهف]

والامل : ما يتطلع اليه الإنسان مما لم تكن به حالته ، فإن كان عنده خير تطلع إلى أعلى منه ، فالامل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هَذَا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ ، وَأَنَّا ذَاهِبُونَ إِلَى يَوْمٍ بَاقٍ ؛ لِذَلِكَ أُرِدَفَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ مَا يَنَاسِبُهَا ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٤٧)

أى : اذكر جيداً يوم نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وتنتهى هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسَيِّرُ الْجِبَالَ التى تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجرمها ، وقوتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها .

ومعنى تسير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَنُسَيِّرُ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٢٠) [النبا]

وقال فى آية أخرى ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٢٠) [التكوير] وقال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ (١٠) [المرسلات] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) ﴾ [المعارج]

ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ،

(١) أى : ترى الأرض ظامرة ليس عليها ما يستريحها من مساكن أو أشجار أو غيرها . [القاموس القويم ٦٢/١] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القويم ٤٠/٢] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ ﴾ (٤٧) [الكهف]

الأرض : كُلُّ مَا أَقْلَكَ^(١) من هذه البسيطة التي نعيش عليها ، وكل ما يعلوك وَيُظْلِكُ فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) الْبَرَازُ : هو الفضاء ، أى : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار ، حتى البحر الذي يغطي جزءاً كبيراً من الأرض . كل هذه الأشكال ذهبت لا وجود لها ، فكان الأرض بَرَزَتْ بعد أن كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المباني ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحت فضاء واسعاً ، ليس فيه معلّم لشيء .

ومن ذلك ما تُسمّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لى بره) أى : فى مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتسب به ، أو حادثاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أى : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ۖ ﴾ (٤٧) [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لدُنْ آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ﴾ (٤٧) [الكهف] أى : لم نترك منهم واحداً ، الكل معروض على الله ، وكلمة ﴿ نَغَادِرْ ۖ ﴾ (٤٧) [الكهف] ومادة (غدر) تؤدى جميعها معنى الترك ، فالغدر مثلاً تَرَكَ الوفاء وخيانة الأمانة ،

(١) أَقْلُ الشَّيْءِ واستقله : حمل ورفع . فالأرض نُقِلْنَا لأنها تحملنا على ظهورها . [لسان العرب - مادة : قلل] .

حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّيَ غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً في المواضع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِشَّمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ﴾ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ (٤٨) [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروض استقبالاً منظماً يدل على كُُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أي : صفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٧٢) [الفجر]

أي : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفي ، وإن يكون لأحد منها مَقَرٌ ، وهي صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صف الصف الذي يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفي الحديث عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : « يَحْشُرُ الله الخلق ثم ينادي : يا عبادي أحضروا حُجَّتكم ويسرُّوا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُونَ مَسْئُولُونَ ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » ^(١) .

ولك أن تتصور المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٤١١٨/٥) وعزاه لأبي القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب الترجيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطي في الدر المنثور (٤٠٠/٥) .

المقعدة في حال الجلوس ، وعلى الجسم كله في حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها ، فإن تركّز الثقل كله على أطراف أقدام القدمين ، فلا شك أنه رَضِعَ مؤلم وشاق ، يصعب على الناس ، حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [الكهف]

أى : على الحالة التي نزلت عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فصل هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ۖ وَرَأَىٰ ظَهْرَكُمْ وَمَا تَرَىٰ مِنْكُمْ شُعَاءُكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِتْكُكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي لَجُئِلُ لَكُمْ مُوعِظًا ۝ ﴾ [الكهف]

والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُمْ ۝ ﴾ [الكهف] والزعم مطية الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرَبُّنَا مَا لِهَذَا الْحَكْمِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾

(١) قوله كذا : ملك إياه متقبلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ٢١٤/١] .

(٢) الإحصاء : العد والمفظ . وفي أسماء الله تعالى : المحصى . هو الذي أحصى كل شيء بعلمه فلا يذوقه دقيق منها ولا جهيل . وأحصى الشيء : أحاط به . [لسان العرب - مادة : حصى] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ ۝٤٩ ﴾ [الكهف] أى : وضعت الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهى - إذن - صور متعددة ، فمن أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿ هَازِمٌ أَقْرَأَ كِتَابَهُ ۝٥٠ ﴾ [الحاقة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشْرِف ليس فيه ما يُخْجَل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالشعير الذى حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتى كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَهُ ۝٥١ ﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابُهُ ۝٥٢ ﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۝٥٣ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالُهُ ۝٥٤ ﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانُهُ ۝٥٥ ﴾ [الحاقة]

إنه الخزي والانتكسار والندم على صحيفة مُخْجَلَة .

﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ۝٥٦ ﴾ [الكهف] أى : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليُقْزَع عباده ويُحَذَّرَهم وَيُضَخِّمَ لهم العقوبة . وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الاولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول : ﴿ وَيَقُولُونَ يَسْأَلُنَا ۝٥٧ ﴾ [الكهف] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانك فاحضرى .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابنى آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت فى ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعَلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَسْأَلُنِي أَعْبَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُوَارَى سَوْءَةَ أَخِي ۝٥٨ ﴾ [المائدة]

﴿ يَرْبِّئِي ۝۲۱ ﴾ [المائدة] يا هلاكي كأن يتحسر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكي لا تظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۝۱۹ ﴾ [الكهف] أي : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۝۱۹ ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسَجَّلٌ مُسَطَّرٌ فِي كُتُبِهِمْ ﴿ وَلَا يَغْنَمُ عَلَيْكَ أَحَدًا ۝۱۹ ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْغِيثِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ الظَّنِّ لِمَنْ بَدَّلَا ۝۲۰ ﴾

تكررت قصة سجود الملائكة لآدم - عليه السلام - كثيراً في القرآن الكريم ، وفي كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطَةً معينة ، والحق سبحانه في هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أن تذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أن يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدثكم بشيء فاذكروا عداوته لكم .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُرَبِّي فينا المناعة التي تُقاومه بها ، والمناعة أن تأتي بالشيء الذي يضرّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضيق في الجسم في صورة مكروب خامد ، وهذا هو القطعيم الذي يُعوّد الجسم على مدافعة المرض وتغلب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكّرنا ما كان

منه لا بينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿وَأَرَأَيْتَ هَبْداً الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَبْنٍ أُخْرَتَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتِكِنَ^(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء] .

فانتبهوا ما دُمنّا سنُسَيِّر الجبال ، ونُسَوِّي الأرض ، ونحصر لكل كتابه ، فاحذروا أن تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تفاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وما أنا أذكركم من الآن في وقت السعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأن تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .
والامر هنا جاء للملائكة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمروهم ، ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ ، وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذي أُمِرْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي خِدْمَتِهِ .

لذلك سمّاهم : المديرات امراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتُ^(٢) مَنْ يَبِينُ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكان مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جند هؤلاء الملائكة وهم أشرف المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أولى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعله في خدمته .
إنما ذكر أشرف المخلوقات ليُشحَب الحكم على مَنْ دونهم .

(١) احتكّن قلناً : استولى عليه واستعانه إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه في حنكه فلا يفلت منه ، والمعنى : أي لا ملكن أمرهم واستولى عليهم فلا يعصون أمري .
[للقاموس القويم ١/ ١٧٥] .

(٢) أي : الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار .
[تفسير القرطبي ٥/ ٣٩٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحسمته ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ۚ ۝٥٠ ﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذي يوضح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

ومما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار في أن يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألا يفعل ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۚ ۝٥١ ﴾ [الكهف] أي : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ ۝٥٢ ﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذي خلقكم ورزقكم ، فكان أولى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ ۚ ۝٥١ ﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وإن له أولاداً ، وأنهم يتزاجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل من كان على طريقته في الضلال والإفواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفٌ^(١) الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ۝١١٦ ﴾ [الأنعام]

﴿ يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠ ﴾ [الكهف] أي : يتس البديل أن تتخذوا إبليس الذي أبى واستكبر أن يسجد لآبيكم ولياً ، وتتركوا ولاية الله الذي أمر الملائكة أن تسجد لآبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ
أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۝٥١ ﴾

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حسنه بهتريين الكذب . [لسان العرب - مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتهم الميزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خلق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خلق السموات والأرض كان قبل خلقهم ، وكذلك ما شهدوا خلق أنفسهم ؛ لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا (٥١)﴾ [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخلق وما عاونونى فيه .

والعَصْدُ : هو القوة التى تُسَعِّفُك وتُسَدِّدُك ، وهو مأخوذ من عَصَدَ الإنسان ، حيث يزاوِل أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاوِل أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضًا وَبَسْطًا واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظَّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آيات عَظْمَى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعة .

وحيثما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرك يدك كما شئتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكِّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزاءك مُسخَّرة لإرادتك ، فإن أردت القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أن تظن أنك خلق ميكانيكى ، بل أنت صَنَعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخ أن يقطع صلته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دفعه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ سَنُؤْتِيكَ بِآخِيكَ .. ﴾ [القصص] أى : نُؤْتِيكَ وَنُعْطِيكَ السُّنْدَ وَالْعَوْنَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾

يعنى : واذكر يا محمد ، ولتذكر معك أمك هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. ﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دُونى . وزعمتم : أى : كذبتُم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴾ [الكهف]

وهذا من سماجتهم وتبجحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أن يخلعوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذبوه ، لكنهم تمادوا ﴿ فَدَعَوْهُمْ .. ﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم من قالوا : عيسى . ومنهم من قالوا : العزيز ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم من اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم من عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهُمْ ونادَوْهُمْ : تعالوا ، جادلوا عنا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طُوعاً أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. ﴾ [الزمر] ولكن ، أنى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعت بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿قُلْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ .. ﴿٥٢﴾ [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً صحيحاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ ﴿٥٢﴾ [الكهف]

والمَوْبِقُ : المكان الذي يحصل فيه الهلاك ، وهو واد من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعي والمدعو مكاناً مهلكاً ، فلا الداعي يستطيع أن يلوذ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أن ينتصر للداعي ويسعفه ، لأن بينهم منبع هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٢٣﴾ أو يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفَ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٤﴾ [الشورى] يعنى : يهلكون .

ومن العجيب أن تكون هذه أول إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ ﴿٥٢﴾ [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الاوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا
وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٣﴾

راى : الرؤية : وقوع البصر على المرئى ، والرؤية هنا ممّن سيُعَذَّب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التى سيُعَذَّبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ﴿٢٠﴾ [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله ، إذن : فالرؤية هنا متبادلة : المعذب والمعذب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُهَا .. ﴾ (٥٣) [الكهف] الظن هنا يراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ .. ﴾ (٤٦) [البقرة] أى : يوقنون .

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٥٣) [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مَوْبِقًا ، وأيضاً لا يجدون مفرّاً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِقُ موجود ، والمَصْرِفُ مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشُقُوءًا جَدًّا ﴾ (٥٤)

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صرف الله الأمثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسَّنٌ ليتفهموه تفهماً دقيقاً .

وما دام أن الحق سبحانه صرف فى هذا القرآن من كل مثل ، فلا عذر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فهمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيَتَهُ ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص في أي علم من العلوم يجد في كتاب الله أدق التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيّن فيه كل شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾ [الكهف]
أي : كثير الخصومة والتنازع في الرأي . والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صدق مذهبه وكلامه . والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبوير مذهبك ولو خطأ ، وهذا هو الجدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البناء الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيز للنهري أو الأغراض .

ولما تحدث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝٤٦ ﴾ [النكبات] وقال : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

والنبي ﷺ لما مرّ على علي وفاطمة - رضي الله عنهما - ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدي أنهما كانا مستغرقين في نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ : « ألا تصلون ؟ » ^(١) فردّ الإمام علي قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبي ﷺ وقال : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أن يُدلل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويرaug .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٧/١) ، ومسلم في صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخاري في صحيحه (٧٢٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولو دقت في رايه لوجدت له هوى يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحا إذا اخترت أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلا لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقا آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السبل ، والحقيقة أن له غرضاً في نفسه وهوى يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى
وَيَسْتَغْفِرُوا أَرْبَعَهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرفنا قبه من الآيات والأمثال ، وبعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال ؟

وفي آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَنَةٌ مِنْ نُحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا فَتَجِيرَا ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قُبُلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرُوفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه .. ﴿٩٣﴾ [الإسراء]

فكل هذه التعمينات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله ، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم ، ثم

لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا يُهْلِكُهُمْ ؛ لِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا : ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.. (٥٠)﴾ [الكهف] فهذه هي الآية التي تنتظرهم : أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ مَنْ كَذَّبَ الرِّسْلَ .

فقبل الإسلام ، كانت السماء هي التي تتدخل لِنُصْرَةِ الْعَقِيدَةِ ، فَكَانَتْ تَدْكُ عَلَيْهِمْ قُرَاهِمَ وَمَسَاكِنَهُمْ ، فَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ وَالْبِلَاقُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مِهْمَتِهِ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ نَشْرِ دَعْوَتِهِ ، إِلَّا أَمَّةٌ مُحَمَّدٌ فَقَدْ أَمِنَهَا عَلَى أَنْ تَحْمِلَ السَّيْفَ لِنُؤْدْبِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أَيْ : عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الْمَهَاتِرَاتِ وَالْتِعَنُّتَاتِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أَيْ : بِهَلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا (٥٥)﴾ [الكهف] أَيْ مُقَابِلًا لَهُمْ ، وَعِيَانًا أَمَامَهُمْ ، أَوْ (قَبْلًا) جَمْعُ قَبِيلٍ ، وَهِيَ الْوَانُ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أَيْ : لَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ النَّارِ ، فَالْوَانُ الْعَذَابُ لَهُمْ مُتَعَدِّدٌ .

ثُمَّ يُسَلَّى الْحَقُّ سَبْحَانَهُ رَسُولُهُ ﷺ حَتَّى لَا يَأْبَهُ لِعَمَلِ الْكَفَّارِ ، وَلَا يَهْلِكُ نَفْسَهُ أَسْفًا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ ، فَيَقُولُ سَبْحَانَهُ :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا إِلَيْنِي وَمَا أُنْذِرُوا هَرُونَ﴾

قُلْنَا : إِنْ الْجِدْلُ قَدْ يَكُونُ بِالْحَقِّ ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْبَاطِلِ كَمَا يَفْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا ، فَيَجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَيَسْتَخْدِمُونَ كُلَّ الْحِيلِ لِدَحْضِ

الحق أى : لِيُعْطَلُوهُ وَيُزِيلُوهُ ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦) ﴿[الكهف] أى : الآيات الكونية التى جاءت لتصدق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرِيَةً واستهزاءً ، ولم يعباوا بما فيها من نذارة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)

﴿وَمِنْ أَظْلَمُ ..﴾ (٥٧) [الكهف] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأن يدعى صاحبك أنك لم تصله ، ولم تصنع معه معروفًا ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضت المسألة على سبيل الاستفهام فقلت له : ألم أصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خصم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿وَمِنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ..﴾ (٥٧) [الكهف] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحد أظلم ممن فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

(١) وقرئ أذنه : ثقل سمعها . أو مئنت . يقول الكافرون ذلك سُخْرِيَةً وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٠] .

وقوله ﴿فَاعْرِضْ عَنْهَا .. (٥٧)﴾ [الكهف] تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] نسي السيئات ، وكان من اللواجب أن يتيه إلى هذه الآيات خير من بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيبدل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] اكنة : غطية جمع كن ، فجعل الله على قلوبهم غطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبوا ، فلما أحبوا الكفر وانشرحت به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رب يعطي عبده ما يريد .

كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ عُرْضٌ غَرَّاهُمْ لِلَّهِ مَرَعًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٦١)﴾ [البقرة]

وقال تعالى في هذا المعنى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧)﴾ [البقرة]

ومعنى : ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أن ذكروا بها فاعرضوا عنها ، فحجبهم الله ففهمها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : صمم فلا يسمعون ﴿وَأَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدَا (٥٧)﴾ [الكهف] وهذا أمر طبيعي ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسد عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبك بالرضا ، فتتفعل لها جوارحك بالالتزام ،

سورة الكهف

٨٩٤

فتسمع بالآذن ، وتقبل بالقلب ، وتتفطن بالجوارح طاعةً واقتضاعاً بما أمرت به .

وما دام في الآذن وقُر وصمَّ قلبه تسمع ، وإن سمعت شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تتفطن إلا بما شحَّ به القلب من عقائد .
ويقول الحق سبحانه :

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ نَوَيْتُ أَنْ أَخَذُ مِنْكُمْ مِمَّا كَسَبُوا الْمَعْلُومُ
الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَخْرَجًا (٥٨)

فمن رحمة الله بالكفائر أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم ؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلقوا ، ولن يكون لهم ملجأ يحميهم عنه ، ولا شئك أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرج من ظهور هؤلاء مَنْ يُؤمن به ، ومنَّ يعمل راية الدين وينافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام ، فمن ظهر أبي جهل جمل عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظم قائد في الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَيَذَرُكَ الْغَافِلُونَ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَمْ لَمْ يَأْتِ الْغَافِلِينَ
وَجَعَلْنَا الْمَهْلِكِينَ مَوْعِدًا (٥٩)

تلك : أداة إشارة لمؤنث هي القوي ، والكلف للخطاب ، والخطاب هذا للنبي ﷺ ، وأمته متخوية في خطابه ؛ لأن خطاب الرسول

(١) التوكل : التلجأ أو المكان للنجاة . وآل إليه يئس : لجأ إليه فراراً ، وقال من المكروه : نجا منه أو : نجا من خطر يتهدده . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٧] .

خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسَّنٌ ،
كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه] .

فأين هذه القرى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي ﷺ ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراهها النبي ﷺ
ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم
صالح . وقُرَى قوم لوط . وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَأَنْكُمْ لَأْتَمُرُونَ
عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١٣٧) وَيَالْلَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٣٨) [المصافات]

إذن : فبتلك إشارة إلى موجود مُحَسَّنٍ ذاك بما تبقى منه على
ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حل بها من بأسه الذي لا يردُّ
عن القوم الظالمين .

وكلمة (القرى) جمع قرية . وتُطلق على المكان الذي تتوفر فيه
مُقومات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات
ومُقومات الحياة العادية ؛ لأن القرية لا تُطلق إلا على مكان تتسع فيه
مُقومات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطأ عليها من الضيوف فيجد بها
قرى^(١) . فإن كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها
أم . نسميها (أم القرى)^(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا آتِبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (١٠)

(١) القرى : طعام الأضياف . والمقرى : كل ما يؤتى به من قرى السيل من قمحة أو جفنة
[لسان العرب - مادة : قرى] .

(٢) وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى قاصداً مكة المكرمة ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ
أَوْسَعْنَا إِلَيْكَ فُرْشًا بَرًّا فَتَدْبِرْ أَمْ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴾ [الشورى] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ .. (٦٠)﴾ [الكهف] أى : اذكر يا محمد وقت أن قال موسى لقاته ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نسل يوسف - عليه السلام - وكان يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

﴿لَا أَرْحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠)﴾ [الكهف]

لكن ، ما حكاية موسى مع قتاه ؟ وما مناسبتها للكلام هنا ؟
مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبي ﷺ ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم في محمد : أهو مُحَقٌّ أم لا ؟ فقال اليهود لوقد مكة : أسأله عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبي : أسأله عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر ، والرجل الطواف الذي طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « في الغد أجيبكم »^(١) .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحَسَّبُ له لا عليه ، فلما كان محمد ﷺ يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابه ، لكنه سكت إلى أن يأتي الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله في ذلك شيء ، حتى شقَّ الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة لينددوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شيء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم في

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٧١/٣) وعزاه لمحمد بن إسحاق من قول ابن عباس رضي الله عنهما عن وفد قريش إلى أخبار يهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ وصفته .

هذه المسألة إلا يوحى من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رايه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطء فى هذه المسألة دليلٌ صدق النبى ﷺ ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتُردُّ على مهاجمات القوم ، وتُبين لهم أن النبى لا يعلم كل شيء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شيء ؟ وهل يقدر فى مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود وَمَنْ لَفَ لَفَهُمْ مِنْ كَفَارِ مَكَّةَ : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة واليهودية ، وما هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يَا مَنْ لَقِنْتُمْ كَفَارِ مَكَّةَ هذه الاسئلة وأظهرتم الشماعة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحي ، اعلّموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أن تفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام - يُقال : إنه سأل الله - وكان له دلال على ربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ ۞ (١٤٢) ﴾ [الاعراف] والذي أطمعه فى هذا المطلب أن الله كلمه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ (١٧) ﴾ [طه] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومن الذى يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَعَشَىٰ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۞ (١٨) ﴾ [طه]

(١) هش الشجر : ضرب بهضاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَعَشَىٰ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ۚ ۞ (١٨) ﴾ [طه] - أى : أسقط بعصاى أرواق الأشجار على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢/ ٣٠٧] .

وهكذا أطال موسى مدة الأتس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأل : يا رب ، أ يوجد فى الأرض أعلم منى ؟ فأجابه ربّه تبارك وتعالى : نعم فى الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فإذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدى هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مجمع البحرين .

وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ أن موسى - عليه السلام - خطب مرة فسئل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا - يعنى من البشر - فأخبره الله تعالى : لا بل فى الأرض مَنْ هو أعلم منك من البشر^(١) حتى لا يغترّ موسى - عليه السلام - بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَا أْبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ۖ ۝٨٩ ﴾ [الكهف]

لا أبرح : أى لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعنى : لا أترك مكانى الذى أنا فيه ، لكنها تعنى : لا أترك ما أنا بصدده ، فإن كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإن كنتُ ماشياً لا أترك المشى ، وقد قال موسى - عليه السلام - هذا القول وهو يبتغى بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردت مادة (برح) فى قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِى ۖ ۝٨٩ ﴾ [يوسف] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحي الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يأتوا به ويعيدوه إليه .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٢٥-٤٧٢٧) فى تفسير آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَاهُ لَا أْبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٨٩ ﴾ [الكهف] . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧/٥) من حديث أبى بن كعب .

و « مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ » أى : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقى مثلاً دجلة والفرات فى شَطْءِ الْعَرَبِ .

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضَى حَقْبًا ۖ ﴾ [الكهف]

الْحَقْبُ : جمع حَقْبَةٍ ، وهى الفترة الطويلة من الزمن ، وقد تَدْرُوْهَا بِحَوَالَى سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى - عليه السلام - مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحَقْبَةَ سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سُرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشْوقاً إِلَى رُؤْيَا هَذَا الرَّجُلِ الْأَعْلَمِ مِنْهُ ، كيف وهو النبى الرسول الذى أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ عِلْمُ مَنْ لَدُنَّا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١)

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ۖ ﴾

﴿ فَاتَّخَذَا سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ ﴾

(بَلَغَا) أى : موسى وفناه (مَجْمَعٌ بَيْنَهُمَا) أى : مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أى : حدث النسيان منهما معاً ، وإن كان خمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أن يُذَكِّرَهُ بِهِ ، فرئيس القوم لابد أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرُّكْبِ ، وكانت العادة أن يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقدده وينظر لعل واحداً نسى شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذَكِّرُ فَتَاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

(١) الحوت : السمكة كبرت أو صغرت والجمع حيتان . [القاموس القريم ١/ ١٧٦] .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفى بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حوتاً ، وقد أعدوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوى فى مكمل^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَجًا ﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكمل ، وتسرب نحو البحر ، والسرب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القرية مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القرية أعلى فيتسرب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشوى ، وتعود له الحياة ، ويتوجه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ إِنَّا كُنَّا بِكَ بِغَيِّبٍ
مِّن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [٦٢]

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى - عليه السلام - لفاته : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنصب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ
وَمَا أَنَسِيتهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [٦٣]

(١) المكمل : الزئبيل الذى يُحمل فيه القدر أو العتب إلى الجرين . وقيل : المكمل شبه الزئبيل بسبع خمسة عشر صاعاً ، [لسان العرب - مادة : كمل] .

هذا كلام فتى موسى : أرايت : أخبرني إذ لجأنا إلى الصخرة عند
مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ لِنَسْتَرْحِجَ ﴿فَأَنبَى نَسِيْتُ الْحَوْتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] وتلاحظ
أنه قال هنا (نَسِيْتُ) وقال في الآية السابقة ﴿ نَسِيًا .. (٦١)﴾ [الكهف]
ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه
ليتصرف في كل شيء ؛ لأن تابعه قد لا يهमे أمر المسير في شيء ،
وقد ينشغل ذهنه بأشياء أخرى . فتُسييه ما هو متوط به من أمر
الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما يَدْر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿ وَمَا
أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. (٦٣)﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذي لعب
بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف] أي :
اتخذ الحوت طريقه في البحر عَجَبًا ، في الآية السابقة قال ﴿ سَرِيًّا (٦١)﴾
[الكهف] وهذه حال الحوت . وهنا يقول (عَجَبًا) لأنه يحكى
ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشوّى تدبّ فيه الحياة
حتى يقفز من المكمل ، ويتجه صوب الماء ، فهذا حقاً عجيبة من
العجائب ؛ لأنها خرجت عن العالوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ آثَارَهُمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

أي : قال موسى - عليه السلام ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ .. (٦٤)﴾
[الكهف] أي : نطلب ، فهذا المكان الذي فُقد فيه الصوت هو المكان
المراد ، فكان الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. ﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء في معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردت في القرآن بمعنى النبوة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف] فكان ردُّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتي على يد جبريل - عليه السلام - وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ .. ﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿ مِّنْ عِندِنَا .. ﴾ [الكهف] قال إتيان والعندية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرج على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويتعم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أن نفرق بين علم وفيوضات تأتي عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : اعمل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علل باطنة فوق العلل الظاهرية ، وهذه هي التي اختص الله بها هذا العبد الصالح (الخضر) كما سماه النبي ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبي يأتي بأحكام تحرم القتل وتحرم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى - عليه السلام - على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علم له بعلتها ، ولو أن موسى - عليه السلام - علم العلة في خرق السفينة لبادر هو إلى خرقها .

إِذْنٌ : فَعَلِمَ مُوسَى غَيْرَ عِلْمِ الْخَضِرَ : لِذَلِكَ قَالَ لَهُ : ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨) ﴿ [الكهف]

فهذا عِلْمٌ ليس عندك ، فَعِلْمِي من كَيْسِ الْوَلَايَةِ ، وَعِلْمُكَ من كَيْسِ الرِّسَالِ ، وَمَا فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَتَعَارَضَانِ ، وَإِنْ كَانَ لِعِلْمِ الْوَلَايَةِ عِلَلٌ يَاطُنَةُ ، وَلِعِلْمِ الرِّسَالَةِ عِلَلٌ ظَاهِرَةٌ .

ثم يقول تعالى :

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٩)

كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُنَا أَدَبَ تَلَقُّي الْعِلْمِ وَأَدَبَ التَّلْمِيزِ مَعَ مُعَلِّمِهِ ، فَمَعَ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَتَّبِعَ الْخَضِرَ ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ مِثْلًا : إِنْ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَتَّبِعُكَ ، بَلْ تَلَطَّفَ مَعَهُ وَاسْتَسَمَحَ بِهِذَا الْإِسْلُوبِ ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ ..﴾ (٦٩) [الكهف]

وَالرُّشْدُ : هُوَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ فِي الْأَشْيَاءِ ، وَسَدَادُ الْمَسْلَكِ فِي عِلَّةِ مَا أَنْتَ بِصَدَدِهِ ، وَسَبَقَ أَنْ قُلْنَا : إِنْ الرُّشْدُ يَكُونُ فِي سِنِّ الْبُلُوغِ ، لَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا أَنْ كُلَّ مَنْ بَلَغَ يَكُونُ رَاشِدًا ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِالْفَاءِ وَغَيْرَ رَاشِدٍ ، فَقَدْ يَكُونُ سَافِيًا .

لِذَلِكَ لَمَّا تَكَلَّمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنِ الْيَتَامَى قَالَ : ﴿وَابْتَٰلُوا الْيَتَامَى ..﴾ (٦) [النساء] أَيْ : اخْتَبِرُوهُمْ ، وَاخْتَبَارُ الْيَتِيمِ يَكُونُ حَالِ يَتَمِّهِ وَهُوَ مَا يَزَالُ فِي كِفَالَتِكَ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُكَلِّفَهُ بِعَمَلٍ مَا لِإِصْلَاحِ حَالِهِ ، وَتُعْطِيَهُ جِزَاءً مِنْ مَالِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ تَحْتَ عَيْنِكَ وَفِي رِعَايَتِكَ ، لِتَرَى كَيْفَ سَيَكُونُ تَصَرُّفُهُ .

عليك أن تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله في معزل عنها إلى أن يبلغ الرشد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإن فشل كانت التجربة في ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتم وهو ما يزال في ولايتك ، وتحت سماعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ۚ ﴾ (٦) [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقل بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ أَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ۚ ﴾ (٦) [النساء] فعلى الوصي أن يراعى هذا الترتيب : أن تراعى اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به في معترك الحياة وتجاربها حتى يتمكن من مواجهة الحياة ولا يتخبط في ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإن علمت رُشدَه بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرف فيه ، فإن لم تأنس منه الرشد وحسن التصرف فلا تترك له المال يُبدده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ۚ ﴾ (٥) [النساء] ولم يقل : أموالهم ؛ لأن السفه لا مال له حال سقاه ، بل هو مالكم لِتُحْسِنُوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشدَه .

إذن : فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء ، لكن هل يعني ذلك أن موسى - عليه السلام - لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول ، راشداً في تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح ، وقد دل هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح في

مكانة النبوة ! لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْبَتْكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥)

[الاسراء]

وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤)

[طه]

لذلك يقول الشاعر :

كَلَّمَا أَرَدْتُ عُلُومًا زِدْتُ إِيْقَانًا بِجَهْلِي

لأن معنى أنه ازداد علماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلم غداً .

والإنسان حينما يكون واسع الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علم قضية اشتاق لخيرها ، فهو في نهم دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال » ^(١) .

والشاعر الذي تنبّه لنفسه حينما دعته إلى الغرور والكبرياء والزهو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قَالَتِ النَّفْسُ قَدْ عَلِمْتُ كَثِيرًا قُلْتُ هَذَا الْكَثِيرُ تَزُجُّ يَسِيرًا

ثم جاء بمثل توضيحي :

تَعْلَا الْكُورَ غُرْفَةً مِنْ مُحِيطٍ فَيَرَى أَنَّهُ الْمَحِيطُ الْكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٢٧)

هنا يبدأ العبد الصالح يُعلم شروط هذه الصُّحبة ويوضح لموسى - عليه السلام - طبيعة علمه ومذهبه ، فمذهبك غير مذهبي ، وعلمي من كيس غير كيسك ، وسوف ترى منى تصرفات لن تصبر عليها :

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٢/١٠) (حديث ١٠٢٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٢٥/١) : « فيه أبو بكر الداهري وهو ضعيف » .

لأنه لا علم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عذراً على عدم صبره معه ! لذلك يقول :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا أَلْقَتْ بِحَدِّكَ سِحْرًا ﴾ (١٨)

فلا تحزن لأنى قلت : لن تستطيع معى صبراً ؛ لأن التصرفات التى ستعرض عليها ليس لك خبر بها ، وكيف تصبر على شيء لا علم لك به ؟

ونلاحظ فى هذا الحوار بين موسى والخضر^(١) - عليهما السلام - أدب الحوار واختلاف الرأى بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلا منهما يقبل رأى الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو ينكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويكفر بعضهم بعضاً ، فإذا رأوا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشيء من الفسوضات ، فكانت له طريقة واتباع نرى من ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلّى فى قول الخضر : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ (١٨) [الكهف] مظهر من مظاهر أدب المعلم مع المتعلم ، حيث أحترم رأيه ، والتمس له العذر إن اعترض عليه ، فكلُّ منهما مذهب الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (١٩)

(١) قال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى أخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على قروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبى فى تفسيره (١١٦٩/٥) .

أى : أنا قابل لشروطك أيها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلَكَ ولن أعارضك فى شيء . وقَدَّم المشيئة فقال : ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٦٩) [الكهف] ليستميله إليه ويُحَنِّن قلبه عليه ﴿ صَابِرًا .. ﴾ (٦٩) [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿ وَلَا أَغْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٩) [الكهف] ومكذا جعل نفسه مأمورًا ، فالمعلم أمر ، والمتعلم مأمور .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾

حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿ ٧٠ ﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إِنْ تَبِعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي حَتَّى أَخْبِرَكَ ، وكأنه يُعَلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا

لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿ ٧١ ﴾

(فَأَنْطَلَقَا) سارا معًا ، حتى ركبا سفينة . وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أَنْ بَادَرَ إِلَى خَرَقِهَا وَإِتْلَاقِهَا ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكَبُرَتْ هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (٧١) [الكهف] أى : أمرًا عجيبًا أو فظيعًا . ونسى موسى ما أخذ به على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظري شيء ، والعمل الواقعي شيء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذي يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقال في أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رهن أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقايض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلاحظ هنا أن موسى - عليه السلام - لم يكتف بالاستفهام : ﴿ أَخْرِقْنَهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا .. ﴾ (٧١) [الكهف] بل تعدى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً قظيماً ؛ لأن كلام موسى النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعي إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٢)

وهذا درس آخر من الخضر لموسى - عليهما السلام - يقول : إن كلامي لك كان صادقاً ، وقد حذرتك أنك لن تصبر على ما ترى من تصرفاتي ، وما أنت تعترض على ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاّ تسألني عن شيء حتى أخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا فَيْسَتْ وَلَا

تُهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ (٧٣)

يعتذر موسى - عليه السلام - عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿وَلَا تُرْفِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٢) ﴿[الكهف] أى : لا تُحْمِلْنِي مِنْ أَمْرِ اتِّبَاعِكَ عُسْرًا وَمَشَقَّةً ، فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿فَأَنطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً

بَعِيرٍ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾ (٧٣)

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صبغ الأمر إلى قتل نفس زكية دون حق ، فبأى جريرة يُقتل هذا الغلام الذى لم يبلغ رشده ؟ لذلك قال فى الأولى : ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١) ﴿[الكهف] أى عجيباً أما هنا فقال : ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾ (٧٤) ﴿[الكهف] أى : مُنْكَرًا : لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التى لم تلوّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتى الرد من الخضر مخالفاً للرد الأول ، قفى المرة الأولى قال : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) ﴿[الكهف] أى : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٣)

وأكدما وأراد به بالكلام أى : قُلْتَ لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التى يقاطع فيها موسى معلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَدِّقْنِي

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٤)

وهكذا قطع موسى - عليه السلام - الطريق على نفسه ، وأعطى

لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق ؛ لذلك في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « رحمنا الله ، ورحم أخى موسى لو صبر لعرفنا الكثير »^(١) .

فهذه هي الثالثة . وليس لموسى عذر بعد ذلك .
ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦) [الكهف] أى : قد بلغت معى كل ما يمكن فعله ، وليس لى عذر بعد ذلك .
ثم يقول سبحانه :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوا لَهُمَا قَوَّجِدًا فِيهَا جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۗ ﴾ (٧٧)

استطعم : أى طلب الطعام ، وطلب الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالا لقلنا : إنه يذخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنع الطعام عن سائله دليل بخل ولؤم متأصل فى الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التى مرّا بها وطلبوا الطعام فمنعوهما .

والم تأمل فى الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصوّر مدى بخل هؤلاء القوم ولؤمهم وسوء طباعهم ، فلم يقل مثلاً : فأبوا أن يطعموهما ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٠) كتاب الفضائل من حديث أبى بن كعب بلفظ : « رحمنا الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لراى العجب ، ولكنه أخذته دمامة من صاحبه » وفى لفظ آخر له أيضاً وأحمد (١٢١/٥) : « يرحم الله موسى ، لو دعت أنه كان صبر حتى بقى علينا من أخباره » .

بل قال : ﴿ فَأَبَوَا أَنْ يَضِيفُوهُمَا .. ﴾ (٧٧) [الكهف] وفرق بين الإطعام والضيافة ، أبوا الإطعام يعنى منعهم الطعام ، لكن أبوا أن يضيفوهما ، يعنى كل ما يمكن أن يُقدّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنتهى ما يمكن تصوّره من لؤم هؤلاء الناس .

وتلاحظ أيضاً تكرار كلمة (أهل) فلما قال : ﴿ أَتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ .. ﴾ (٧٧) [الكهف] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا .. ﴾ (٧٧) [الكهف] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت فى القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخل ولؤم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ .. ﴾ (٧٧) [الكهف]

أى : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وجداً جداراً يريد أن ينقض ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإن جاءت لسفير العاقل فهى بمعنى : قُرب . أى : جداراً قارب أن ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدّع والشروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحى وضيقى الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره فى التفكير والنظر ويُدققون فى المسائل فلا مانع لديهم أن يكون للجدار إرادة على أساس أن لكل شئ فى الكون حياة تناسبه ، والله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

أَلَمْ يَقُلِ الْحَقُّ سَيَمَاتُهُ : ﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..

﴾ (٢٩) [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكى فقد تمدَّت مجرد الكلام ، وأصبح لها إحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقله : ﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..﴾ (٢٩) [الدخان] دليل على أنها تبكى على فقد الصالحين .

وقد سئل الإمام علي - رضي الله عنه - عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه مضعان : موضع في السماء وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض لموضع مُصَلَّاهُ ، أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله »^(١) .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكون من حوله ، فالكون ساجد لله مُسَبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينبئ بالفاصلين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أي : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسَبِّح وهو غافل . وعلى هذا الفهم فقله تعالى : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَ ..﴾ (٧٧) [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث »^(٢) .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٤٢/١) وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل نرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ على رضي الله عنه ﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..﴾ (٢٩) [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٥ ، ٩٥) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٧٧) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .

وروي في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى في يده ﷺ . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغي أن نقول : سبح الحصى في يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسبَّح أيضاً في يد أبي جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء في العصر الحديث يبحثون في لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التي أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلازل وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلازل مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فعل الخضر مع الجدار الذي قارب أن ينقض ﴿فَأَقِمْ وَدَعُ الْكَافِرِينَ﴾ [الكهف] ، أي : أصلحه ورممه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف]

هذا قول موسى - عليه السلام - لما رأى لؤم القوم وخستهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد العاوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجره ؟

وجاء هذا القول من موسى - عليه السلام - لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِثَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

(قَالَ) أي : العبد الصالح (هَذَا) أي : ما حدث منك من قولك : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف] وقد سبق أن

اشترط موسى - عليه السلام - على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفراق بينهما ، وكان العبد الصالح لم يأت بشيء من عنده ، لقد قال موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ (٧٦) [الكهف] وهاهو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴾ (٧٨) [الكهف]

قوله : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴾ (٧٨) [الكهف] تُعد دُستورا من الحق - سبحانه وتعالى - ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغي أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلتزم أدبه في حدود ما علمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿ سَأَنبِئُكَ بِأَوَّلِهِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٨) [الكهف] أي : لن أتركك ولى نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون في نفسك منى شيء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التي اعترضت عليها لتعلم أن الله لم يخدعك ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعَلِّمُكَ شيئاً لم تَكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تلو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك في أمر ما ، وأنت حريص على مودته فتقول له : أمهلني حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبَةِ ، فلا يجوز بعد المصاحبة أن نفتترق على الخسلاف ، ينبغي أن نفترق على وفاق ورضا ؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمّي الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أن نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٩)

قوله : (لِمَسْكِينٍ) اللام هنا للملكية ، يعنى مملوكة لهم ، وقد
حسنت هذه الآية الخلاف بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ،
وايهما أشد حاجة من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئاً
لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل فى البحر ،
وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى ﴿ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ .. (٧٩) ﴿ [الكهف] أى : مجال عملهم
البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافة .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ .. (٧٩) ﴿ [الكهف] المتكلم هنا هو الخضر
- عليه السلام - فنسب إرادة عيب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها
إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عما لا يليق ، أما فى الخير فنسب الأمر
إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُلَاقَا أَشَدَّهُمَا وَيُخْرِجَا كَتَرَهُمَا ..
(٨٢) ﴿ [الكهف] لذلك فإنه فى نهاية القصة يرجع كل ما فعله إلى الله
فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢) ﴿ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٩) ﴿
[الكهف] كلمة : كل ترسم سوراً كلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخذ كل
سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ
السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجة له فى المعيبة الغير
صالحة ، وكان فى سياق الآية صفة مُقَدَّرَةٌ : أى يأخذ كل سفينة
صالحة غصباً من صاحبها .

والغَصْبُ : ما أخذ بغير الحق ، عُدْوَةٌ وَقَهْرٌ وَمُصَادَرَةٌ ، وله صور

متعددة منها مثلاً السرقة : وهي أخذ المال من حرزهِ خفية ككسر دولا ب أو خزينة ، ومنها الغصب : وهو أخذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفي هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلة ما ، يخطف الشيء ويفر به دون أن تتمكن من اللحاق به ، فالخطف - إذن - يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تسترهِ .

وما دام الأمر هنا غصباً فلا بد لمالك الشيء أن يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حقه ، وقد يتوسل إليه أن يترك له ماله ، فالمسألة - إذن - فيها كلام وأخذ ورد .

إذن : خرّق السفينة في ظاهره اعتداء على ملك مقوم ، وهذا منهي عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً في نجات السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو علم موسى - عليه السلام - هذه الحكمة لبادر هو إلى خرّقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نحول السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعييها بخرّقها ، أو بخلع لوج منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أخذها .

وكلمة (وَرَاءَهُمْ) هنا بمعنى أمامهم : لأن هذا الظالم كان يترصد للسفن التي تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو في الحقيقة أمامهم ، على حدّ قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (١٦) [إبراهيم] ، وهل جهنم وراء أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بعد ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَبِضْ رِجْلَيْهِ ﴾ [يوسف] ، ومن وراء إسحاق يعقوب (٧٧) ﴿ [هود]

وتأتى وراء بمعنى : غير ، كما فى قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴿ [المؤمنون]

وفى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. ﴾ (٧٢) ﴿ إِلَى .. ﴾ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ .. ﴾ (٧٤) ﴿ [النساء]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. ﴾ (١٨٧) ﴿ [آل عمران]

إذن : كلمة (وراء) جاءت فى القرآن على أربعة معانٍ : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُمَيِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملكة العربية قادرة على أن تُعَيِّر المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن - مثلاً - تأتى بمعنى العين الباصرة ، أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذى يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه فى قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفى عليه :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٠) ﴿

الغلام : الولد الذى لم يبلغ الحُثُمَ وسنَّ التكليف ، وما دام لم يُكَلَّفَ فما يزال فى سنِّ الطهارة والبراءة من المعاصى ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقْتُلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً .. ﴾ (٧٤) ﴿ [الكهف] أى : طاهرة ، ولا شك أن أخذ الغلام فى هذه السنَّ خير له ومصلحة قبل أن تلوثه المعاصى ، ويدخل دائرة الحساب .

إنّ : فطهارته هي التي دعوتنا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، لماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ .. ﴾ (٨٠) [الكهف] وكثيراً ما يكون الاولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَآوْلَادِكُمْ عَبْدُوا لَكُمْ ^(١) فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴾ (٨١) [التغابن]

والفتنة بالاولاد تأتي من حرص الآباء عليهم ، والسمي إلى جعلهم في أحسن حال ، وربما كانت الإمكانيات غير كافية ، فيضطرب الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علم الحق - سبحانه وتعالى - أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يرد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكان قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أسدى إلى كليهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغيباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أن يشتد الحزن عليه ، وتنزع طفولته التي ضاعت وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أعد له من التعيم ، لا ندري أن من أخذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحَدِّد له مسكن في الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجري فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٦/٤) : « بمعنى أنه يلتقي به عن العمل الصالح » وذكر ابن أبي حاتم في هذا اثر عن ابن عباس رضي الله عنهما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فإرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فإني أزواجهم وأولادهم أن يدمروهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فلهذا أن يعاقبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَتُوبَا فَتَقَبَّلَا وَتَغْفِرَا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٨١) [التغابن] .

وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، لذلك يُسمون « دعاميص ^(١) الجنة » ^(٢) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف] (٨١) خشينا : خفنا . قالواحد منا يولد له ابن ، فيكون قرّة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً في فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد عن طريق الوالد فلا يطفئ .

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا رَزَقْنَاهُ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ (٨١)

ولا يفوت الخضر - عليه السلام - أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أحب هذا العمل وأريده ، إنما الذي يُبدّل في الحقيقة هو الله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا .. ﴾ [الكهف] (٨١) فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْرًا مِمَّا رَزَقْنَاهُ .. ﴾ [الكهف] (٨١) أي : طهراً ﴿ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ [الكهف] (٨١) لأنهما أرادوا الولد لينفعهما في الدنيا ، وليكون قرّة عين لهما ، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاء لها ، وقد ثبت في علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويه ، وسيجلب عليهما المعاصي

(١) الدعاميص : جمع ديموص ، وهو الدخال في الأمور أي أنهم سيأخون في الجنة دخالون في منازلها لا يضمنون من موضع . [لسان العرب - مادة : ديمص] .

(٢) عن أبي هريرة قال : قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي ابنان ، فما أنت مُحدثي عن رسول الله ﷺ بعديت تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم . صفارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتنامى حتى يدخله الله وأباه الجنة ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٥) ، وأحمد في مسنده (٥٦٠ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والسيئات . وسيجرهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة في أخذه يدل أن يتمتع به في الدنيا الفانية ، ويشقى به في الآخرة الباقية .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾^(١)

(لُغْلَامَيْنِ) أى : لم يبلغا سنَّ الرشد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كنزٌ لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أن تتصور ما يحدث لو تهدم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوها الطعام بل ومجرد المأوى ، إن أقل ما يوصفون به أنهم لئام لا يؤتمنون على شيء . ولقد تعودنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إنن : فلا شك أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يعد بمثابة صفة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكر وسوء استقبال ، وترد لهم الصاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

(١) قال هذا الحق سبحانه : ﴿ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ [الكهف] . وفي آية أخرى قال : ﴿ حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَمْلٌ قَرِيبٌ .. ﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير في تفسيره (٩٨/٣) : « في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال مكرمة وقنادة وغير واحد : كان تحتها مال مدفون لهما ، قال ابن كثير (٩٨/٣) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال السمرقاني عن ابن عباس : كان تحت كنز طم » .

فعلّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أن يحفظ لحين أن يكبر هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته في قرية من اللثام . وكان الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين في هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار في التصدّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أن يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار وردّه إلى ما كان عليه ردّ مَنْ علّمه الله من لدنّه ، فيقال : إنه بنّاء بناءً موقوتاً يتناسب وعُمْر الغلامين ، وكأنه بنّاه على عمر افتراضى ينتهى ببلوغ الغلامين سنّ الرشد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أوتى علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سنّ واحدة توأمين لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف] أي : سوياً ، ومعنى الأشدّ : أي القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوى ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنتاج مثله .

وتلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - قال هنا : ﴿ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف] ولم يقل رُشدَهُمَا ، لأنّ هناك فرقاً بين الرُشد والأشدّ فالرُشد : حُسْنُ التصرف في الأمور ، أما الأشدّ : فهو القوة ، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمى كنزهما من هؤلاء اللثام فناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا .. ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ .. ﴾ [الكهف] أي : يستخرجاه بما لديهما من القوة والقُتُوّة ، والرحمة : صفة تُعطى للمرحوم لتمنحه من الداء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴿ [الإسراء] فقوله : شفاء :
أى : يشفى داءً موجوداً ويُبْرِئُهُ . ورحمة : أى رحمة تمتع عودة الداء
مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما
وحفظ حقهما ، ثم لم يَفُتَّ العبد الصالح أَن يَرْجِعَ الفضل لاهله ،
ويتنقى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول :
﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف] أى : أَن ما حدث كان بإمر
الله ، وما علّمتك إياه كيان من عند الله ، فليس لى مِيزَةٌ عليك ، وهذا
درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضل لاهله .

ثم يقول : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ ^(١) عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ [الكهف]
تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الاسئلة الثلاثة التى
سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن
الرجل الطواف الذى طاف البلاد :

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ ۚ قُلْ سَأَتْلُوا
عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٢) ﴾

ذو القرنين : هذا لقبه : لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

(١) فى هذه الآية قال : ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ .. (٨٢) ﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ ..
(٧٨) ﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٠/٣) : : لما أن فُسِّرَ وَبَيَّنَّ ووضع
وأزال المشكل قال (تسطيع) وقبل ذلك كان الإشكال قريباً ثقيلًا فقال (ما لم تستطع)
تقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف ، كما قال ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ .. (٧٧) ﴾ [الكهف] .
وهو الصعود إلى أعلاه . وقال : ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا أَن يَنظُرُوا (٧٧) ﴾ [الكهف] . وهو أشق من ذلك ،
لتقابل كلاهما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم . .

يلبس تاجاً له اتجاهان ! أو لأنه بلغ قرني الشمس في المشرق وفي المغرب .

وقد بحث العلماء في : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدوني الطواف في البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان في مقدونيا في الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد - وزير المعارف الهندي - إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته في الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما ستعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حصرها في شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصعبها بصيغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فتدري مَنْ يقول بأنها مسالة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم في ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العمل خاص بهذا الشخص ، والحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يضرب لنا مثلاً يعلم أي شخص ، ماذا سيكون مسلكه وتصرفه إن مكّن الله له ، وملحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حدد القرآن هذه الشخصية في الإسكندر أو قورش أو غيرهما قلنا : إنه حدث فردي لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأسوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان في تعيينه فائدة لعينه الله لنا .

وسبق أن أوضحنا أن الحق - سبحانه - عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿ أَمْرَاتٌ نُّوحٍ وَأَمْرَاتٌ لُوطٍ .. ﴾ (١١) [التحريم] ولم يُعَيِّنْهُمَا على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسل من الله لهداية الناس لم يتمكن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ أَمْرَاتٌ فِرْعَوْنَ .. ﴾ (١٢) [التحريم]

ففرعون الذي أضلَّ الناس وأدعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكان الحق سبحانه يُلَمِّعُ للناس جميعاً أن رأيك في الدين وفي العقائد رأي ذاتي ، لا يتأثر بأحد أياً كان ، لا في الهداية بنبي ، ولا في الغواية بأضلِّ الضالين الذي ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقاتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشَخَّصة لتكون نموذجاً وأُسوة يحتذى بها كل أحد ، وإلا لو شخّصت لارتبطت بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فتراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً في بنات آدم ، لذلك عيَّنَها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضروري في مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعني أنها صالحة لأنْ تُتكرر في أيِّ زمان وفي أيِّ مكان ، كما رأينا في قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه ليهمهم أسماء ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسوة وقُدوة للفتيان المؤمنين في أيِّ زمان ، وفي أيِّ مكان ، وفي أيِّ عدد .

قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْيَتَيْنِ .. ﴾ (١٣) [الكهف]

نلاحظ أن مادة للسؤال لرسول الله ﷺ في القرآن أخذت حيناً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبي من القوم ست عشرة مرة ، إحداهما بصيغة الماضي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۞ (١٨٦) ﴾ [البقرة]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما في : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ۖ ۞ (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ ۖ ۞ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَالِ فِيهِ ۖ ۞ (٢١٧) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ ۞ (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَوْ ۖ ۞ (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ ۞ (٢٢٠) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمُنْحِيِّ ۖ ۞ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ ۖ ۞ (٤) ﴾ [المائدة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ۖ ۞ (١٨٧) ﴾ [الاعراف] ثلاث مرات ، [التازعات ٤٢]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ ۞ (٦) ﴾ [الأنفال]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ ۞ (٨٥) ﴾ [الإسراء]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ۖ ۞ (٨٢) ﴾ [الكهف]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ۞ (١٠٥) ﴾ [طه]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجواب عليها مختلف ،

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بدُّ أن يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له ملاحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سألَه المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله - وقد نهاهم أن يسألوه حتى يهدأوا - إلحاحٌ منهم في معرفة تصرفاتهم وإن كانت في الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أن يعرفوا رأي الإسلام فيها ، فكانهم تسوا عادات الجاهلية ويرغبون في أن تُشرع كل أمورهم على وفق الإسلام .

وبتأمل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدة يأتي الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۞ (١٨٦) ﴾ [البقرة] وواحدة وردت مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ (١١٠) ﴾ [طه] وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سئلَه رسول الله بالفعل ، أي : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتت في الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ۖ ۞ (١١٠) ﴾ [طه] سؤال لم يحدث بعد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قلَّت : فما الحكمة في أن يأتي الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ۞ (١٨٦) ﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضي الفاء في جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أن يجيبهم عليه بانتفاء الوسطة من أحد ؛ لذلك تأتي الإجابة

مباشرة دون واسطة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ..﴾ (١٨٦) [البقرة]

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْنَيْنِ ..﴾ (٨٢) [الكهف] أى : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التي قام بها ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٢) [الكهف]

وأى شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولى التاريخ لهذا الرجل ، ويؤرخ له فى قرآنه الكريم الذى يُتلى ويُتعمد به إلى يوم القيامة والذى يُتحدى به ، ليظل ذكره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، ويظل أثره فيما عمل أسوة وقُدوة لمن يعمل مثله . إن دَلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أن يُذكر عند الخلق .

فأى ذكر أبقى من ذكر الله لخبر ذى القرنين وتاريخه ؟

و (مِنْهُ) أى : بعضاً من ذكره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذَكَرَ) وردت فى القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقى جميعها فى الشرف والرفعة ، وفى التذكر والاعتبار . وإن كانت إذا أُطلقتُ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر] وبعد ذلك تُستعمل فى أى كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) [النحل]

وقد يُطلق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم . كما فى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ..﴾ (١٠) [الانبيا]

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ۝١٤١﴾ [الزخرف]

أى : صيت حسن وشرف ورفعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛
لأن الاسم إذا ذكر في القرآن ذاع صيته ودوى في الآفاق .

وقلنا في قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أن خطف من
قومه وبيع في مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول
الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده في
مكة أتى أبوه وعمه ، وكلموا رسول الله في شأن زيد فقال : خيروه .

فلما خيروا زيدا قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك
أكرمه النبي ﷺ وسماه زيد بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن
يبطل التبني ، ونزل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۖ ۝١٠﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ادْعُوهُمْ
لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝٥﴾ [الأحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حزن
زيد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ،
ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه علماً
يتردد في قرآن يتلى ويتعبد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو
الصحابي الوحيد الذي ورد ذكره باسمه في كتاب الله في قوله
تعالى : ﴿قَلَمًا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًّا^(١) زَوْجَنَا كَهَا ۖ ۝٦٧﴾ [الأحزاب]

فأى شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلاحظ في هذه الآية : ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۝٥﴾

(١) الوطر : الحاجة التي يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره .
أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتبهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم
يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٣] .

[الأحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قسطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والاعدل .

إذن : فذكر ذي القرنين في كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلة عند الله ، ومُجازى بأن يُخلد ذكره ويبقى صيته بين الناس في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَّاءَ آيَاتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨١)

التمكين : أي أننا أعطيناه إمكانيات يستطيع بها أن يُصرف كل أموره التي يريدّها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حسب منهج الله ، كما قال تعالى في آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعْهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ .. (٥٦)﴾ [يوسف] فالتمكين يعني إعطائه إمكانيات لكل غرض يريدّه فيُصرف به الأمور ، لكن لماذا مكّناه ؟ مكّناه لأنه مأمون على تصريف الأمور وفق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانيات .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨١) [الكهف] أي : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شيء يريدّه إلا ويجعل الله له وسيلة موصلة إليه .

فماذا صنع هو ؟

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٢)

(١) أي : أعطيناه ملكاً عظيماً مكّنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحرب والمصارف . [تفسير ابن كثير ١٠١/٢] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شيء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب .

(١) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنِينَ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنْجِذُ
فِيهِمْ حَسْبًا ۖ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكن بهذا المكان ، بل كان قادمًا إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائي فى مكان واحد ، فلو لاحظت الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجزيرة ، فإذا ذهبت إلى الجزيرة ووجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأى عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الالسنه فى كل الأوقات ،

(١) قرأها ابن عاصم وعاصم وحمره والكسائى « حمامية » أى : حارة ، واليساقون قرأوها « حمّة » أى : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . [تفسير القرطبي ٤٢١٨/٦] .

قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٢/٣) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قرأتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمّة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحمار وغيره . » .

فحين نصلّى نحن الظهر مثلاً يصلّى غيرنا العصر ، ويصلّى غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور فى كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهى الظهر لله ، ولا ينتهى العصر لله ، ولا ينتهى المغرب لله ، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مرّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. ﴾ (٨٦) [الكهف] أى : فى عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء . وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد^(١) ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا .. ﴾ (٨٦) [الكهف] أى : عند هذه العين ﴿ قُلْنَا يٰٓأَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٨٦) [الكهف] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفرض إلا المأمون على التصرف ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ .. ﴾ (٨٦) [الكهف] ولا بدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بالله ، فإما أن تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذ فيهم حسناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذى يريد الله أن يتخذه ؟ يعنى أنهم قد يكونون من أهل العقلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فسبّين لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فمن آمن منهم فأحسن إليه ، ومن أصرّ على كفره فعذب ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعظة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

(١) أبو الكلام آزاد : هو أحمد بن خير الدين ، الهندى الأب ، المربى الأم والثقافة ، ولد بمكة (١٣٠٢ هـ) وأصله من دهلوى . درس على علماء الأزهر ، فمفسر من خطباء المسلمين وزعمائهم فى الهند أيام جريكتها التحررية ، تولى وزارة المعارف فى الهند إلى أن تولى مشغولاً عام (١٣٧٧ هـ) [الإعلام للزركلى ١/ ١٢٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
فِي عَذَابٍ عَدَّابًا نُّكْرًا ﴾ (٨٧)

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ٠٠ ﴾ (٨٧) [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التي سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكنه أن يعظيهم ويذكرهم ويفهمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أظلمها وأعلامها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (٨٧) [الكهف]

فلن نُعَذِّبْهُ على قدر ما فعل ، بل نُعَذِّبْهُ عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شرعت لحفظ توازن المجتمع ، وردع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة في غير المؤمن ؟ لذلك نرى الأمم التي لا تؤمن بالله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشد في الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (٨٧) [الكهف] والشيء النكر : هو الذي لا تعرفه ، ولا عهد لنا به أو ألفه ؛ لأننا حينما نُعَذَّب في الدنيا نُعَذَّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله في الآخرة فهو شيء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ
الْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٨٨)

قوله : ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ..﴾ (٨٨) [الكهف] أى : تعطيه الجزاء الحسن ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٩) [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفِّزه ، وإنَّ كُفَّنَاهُ كُفَّنَاهُ بالامر اليسير غير الشاق . .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمع بلا جزاءات تثيب المحجذ وتعاقب المقصّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيب ، فإنَّ أَمِنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانیه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسبب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجذ ويعمل ويخلص فهو مُتَّكٍ القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أن تتصوّر مدى الفساد والتسيب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٩٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٩٨) [الكهف]

فما أجمل أن نرصد المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطة أن يقوم ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والْحُسْنَى : أفعال التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناها الحسنَى

فَالْحَسَنَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ (٢٦) [يونس]

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ سَبِيحًا﴾ (٨٩)

أى : ذهب إلى مكان آخر

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠)

قوله تعالى : ﴿مَطْلِعَ الشَّمْسِ ۖ﴾ (٩٠) [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة : لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (٩٠) [الكهف] السُّتْرُ : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينى الحر أو ليقينى البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كيعض القبائل فى وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظلون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حر الصيف أو برد الشتاء ، وهم أناس متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يعرضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وجه الإنسان وهو

مكشوف الحر والبرد ، ولتقلبات الجو ؛ لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديد الحساسية للحر أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أن تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويروون الملابس ، وكيف أنها زينة وستر للعورة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم . وإن قسنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضّرهم ووفر لهم أسباب الرقى .

وبعض المفسرين يرون أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يزل لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يزل لها سترأ يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿١١﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ﴿١٢﴾

ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (٩٣)

السدة: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبين هنا يقتضى وجود فجوة بين السدين يأتى منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا .. ﴾ (٩٣) [الكهف] أى : تحتها ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (٩٣) [الكهف] أى : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذى يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يُقال لهم ، ومعنى : ﴿ لَّا يَكَادُونَ .. ﴾ (٩٣) [الكهف] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفى عنهم الفهم ، بل مجرد القرب من الفهم ، وكأنه لا أمل فى أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُوا يٰذَا الْفَرْتَيْنِ .. ﴾ (٩٤) [الكهف] فأنيت لهم القول ؟

يبدو أنه خاسطهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعل من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شك أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يفهمهم ويفهم منهم ، وإلا فقد كان فى وسعه أن يتصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٢٢٤/٦) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » . وقال ابن كثير (١٠٢/٢) : « هما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك » .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذي لا يالو جهداً في نفع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا بئذا القرنين إن ياجوج وماجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ ٩٤

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبِّرة تعبير القول ، فلا بد أنهم تعارفوا على شيء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

وياجوج وماجوج قوم خلف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم ؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له (خُرْجاً) أى : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أن يسد لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق - تبارك وتعالى - عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ ٩٥

والقول هنا أيضاً قول دلالة وإشارة تفهمهم أنه فى غنى عن

(١) الخُرْج والخراج : ما يخرج منه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذي أعطاه الله ، إنما هو في حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكن في الأرض المالك للشيء يجب أن تكون حسنة لله ، وأن تُعين معونة لا تحوج الذي تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كان تعلمه أن يعمل بنفسه بدل أن تعطيه مثلاً مالاً ينفقه في يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطيني سمكة ، ولكن علمني كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمُر .

ولما كان ذو القرنين مُمكنًا في الأرض ، وفي يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو في حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ (٩٥) [الكهف] أي : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصمة ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) [الكهف]

ولم يقل : سداً ؛ لأن السد الأصم يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّةٌ مثلاً في ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردمًا أي : يبنى حائطًا من الامام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردمًا من التراب ليكون السد مرنًا لا يتأثر إذا ما طرات عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوسْت » التي تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرَةً مثلاً وتُسَوِّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أن يسمع ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ (١٦)

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوات ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أن يأمر زجاله بعمل هذا السد ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدربهم ويُعلمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا..﴾ (٧) [الملاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أى قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرَة ، والقَطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون فى المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسد ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الاعداء من خرقه ، وليكون املس ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلمون عليه .

فقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ (١٦) [الكهف] الصدف :

(١) زُبَرَ الحديد : قطعه . والصدغان : الجائبان . [القاموس القويم ٢٨٣/١ ، ٢٧٨] .

الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۖ ۝١٥٧ ﴾ [الأنعام] أى : مال عنها جانبا .

فمعنى : ساوى بين الصدفين ، أى : ساوى الحائطين الأمامى والخلفى بالجبلين ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ۖ ۝٩٦ ﴾ [الكهف] أى : فى الحديد الذى أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿ قَالَ أَتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ ۝٩٦ ﴾ [الكهف] وهكذا انسبك الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فأصبح لدينا حائط صلب عال أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لِنَفْثِهِ ۖ ۝٩٧ ﴾

(أن يظهره) أى : ما استطاعت ياجوج وماجوج أن يعطوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۖ ۝٩٧ ﴾ [الكهف] لأنه صلب .

ثم يقول تعالى على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ ۝٩٨ ﴾

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ۝٩٩ ﴾

لم يفت ذا القرنين - وهو الرجل الصالح - أن يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأن يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ۖ ۝٩٨ ﴾ [الكهف] لانتى أخذت المقومات التى منحنى الله إياها ، واستعملتها فى خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقرة مخلوقة لله ، المواد والعناصر فى الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لى أن أقول : أنا عملت كذا وكذا ؟